محمود تيمور

سلوى في مهب الريح




سلوى

في مهب الريح

قصة مصرية

محمود تيمور

١

لا أذكر من تاريخ حياتى ، قبل العاشرة من عمرى ، إلا أطيافاً شاحبة ...

فى تلك الفترة كان يكفلنى جدّى لأبى ، فأقمتُ معه فى منزلنا العتيق بحىّ «محرم بك» فى «الإسكندرية» : منزل لا فخامة فيه . تحيط به حديقة شعثاء ، يطل على حارة منزوية لا تُطرق .

وكان جدى ، منذ تُوفى أبى، قد أخلد إلى العزلة ، وآثر الوحدة ، وتوضحت على محيّاه سمات التجهم للدنيا ، والتبرم بالحياة ... ولم يكن يزوره إلا رجل علت به السن ، وقوّضت بناءه الأيام ، يدعى «الطوخى أفندى» ، فيمضى كلاهما بعض الوقت فى حجرة الضيافة القائمة فى ركن من الحديقة ، فأراهما حيناً يتناقلان الحديث ، وحيناً يلعبان بالنرد ناشطين لا يعتريهما ملال . وكنت وأنا فى حجرتى يصكّ سمعى صوتهما مدوّياً كهزيم الرعود ، فتنتظمنى رجفة ، ويخيل إلىّ أنهما مشتبكان فى تضارب وسباب !

ولم يكن فى الدار من الخدم غير «أم يونس» و«الحاج مسرور» ... الأولى ضامرة عجفاء ، توهم من يراها أنها تنوء بالأمراض ، ولكنها فى الحقيقة صلبة العود ، قوية الأعصاب ... أما «الحاج مسرور» فكان

سودانياً أميل إلى البدانة ، طلق الوجه ، هادىء الصوت... وكان كلاهما يحسن معاملتى ، ويتعهدنى بعطف وحدب ، فشعرت نحوهما بحب وشغف. وشدّ ما كان يسوءنى أن أرى جدّى لا يعاملها بالحسنى . فهو ينحى دائماً عليهما باللائمة ، ولا يفتأ يؤاخذهما ويسفه آراءهما فى كل شىء .

ومرة دخلت عليه فى حجرته ، وكان منصرفاً إلى مطالعة صحفه ، وتدخين لفائفه ، فدنوت منه واجتذبتُ أطراف جلبابه فى تلطف ، فعلا برأسه ينظر إلىّ ، فلما شاهدته قد زوى ما بين حاجبيه ، وبدا عليه العبوس ، ولّيت منه فراراً ، ولكنه نادانى ملحّاً ، فعدت خاشعة مطأطئة الرأس ، فأجلسنى على ركبتيه ، ومسح على ناصيتى ملاطفاً ، ثم نظر إلىّ مبتسماً ، وقال : ماذا تبغين يا « سلوى » ؟

فلبثتُ صامتة ، وأنا أثنى طرف ثوبى وأبسطه ، فضمنى إلى صدره ، وقال : قسماً إنك لتبغين أن تشترى « شكولاته » ! ...

فرفعتُ إليه رأسى ، وقلت مؤكدة : كلا ، يا جدّى !

— إذن ، ماذا تريدين ؟

— أتعدُنى ألا تغضب من مطلبى ؟

فضحك قائلا : الأمر خطير إذن !

فقلت فى جدّ : هو كذلك يا جدّى ...

فأطال النظر إلىّ ، وهو يبتسم ، ثم قال : أفصحى ...

فالتصقت به ، وأخذت بيمناه أنهال عليها تقبيلا .

ثم قلت : لماذا تسىء معاملة « أم يونس » و « الحاج مسرور » يا جدّى ؟ ! ...

فأخذ برأسى ، ورفعه إليه ، وأنعم النظر فىّ ، قائلا :

عجيب أمرك يا « سلوى » ... وهل يعنيك شأن « الحاج مسرور » و « أم يونس » إلى هذا الحد ؟

— يعنيني جداً ...

فصمتَ لحظة ، ونظره لا ينِدّ عن وجهي . ثم قال :

إذن أعِدك بألا أسيء معاملتهما بعد الآن ...

فعرتني هزة اغتباط ، وجعلت أوسع جدّي تقبيلا ، ثم خرجت أعدو لأزف البشرى لصديقيّ الكبيرين ...

ولم يبرّ جدّي بوعده إياي . ولكنه كان حين يراني مقبلة ، وقد احتدّ على أحدهما ، سرعان ما يلطف من حدته ، ويبرح المكان مغمغما ، ثم لا يعتم أن يصيح منادياً إياي ، فينهال عليّ توبيخاً بلا مسوّغ !

واستدعاني مرة ليقول لي :

لقد فكرت في تعليمك يا «سلوى» وسأتولى هذا الأمر بنفسي ...

ثم أخرج من صوان ملابسه كتيّبا أحمر الجلد ، وفتحه أمامي قائلا :

ابدئي القراءة ... ألف ، باء ، تاء ...

ورأيت الحروف أمامي عجيبة الأشكال ، وخيل إليّ أني بصدد ألغاز لن أستطيع الاهتداء إلى حلها ، فوجمت لا أنبس ... وكرر جدّي قوله :

قلت لك ابدئي القراءة ... ألف ، باء ، تاء ...

وكان صوته قد بدأ يتعالى ، وتبينت فيه مسحة الغضب . فارتجفت ، وانعقد لساني . فسمعت جدي يصرخ مهتاجاً :

ماذا أصابك ، أصمّاء خرساء أنت ؟

فانخرطتُ في البكاء ، ورمى جدي بالكتيّب ، وهو يصيح بقوله :

يجب أن تتعلمي ... سأهتم بأمرك رضيتِ أم كرهتِ !

وخرج يدفع الباب وراءه في شدة وعنف . وبعد لحظة عاد إلى الحجرة متثاقل الخطا ، وأخذ يحوم حولي متظاهراً بأنه يبحث عن شيء ... وأخيراً اقترب مني ونحاني عن المقعد في رفق ، ثم جلس عليه ، وأجلسني على ركبتيه ، وقال لي : إنني أقصد خيرك يا «سلوى» ... أريد أن تصبحي في غدك المنتظر فتاة صقلتها التربية وزانها التعليم ، فأراك مفخرة النساء ...

ثم أخرج منديله ومسح به وجهي ، ورفع رأسه إليّ يقول :

أنتِ تكرهينني يا « سلوى » ... أنتِ تكرهينني ...

ولا أدري لماذا لبثت في صمت ، خافضة الرأس ، فسمعته يقول :

أجل ، أنت تكرهينني ، لستِ أنتِ وحدك ، إنكم جميعاً في هذا البيت تكرهونني ... أنا رجل بغيض ، وسيء الأخلاق ! ...

ثم أزالني عن حِجره ، ونهض خارجاً وهو يردد :

أنتم تكرهونني ... أنا هنا رجل بغيض !

وما كاد يبلغ الباب ، حتى أحسست حافزاً يدفعني إليه ، فهرعت أتشبث بجلبابه ، وانطلقتُ أبكي وأنشج ...

وظل جدي طوال يومه رهين حجرته ، ولما خرج منها حين جنّ الليل تبينتُ أن الاحمرار باد في عينيه ! ...

تولى جدّي أمر تربيتي وتعليمي ، فجعلني أحسن القراءة والكتابة ، وحفّظني ما تيسر من القرآن ، ولكني لا أكتم أن أسلوبه في التعليم أسلوب لا يخلو من شذوذ .

ولقد كنت لا أكاد أنتهي من درس معه ، حتى أنطلق إلى الحديقة أطلب الهواء والنور . كأني سجين أطلق سراحه بعد طول عذاب !

٢

كنت أقضى أيامى فى عزلة كما يفعل جدّى، أنفر من الغرباء، وأقنع بصداقة «الحاج مسرور» و«أم يونس»، فأقسم وقتى بينهما مستمتعة بما يقصّانه علىّ من لطائف السمر ...

أما «الحاج مسرور» فرجل ملىء نشاطاً على الرغم من شيخوخته، وهو دمث النفس، وديع الخلق، يؤدى مطالب المنزل جمعاء، ولا يخلى الحديقة من عنايته ... ولقد كنت أراه يقف أمام جدّى فى مسكنة وتخاضع، يحتمل صابراً مايلقى من شراسة وإهانة وإعنات... فإذا ذهبت إليه بعد ذلك أسأله : أمستاء أنت يا «حاج مسرور» رفع إلىّ بصره، وابتسم فى وداعة، وأجابنى : أنا أستاء من سيدى وابن سيدى ؟ !

أما «أم يونس» فكانت مرضعاً للمرحوم أبى، وقد نيط بها اليوم خدمة المنزل وطهو الطعام. وكثيراً ماذهبت إليها فى المطهى، وجلست معها أساعدها فى إعداد الخضر... وكانت دائبة الحديث عن أبى، تقص علىّ شئون حياته وطرائف أنبائه منذ كان طفلا رضيعاً حتى وافاه الأجل المحتوم فى ريعان الشباب... وكانت تشيد بما امتاز به من صفات الرجولة والبطولة، فأخبرتنى بأنه كان من مشهورى رجال الشرطة، طوّف فى أنحاء الريف والصعيد الأعلى، وله فى مكافحة اللصوص مواقع مذكورة تشبه ما خلدته الأساطير من أحداث، وكان إذا حلّ بلداً خرج إليه الناس محتفين بمقدمه، واستقبلته النساء بالأغاريد من كل صوب ...

ولقد كنت أصغى لهذا الحديث مشبوبة الشغف، وأستعيدها إياه لا أملُّ التكرار.

وعلمت منها ذات يوم أن أبى كان يحب أمى حب عبادة ، ولكنه يشتبك معها فى مشاحنات لا يخبو لها أوار .

وسألت « أم يونس » مرة :

ولماذا كانت تجرى تلك المشاحنات بين أبى وأمى ؟

فالت علىّ ، وهى تبتسم هامسة : كان يغار عليها !

— أفكانت تحبه ؟

— لم يكن حبها إياه بكبير ...

— لماذا ؟

فدارت «أم يونس» بعينيها تتبين ما حولها ، ثم أمسكتْ بيدى وشدّت عليها ، وقالت فى صوت منخفض : لقد كان يعنف بها ، وكانت تخشاه!

ثم قالت « أم يونس » فاغرة فاها فى صوت راعب :

لقد كاد يقتلها فى ليلة ليلاء !

فالتصقتُ بها قائلة : كيف ؟

— لقد باغتها مع ...

ثم صمتت فجأة ، وتظاهرت بالبحث عن سلة الخضر ... وبعد لحظة قالت فى لهجة مألوفة : هل حضر اليوم بائع الخضر ؟

فطأطأتُ رأسى ولم أجب ، فقد جاء بائع الخضر وأسلم إليها راتب اليوم ، وإنها لتعلم ذلك تمام العلم ...

وأظلنا الصمت مديداً من الوقت ، وكلانا مشغول بما بين يديه من قرع يقشره ...

ورأيتنى وقتئذ أفكر فى حجرة الزوّار ، وفى صورة المرحوم أبى المعلقة فى أحد حوائطها ، كانت هذه الحجرة مهجورة عليها طابع الأسرار ، قلما

تدخلها « أم يونس » لتنظفها ، وما كنت أرى جدّى يطأ عتبتها ، أما أنا فلم أكن أجسر على دخولها ، وكنت كلما جزت ببابها اعترتنى قشعريرة خوف ...

فتسللتُ من المطهى ، دون أن تشعر بى « أم يونس » ومضيت إلى البهو ، تحدونى رغبة لا قِبَل لى بمغالبتها ، وقد شعرت بشجاعة غريبة ، فدنوت من حجرة الزوّار ، وأدرت مقبض الباب ، وسرعان مادخلت ، نور ضئيل يدلف إلى المكان ، وغاشية من السكون تخيم عليه ... واستطعت أن أرى على الحائط صورة ملوّنة مكبرة بالحجم الطبيعى لشخص مرتد لبوس الضباط ...

مثلتُ قبالة الصورة خرساء ، أطيل التأمل فيها ، ولم أدرِ : أقليل مضى علىّ من الوقت أم كثير ، وأنا على هذه الحال ؟ وخيل إلىّ أن شفتىْ أبى تختلجان ، وأنه بدأ يخطو من إطار الصورة المجلل بالسواد ، فخرجتُ إلى البهو أعدو صارخة فزعة ، فرأيت جدّى فى طريقى ، فارتميتُ فى أحضانه ، وقدمتْ « أم يونس » مهرولة ، فسمعتُ جدّى يقول لها مغضَباً :

ألم أرغب إليك فى أن تغلقى باب هذه الحجرة بالمفتاح ؟

مضى على هذا الحادث يومان ، وكنت فى حجرتى مع « أم يونس » نخيط معاً جلباباً لى ، وكانت هى تثرثر ، راوية لى نتفاً من توافه الأخبار ، فلم أنصت لما ترويه ... وبغتة قلت لها مقاطعة :

أخبرينى عن أمى ... أين هى الآن يا « أم يونس » ؟

فالتفتت حولها مذعورة مضطربة ، وقالت : صمتاً ، لا شأن لى بهذا ...

فانحنيت عليها ، وهمست فى أذنها :

جدّى مع « الطوخى أفندى » فى حجرة الضيافة ... إنه عنا بعيد !

وأمسكتُ بيديها ، وجعلت أقبلهما ، وأنا أقول :

أقسمت عليك إلا أخبرتِنى عنها !... لن أبوح لأحد أبداً ...

فجذبتنى المرأة إلى صدرها واحتضنتنى ... ثم أخذت تمسح عينيها .

وقالت راعشة الصوت : ألا تصدِّقيننى أملك يا « سلوى » ؟

ـــ ولكننى أريد أن أعرف أين هى ؟ ولماذا لا تأتى لزيارتنا ؟

فالتفتت ناحية الباب ، ثم قالت فى خفوت :

إنها فى القاهرة ... فى القاهرة ...

ـــ فى القاهرة ...

ـــ أجل ، فى القاهرة ...

ـــ ولماذا لا تأتى لترانى ؟

فعبست « أم يونس » فى وجهى ، ولم تجب ، وناولتنى الجلباب لأستأنف عملى فيه ، وبينما كانت منهمكة ترينى كيف أخيط ، قالت لى مؤكدة :

إياك أن تخبرى جدك بما سمعته منى !

فأجبتها ، وأنا منحنية على الجلباب أخيط :

لن أقول شيئاً يا « أم يونس » أبداً ... !

٣

صحبت «أم يونس» يوماً إلى «كازينو سان استفانو» لنشهد احتفال «جمعية العروة الوثقى» وتعرفت هناك بفتاة تماثلنى سناً ، تدعى «سنية» من أسرة مثرية ذات جاه عريض، فما أسرع أن نبتت بيننا الألفة ، وما هو إلا وقت قريب حتى أصبحت لى صديقة مخلصة أبادلها الصداقة والإخلاص !

وكانت «سنية» تفـد إلى «الإسكندرية» مع أسرتها ، وكان لها قصر فخم فى الرمل يشرف على البحر . تحف به حديقة فياحة بديعة التنسيق ، يتعهدها بستانيان وقفا عليها جهدهما ودأبهما ، وتناوبا حراستها حتى لا يقتحمها أحد فيمسها بسوء .

وكان لصديقتى طائفة فاخرة من اللعب ، لا أحلم بامتلاك واحدة منها ، ولكن هذه اللعب كانت فى حوزة «مدموازيل شانتل» مربية «سنية» ، وهى لا تأذن لنا منها إلا بما تريد لا ما نريده نحن . فإذا أذنت لنا بشىء منها وقفت تراقبنا مخافة أن نعمل فيها يد الإتلاف . وكانت إذا انكسرت إحدى اللعب ثارت بنا وانطلقت تعنفنا ما وسعها التعنيف .

و «مدموازيل شانتل» عانس ذرفت على الخمسين ، سمهرية القامة، لها وجه محتقن تعيث فيه التجاعيد ... وعلى الرغم من بشرتها السمراء تدعى أنها من نبيلات الفرنسيات ، وأنها خليقة بأن يلقبها الناس : «مدموازيل دى شانتل» ... أحضرها «الزهيرى باشا» والد «سنية» لتكون مربية لابنته ، وأحال إليها إدارة المنزل بعد وفاة زوجه ... وكنت حين أذهب لأحييها أمد إليها يدى ، فتقرب منى أناملها ، وتفتح فمها عن ابتسامة أشبه ما تكون بتكشير الكلاب عن الأنياب ...

وكانت دائماً تتناول معنا الغداء ، تاركة «للدادة شيرين» أن تقوم بالخدمة ... وفى ذات يوم كنا نحن الثلاثة على المائدة نأكل ، وبغتة أظهرت «المدموازيل» امتعاضها ، ورمت بالشوكة ، وقالت بالفرنسية، موجهة الخطاب إلى « سنية » : من طبخ هذا الصنف ؟

فأجابتها «سنية» خائفة: «الدادة شيرين » يا « مدموازيل » ...

فالتفتت إلى « الدادة » ، وأشارت إلى الصحفة فى رطانة منكرة :

زفت ... زفت ... زفت ...

فبرطمت « الدادة » قائلة فى صوت مكتوم :

زفت على دماغك ودماغ أبيك !

فاحمرّ وجه « المدموازيل » وسألت « سنية » :

ماذا تقول هذه الكلبة القذرة ؟ ماذا تقول ؟...

فارتبكت « سنية » ، وامتقع وجهها ، وقالت متلعثمة :

لا شيء يا « مدموازيل » ! ... لا شيء !

ثم أخذت يدها ، وجعلت تقبلها ، ولكن « المدموازيل » شدّت يدها من يد «سنية» ورمت بالفوطة . وقامت وهى تقول : سترى كيف أعاملها بعد الآن ... سأدوسها بحذائى ! ... سأسحقها تحت قدمى ! ...

ثم ألقت فى فمها جرعة من الماء فى عجلة ، وصاحت :

الحياة فى هذا المنزل أصبحت لا تطاق ... لا أستطيع أن أمكث أكثر مما مكثتُ ... أسامعة ! ... يجب أن تبلغى أباك ما أقول ! ...

واعتقدت أن « المدموازيل » مبارحةٌ المنزل عما قليل ، ولكنى وجدتها مقيمة فيه لا تفارقه يوماً .. وقد شهدتُ مثل هذا الموقف الصاخب غير مرة ، حتى ألفتُ هذه الحال ، فلم أعد أعيرها جانب اهتمام ...

وكانت «سنية» تحبنى أصدق الحب ، وتولينى من دلائل الإخلاص ما يبعث العجب . وكثيراً ما اندفعت تقبلنى فى غير مناسبة ، ولا تفتأ تدللنى وتدعونى بأعذب الأسماء ، فكنت أبادلها العطف دون إفراط ، ولا أنكر أن مبالغة «سنية» فى حبها وتدليلها إياى كان يبعث فى نفسى شيئاً من الضيق ...

أما والدها «الزهيرى باشا» فكان رجلا مبسوط القامة ، عبل الجسم ، له عينان حادتان كعينى الصقر ، يظللهما حاجبان غزيران ، وله شارب أحكم فتله ، وصوت أجش عريض تبعث نبراته رهبة فى القلوب . فكنت أتحاشى لقاءه ، بيد أن رغبة خفية كانت تدعونى دائماً إلى مراقبته دون أن يشعر بوجودى .. وكانت «سنية» على علم بهذه الرغبة فى نفسى ، فكانت تقودنى إلى مخبأ أمين أجلس فيه معها ، وأراقب «الباشا» وهو فى عباءة من الحرير الأبيض تزيده بهاء ومهابة ، جالس على مقعده الفسيح يطالع الصحف ، ويحتسى القهوة ، وينفث دخان اللفائف على نحو يثير الإعجاب ...

ومرة كنت أعدو فى البهو الكبير خلف سنية ، لألحق بها ، فآخذ بتلابيبها ، وإذا بشخص يصدمنى لا أدرى من أين نجمَ ، وما هى إلا أن تبينتُ أنه «الباشا» نفسه ، فأصابنى من الرعب ما أشل أوصالى وأخرس لسانى ، ورأيته يحدق فىّ ببصره النفاذ ؛ ثم مدّ لى يده فى حركة رائعة ، فانحنيتُ عليها وقبلتها فى خشوع ، وسرَت فى جسمى هزة كهربية حين لمستُ تلك اليد الضخمة التى يكسوها الشعر وتفوح منها رائحة التبغ ، وبعد أن لاطفنى ومسح على رأسى مبتسما تابع سيره .

وهرعتُ إلى «سنية» أقول : لقد رأيته الساعة ، وقبلت يده ، و ... ثم أمسكتُ بغتة عن الكلام . فقالتْ لى : أى شخص رأيته ؟
فقلت : لا أحد ... ومضيت صامتةً ، تتنازعنى شتى المشاعر !

وكثيراً ما كنت أصادف عند « سنية » غلامين يكبراننا بأعوام قلائل ، الأول يُـدعى «شريف» وهو من ذوى قرباها ، غير أنه لا يسامها جاها ومالا : فتى مهندم عليه طابع النبل ، ذلق اللسان جرىء ، يدخل على « الزهيرى باشا » وهو فى مجلسه مع أصدقائه ، فيصافح الجمع واحداً بعد واحد ، وهو مرفوع الرأس يبتسم ، ويأخذ مقعده بينهم ليشاركهم الحديث ، كأن ليس بينه وبينهم من فارق ... وكان « الزهيرى باشا » يطيل معه الـكلام ، ويكثر من محاورته فى مختلف الشئون ، فكان « شريف » يجيبه فى لباقة وسرعة خاطر يدهش لها « الباشا » وزوّاره.

وقد أخبرتنى « سنية » فى سرّ أنها مخطوبة له من الآن ؛ وكان إذا ظهر أمامنا التصقت بى « سنية » وانطلقت تلقى فى أذنى بكلمات لا أفهم معناها ، وأخذت تضحك فى اهتياج فترنّ ضحكتها باردة مفتعلة تثير الغيظ ... ثم تنفرد به وقتاً طويلا تلعب معه غير حاسبة لوجودنا أى حساب . وإذا انتهت زيارته وخرج ، ألفيتها تمسح عينيها وتدسّ وجهها فى أحضانى !

أما الفتى الآخر ، فيدعى «حمدى» وكنا نكنّيه « أبا قصادة » لأنه كان بائن الطول ، ظاهر النحافة ، إذا جرى خلفنا أثناء اللعب وجدناه يقفز قفزات بعيدة ... لوجهه قسمات متناسبة هادئة ، ولعينيه بريق عجيب ... يؤثر الصمت ، حتى ليشعر الإنسان وهو معه أنه فى حضرة فيلسوف حنّكته السنون !... وهو مغرم بالصفير بفمه . ومن غريب أمره أنه تعلم العزف

على «البيان» وحده دون معلم ... وكثيراً ما انسل إلى حجرة الاستقبال ، وأقفل عليه بابها ، وأخذ يعزف على « البيان » الكبير الموجود فيها ، وقد باغتته مرة «مدموازيل شانتل » فأقفلت «البيان» بشدة ، ثم أغلقت الحجرة بالمفتاح ! ... وكانت «لحمدى» ساعات إشراق ومسرة ، فيخرج عن صمته ، ويندفع يصفر لنا ألحان الأغانى الشعبية فى شعوذة . وإذا مرت به « المدموازيل » وهو على هذه الحال ، التفت إليها ، وانحنى أمامها ، وصرخ بالفرنسية : احتراماتى « للكونتيس دى شانتل » !

ثم يجرى هارباً ، وهو يقفز قفزاته الواسعة ، ونحن فى أثره نضحك ونضج ، وصوت « المدموازيل » يرن فى آذاننا : سفلة ... دون ... !

و «حمدى» فتى من أسرة فقيرة ، أدركه اليتم ، فعاش فى كنف أحد أقربائه بالقاهرة ... وكان والد « شريف » كثير العناية به ، إذ كانت له صلات وثيقة بوالده ، فألحقه بالمدرسة التى يتعلم فيها ابنه ، ومن ثم ارتبط الرفيقان منذ النشأة برباط الصداقة المتينة ... وكان « شريف » إذا قدِمَ مع أسرته إلى الثغر يصطافون ، قدم فى جملتهم «حمدى» يمضى معهم عطلة الصيف .

وتجرأت مرة ، فدعوت « سفية » وصديقها «شريف» و «حمدى» ليقوا اليوم كله عندى ، فلم يعارض فى ذلك جدّى ، وترك لنا المنزل منذ الصباح المبكر . ونزلتُ إلى الحديقة أنتظر الضيوف ، وكنت قلقة لا يستقر بى مقام ، أسأل «الحاج مسرور» بين لحظة وأخرى عن الوقت ثم أدخل المنزل فى عجلة ، لأرى ماذا أعدته «أم يونس» من ألوان الطعام ... وكان يخيل إلىّ أنها فقدت فى ذلك اليوم نشاطها ، وأنها بطيئة فى عملها

على نحو لم أعهده فيها قط ، فكنت أصيح بها وأنا أحثها على الحركة والسير !

وأخيراً سمعت بوق السيارة ، فعجلت إلى الباب ؛ وبعد قليل ظهرت السيارة تتخطر كالعروس ، ثم وقفت أمام البيت ، ورأيت رأس «حمدى» يطل ، فما إن وقع بصرى عليه حتى انفجرت ضاحكة ... ونزل «حمدى» وهو ينظر إلىّ متسائلا ، ثم ما عتم ان اندفع هو أيضاً يضحك . ونظر إلينا «شريف» و «سنية» وهما مدهوشان ، ولكنهما لم يلبثا أن استغرقا فى موجة من الضحك . وانتقلت العدوى إلى «الأسطى جميل» سائق السيارة و « الداده شيرين » التى اصطحبتها « سنية » فانطلقنا جميعاً نضحك ، ولا ندرى لهذا الضحك من مأتى !

وأخيراً سكنت العاصفة ، ودخلنا المنزل ونحن نمسح عيوننا ، وكان «شريف» يتقدمنا فى السير ، كأنه يعرف المنزل حق المعرفة ، على حين أن زيارته هذه كانت الأولى !

وطوّفت بأصدقائى فى المنزل ، وأريتهم حجرتى ، وأخرجت لهم ملابسى ولعَبى وكتبى ، ولم أترك كبيرة ولا صغيرة مما تحتويه خزائنى إلا عرضتها عليهم ... والتفت ضيوفى حولى ينظرون إلى هذه الأشياء ويتفحصونها ، على الرغم من أنها كانت عادية لا تستثير أى اهتمام ...

ورأيت « سنية » تقلب فى يدها خاتماً من الصفيح كنت كسبته فى البخت ، فأخذته منها ، ووضعته فى إصبعها ، ثم قبّلتها .. وفهمت قصدى ، فابتسمت وقبلتنى !

ووجدت «شريف» و « حمدى » يراقباننا ، فقصدت من فورى إلى مكتبى ، ثم قدمت «لشريف» قلماً رصاصاً أحمر مزوّداً بغطاء وماحية ، وأهديت إلى «حمدى» صفارة صغيرة من الخشب ، فتناول كلاهما هديته

مبتهجا فرحان ، واندفع «حمدى» على الفور يصفر ببعض ألحانه اللطاف .

ثم نزلت بضيوفى إلى الحديقة ، واخترنا خميلة تجتمع فيها طائفة من الأشجار الهرمة ، فاعتزمنا أن نلعب تحتها ونتناول الغداء ...

ونظر «حمدى» إلى الخميلة حيناً ، ثم قال رزين اللهجة متئد المنطق :

ألم تلاحظوا شيئاً فى هذه الأشجار ؟

— أىّ شىء ؟

— أمراً غريباً ... مدهشاً !

— ؟ ... ؟ ... !

— دققوا النظر ، ثم أخبرونى ...

ورمينا بأبصارنا فى الخميلة نتفحص ، ولكننا لم نكتنه ما يريد «حمدى» ولم نفطن إلى شىء فى الشجر . فقال : أيها الأغبياء ... هناك شبه عجيب بين هذه الأشجار وبين أناس نعرفهم ... دققوا النظر ثانيا ...

فصاح « شريف » وهو يشير إلى شجرة فى الخميلة : هذه « مدموازيل شانتل » ... انظروا ... ألا ترون عنقها الطويل توَشّيه التجاعيد ؟!

فصحنا فى صوت واحد : حقاً ... « مدموازيل شانتل » ... !

وانطلقنا نضحك . وسمعنا « حمدى » يقول :

صه ...... اسمعوا . ماذا تقول ؟...

ثم قال محاكياً صوت « المدموازيل » الخشن :

أيها الأوغاد ... كلكم سَفِلة ... دون... سفِلة ... دون !

فانبرينا نغرب فى الضحك... ورحنا نطلق على كل شجرة اسم تابع من أتباعنا ، متلمسين ما يكون بينهما من مَشابه . واشتبكنا فى حديث طويل بين الضحك والصياح !

وكانت « سنية » ملازمة « لشريف » كظله ، دائمة التطلع إليه . فإذا قال قولا أسرعت توافق عليه ، وإذا طلب شيئاً هبّت مهرولة توافيه به ، وكثيراً ما تنحنى عليه وتهمس فى أذنه ، ثم ترسل عالى الضحك ...

ووجدت « شريف » قد بدأ يتبرم بها ، وأخيراً ثار عليها ينهاها أن تتمادى فى هذه السخائف ، فاضطربت واصفرّ وجهها ، ثم جرت إلى المنزل مختفية فيه ، فقفوتُ أثرها ، فوجدتها مختبئة فى إحدى الزوايا المظلمة وقد استبدّ بها البكاء ، فلاطفتها ، وطيبتُ خاطرها ...

وبعد قليل ألفيت « حمدى » و « شريف » يقبلان علينا .

وما هى إلا أن تم الصلح بين « سنية » و « شريف » دون كبير عناء ...

وعدنا إلى الحديقة نلهو ونلعب !

٥

ساءت صحة جدّى ، وثقل عليه المرض . فلزم حجرته ، وكان «الطوخى أفندى» يبادره بالزيارة كل يوم ، ويقضى وقتاً طويلا معه ، يقرأ له الصحف ، ويناقله الأحاديث ... وكثيراً ما تناول الغداء فى البيت ، وأمضى فترة القيلولة فى الحديقة نائما فى ظلال الشجر ...

وكنت أتردد على حجرة جدى . وأشعر بغبطة حين يكلفنى عملا أقضيه له ... وذهبت إليه فى صباح أحد الأيام ، ولما تقدمتُ منه لأقبل يده على مألوف عادتى معه ، راعنى امتقاع وجهه ، فلما أمسكت يده وجدتها شديدة البرودة سريعة الارتجاف ، فتعلقت به وجعلت أحتضنه ، فلاطف رأسى فى تعطف وحنوّ .

وفى غداة غد أردت الدخول إلى حجرته ، فمنعتنى « أم يونس » ، وأسرّت إلىّ قولها : إنه نائم ...

وكان لصوتها نغمة غريبة ، وسمعت جدّى يغطّ غطيطاً مضطرباً فارتعت ، وأمسكت يدَ « أم يونس » أشدّ عليها ...

وبعد حين أقبل « الطوخى أفندى » ومعه « الدكتور حسنى » وكان هذا الدكتور صديقاً لجدّى لا يزوره إلا إذا شكا علة أو إذا أقبل عيد..

دخل « الدكتور حسنى » مع « الطوخى افندى» مترهّلا فى مشيته ، يجرّ نفسه جرّا ، ويحرك أعضاءه فى صعوبة كأن شيئاً يؤلمه ...

ولما انتهت الزيارة وخرج ، وجدته يميل على « الطوخى افندى » ويسرّ إليه كلمات ، على حين كانت أسنانه مطبقة تَصِرّ ، وشفتاه منفرجتين فى شكل مخيف !

وأمضيت اليوم كله وأنا قلقة ، أحيا فى جو غامض ... ولا زمتُ « أم يونس » بابَ حجرة جدى ، فجلستُ بجوارها صامتة . وكنت أرفع بصرى إليها ، فأجدها تتحدث إلى نفسها مغمغمة ، وتشير بيديها إشارات الحسرة والألم ، فيزداد قلقى واضطرابى ...

وقضيت هَزِيعاً من الليل على تلك الحال ، ولم أذهب إلى فراش النوم إلا بعد أن رضيتْ « أم يونس » أن تصاحبنى فى الفراش ! ...

واستيقظتُ فى رونق الصبح ، فرأيت «الدادة شيرين» خادمة «سنية» بجانب سريرى ، فعجبت لوجودها ، وبادرتُها بقولى : أنتِ هنا يا «دادة» ؟

فانحنت علىّ ، واحتضنتنى طويلا ، وقبلتنى ، ثم قالت لى :

ستقضين اليوم عندنا ... هيا ...

— لماذا ؟

— هيا يا «سلوى» ... لا تضيعى الوقت .

ورأيتها تبتسم ...

ولكن أية ابتسامة هذه التى طالعتنى بها ؟ كانت مروّعة حقاً !

وسألتها : و « أم يونس » ... أين هى ؟

— مشغولة يا بنتى ، مشغولة ... هيا البسى ، فالسيارة تنتظرنا بالباب

وارتديت ثيابى مسرعة ، وأردت رؤية جدّى قبل الخروج ، ولكننى وجدت «أم يونس» بالباب تمسح دموعها ، فعجبت ، وسألتها : فيم تبكين ؟

فأخبرتنى بأن الوزة الكبيرة التى كانت تربيها قد ماتت فى الليل ، فشعرت بكآبة تتسرب إلى نفسى ، وهممت بفتح باب الحجرة لأرى جدّى ، ولكن سرعان ما حالت دون ذلك « الدادة شيرين » وهى تتمتم :

جدّك يا « سلوى » نائم ، فلا توقظيه .

وفى هذه اللحظة أقبل « الطوخى أفندى » و « الدكتور حسنى » ، الأول يمسح عينيه ، والآخر ساهم النظرات . وفى إثرهما رجل معمم يلبس القباء دون أن يتمنطق بالحزام ، وقد شمّر كميه ، وأخذ يتفحص أركان البهو .

وهنا أطلقت « أم يونس » صيحات عالية يقطعها النحيب .

وأخذتنى بين ذراعيها ، وغمرتنى بقبلاتها ، وهى تصيح :

جدك راح يا « سلوى » ... راح وانتهى !

فوجمتُ إذ ذاك ، وعرفت أن الذى مات هو جدى المسكين ، لا الوزة الكبيرة ! ...

فاندفعت فى بكاء ونشيج ، ولكن سرعان ما أحسستُ يد « الدادة شيرين » تلاطفنى ، ثم أخذتنى بين ذراعيها ، وحملتنى إلى السيارة حملا .

٦

لبثتُ في بيت «سنية» خمسة أيام ، كنت فيها موضع الرعاية والعطف من الجميع ، حتى من « مدموازيل شانتل » فقد نزلتْ لي عن بعض كبريائها ، وراحت تلاطفني وتكلمني رقيقة اللهجة ...

وكنت أنام الليل مع «سنية» في سرير واحد ، وأقضي الوقت معها نلعب... وجاء «الزهيري باشا» مرة الحجرة ، وأجلسني على ركبتيه ، وقال لي وهو يربت كتفي : أمسرورة أنت عندنا يا « سلوى » ؟

فطأطأت رأسي مبتسمة ... وقال « الباشا » :

لماذا لا تجيبين ؟ يظهر أنك غير مسرورة !

فأسرعتْ «سنية» تقول : إنها مسرورة يا أبتِ ، وقد أسرّت إليّ أنها تريد المكث عندنا طويلا .

فنظرتُ إلى «سنية » نظرة عتاب، وسمعت «الباشا» يقول هامساً: حبذا ... ولكن ...

ثم مسح على رأسي ، وترك المكان .

والتفتّ إلى « سنية » أقول لها : لماذا أخبرتِ أباك بأني أريد المكث عندكم طويلا ؟ أقلتُ لكِ ذلك من قبل ؟

— أساءك قولي ؟

— كلا ، ولكنني أريد العود إلى منزلي .

— لم أكن أحسب أن كلامي يسوءك إلى هذا الحد !

— ثِقي أني لست مستاءة منكِ ...

— إذن ، ممن ؟

— لست مستاءة من أحد على الإطلاق !

وأطرقت وقتاً ، وأنا أشعر بضيق يغزو قلبي، فبالرغم مما كان يشملني في ذلك القصر من رفاهية وراحة ، كنت أحس أحياناً فراغاً كبيراً حولي، فيخيل إليّ أني أعيش وحيدة في مكان واسع يغشاه الصمت المخيف...

وكانت ذكرى جدي تلازمني ، وصوت « أم يونس »وهي تقول لي:

جدك راح يا « سلوى » ... راح وانتهى !

يقرع سمعي من حين إلى حين قرعاً شديداً ، فأرتجف، ويسري في أوصالي فزع شديد ...

وأمسكت يد « سنية » بغتة ، وقلت لها في لهفة :

لماذا لا تأتي « أم يونس » ؟ أين هي ؟

فنظرتْ إليّ خائفة ، وقالت : لا أدري !

— أخبريهم أنني أطلبها ، أرغب في رؤيتها ... أرجوك !

ثم شعرتُ بالدموع تنبثق من عيني دفعة واحدة ، فأخفيت وجهي في يدي ، واسترسلت أنتحب ...

وتواصلت الأيام على هذه الحال ، وبينما كنت ألعب يوماً مع «سنية» في البهو الكبير، سمعت «الباشا» يتكلم محتداً، فأرهفت سمعي وَجلةً ، فإذا به يقول : لا أريد أن تطأ هذه المرأة باب منزلي مرة أخرى ، سأرسل إليها الكاتب ليتفق معها في شأن ابنتها ...

وتبادلنا أنا و «سنية» النظرات ، ثم هربنا إلى ركن من الأركان، فاختبأنا فيه ... وبعد قليل رأينا « الدادة شيرين» تخرج من الحجرة التي كان فيها « الزهيري باشا» وهي تتمتم ، وتشير بيدها إشارات التأفف...

٧

صبحتنى «الدادة شيرين» بقولها هامسة : «ستذهبين اليوم للقاء أمك ...»
فحملقت فيها دهشة ، وقلت متلعثمة : أمى ؟... أمى ؟
— إنها تنتظرك هناك فى المنزل ...
فأمسكتُ بيد «الدادة» وجعلت أشدّ عليها ، فأحاطتنى بذراعيها ، وقالت : إن « أم يونس » ستكون هناك ...
وأعدت لى السيارة ، فركبتها ، ولم يصحبنى أحد هذه المرة ، والتفتُّ حولى ، فخيل إلىّ أنها أكثر اتساعا عن ذى قبل ، وكان المشاة ينظرون إلىّ وأنا جالسة فى مقعدى جلسة الراحة والترف ، فيغمرنى سرور كبير .
وكان قلبى يدق حين أسمع بوق السيارة يصرخ فى الناس بصوته الذى يشبه عواء الكلاب . فيتفرقون مذعورين ...
وخطر لى أن أسأل :
هل تملك أمى سيارة كهذه ذات بوق له مثل هذا الصوت ؟!
وكان يستبد بخيلتى خاطر واحد ، وهو : أمى !
ما صورتها ؟ كيف تستقبلنى ؟ ماذا تريد منى ؟ أية حياة تنتظرنى ؟
ووصلتُ إلى المنزل ، ونزلت أعدو ، وما إن اجتزت الحديقة ، ودخلت الردهة ، حتى شعرت برهبة تملكنى ، وأطلت النظر فى حجرة جدى المقفلة ، ولكنى لم أستطع الدنوّ منها ، وأسرعت الخطا حين مررت بها ، وقصدت إلى حجرتى . وما كدت أخطو خطوة فيها حتى رأيتنى أمام «أم يونس» وكانت تقف بجوارها سيدة ، فمكثت فى مكانى لحظة وأنا أنقل عينى

بينها وبين « أم يونس » وقد اشتدّ وجيب قلبي . . .

ورأيت « أم يونس » عابسة ساهمة ، على حين أن السيدة الأخرى كانت مشرقة باسمة . وهرعتُ إلى « أم يونس » فتلقتني في أحضانها ، ثم لاطفتني ، وأخذت بيدي وخطت بي نحو السيدة وهي تقول لي : هيا قبّلي أمك !

وسمعت السيدة التي دعتها « أم يونس » أمي ، تقول في صوت منغم :

تعالى ، ياسلوى » . . . تعالى .

فتقدمت منها . وقد فغمتني رائحة الطيب الذي كان ينبعث منها ذكياً شديد الذكاء ... ولاحظت أنها تلبس السواد ، وسرعان ما نكستُ رأسي أمامها ، فانحنت عليّ ، وقبلتني قبلتين صغيرتين ، وقالت « لأم يونس » :

إنها كبيرة ... كبيرة ... ماشاء الله !

وضحكتْ . فأفزعني ضحكها بالرغم مما فيه من طراوة ، ثم وجدتها تخرج من محفظتها حُقّ الذّرور (البودرة) وعلبة الصِّبْغ ، وأخذت تزين نفسها ، وترجل شعرها ... واختلست النظر إليها فبهرتني هيئتها ... لقد كانت تتلألأ تلألؤ الأنوار في المحافل والمهرجانات !

وعجبت من نفسي إذ لم أشعر بأية عاطفة نحوها ، بل على العكس بدأت أحس وأنا معها بضيق . وخرجتْ «أم يونس» وهي تدعو لنا بمختلف الأدعية ... وتناولت أمي من المائدة علبة أخرجت منها عروساً فاخرة أعطتني إياها ، وهي تقول : أتعجبك هذه العروس ؟

فابتسمتُ ، ولم أجب ...

وتابعتْ أمي قولها ، وهي تضحك : أرى أنها لا تعجبك !

فقلت في صوت خافت : بل تعجبني جداً ...

فقالت لي : يجب ألا تكوني خجولاً معي يا « سلوى » ... أنا أمك ... إني أحبك ، ويجب أن تحبيني ... !

٨

تتابعت خمسة أعوام واستقبلت عامي السادس عشر ...

عشت هذه الحقبة مع أمي فى منزلنا « بالسيدة » ذلك المنزل المعتم الذى يملأ النفس انقباضاً ووحشة . وكثيراً ما ساءلت نفسي : كيف قضيت هذه السنين؟ أمحزونة قضيتها أم فرحة ؟ فأقف حيرى لا أحسن الجواب. ولكننى كنت على يقين بأنى أحيا حياة تختلف أبْيَنَ اختلاف عن تلك الحياة التى كنت أعيشها فى كنف جدى .

خمسة أعوام تعاقبت على منوال راتب : اليوم إثر اليوم لا تغيير فيه ولا تبديل ، فكأننى قضيتُ تلك الحقبة يوماً واحداً طويلا لا يعترض سيرَه إلا ليال متشابهات !

ما الذى وقع لى فى هذه الأعوام الخمسة ؟

أليس ثمة من أحداث تستحق التدوين ؟

لا ريب أن هناك ما هو جدير بالذكر ، على الرغم من هذا التشابه المملول.

وأول ما يجب علىّ أن أشير إليه ، هو الشذوذ الغريب فى حياة أمى ، ذلك الشذوذ الذى أصبح بحكم العادة أمرا مألوفاً لدىّ الآن ...

فقد تحققتُ اليوم أن فكرتى التى تمثلتها فى شأن « الأم » من قبل كانت فكرة عاثرة لا تمتّ إلى الواقع بسبب .

كانت «سنية» تروى لى بين حين وحين ما تتذكره من شئون أمها : كيف كانت تُعنى بطعامها وملبسها ومنامها ، وكيف كانت تطهو لها بنفسها بعض الألوان التى تميل إليها . وفى موعد النوم تهيّىء لها الفراش ، وتمكث

بجوارها تسامرها حتى يغلب عليها سلطان الـكرى ... وهذه القبلات التى لانهاية لها ، تغمرها بها طوال اليوم، قبلات وأحضان كانت تثير فى نفس «سنية» أحياناً أشد الضيق ، فتصرخ محتجة ساخطة !

تلك الصورة التى تخيلتها فى شأن «الأم» قد طارت من مخيلتى على أثر انقضاء الأيام الأولى التى عاشرت فيها أمى ...

فلقد كنت إذا استيقظت وسألت عنها «أم يونس» وضعت المرأة إصبعها فوق فمها ، وقالت فى صوت مخفوض :

صه ... لاتعلى من صوتك ، إنها نائمة !

فأصمت ، تاركة مكانى . وأنا أخطو على أطراف الأصابع ...

وكانت أمى تلزم حجرتها نائمة حتى الظهر ، وقد تخرج فلا أراها ، ثم تعود وقد أويتُ إلى مخدعى ... وصار من المألوف أن تنقضى بضعة أيام دون أن أراها ولا ترانى ، مع أنها تعيش معى فى بيت واحد .

أما إذا وقع بصرها علىّ يوماً وهى خارجة من حجرة نومها تقصد إلى الحمام ، فإنها تبتسم لى ابتسامة عابرة ، ثم تقول :

« سلوى » ! ... أهلا يا « سلوى » !

ثم تختطف من وجهى قبلة سريعة ، ولاتلبث أن تتابع سـيرها لاتلوى على شىء !

وكانت أحياناً تقضى اليوم معنا فى المنزل ، لاتبرحه ، فتستدعينى أنا و « أم يونس » لنجالسها ونستمع إلى أحاديثها ... وكان الموضوع الذى تطرقه دائماً واحداً لا يتغير جوهره ، وإن اختلف مظهره ... كانت تحدثنا عن ثروتها البائدة ، قائلة : إنها كانت ثروة ضخمة أضاع والدها أكثرها فى المضاربات وصفقات التجارة ، ولـكنها مازالت تملك بضعة

منازل وفدادين تجلب لها بعض الرَّيع ، وإن هذا الريع ليكلفها متاعب ومشاق ترهقها فتثبت لها وتصبر عليها ، فهى إذا تغيبت عن المنزل فإلى المحامى لدرس القضايا معه ، أو إلى وكلائها تدير معهم الأعمال وتنظم الأمور وترشدهم إلى ما يجب اتخاذه من إجراء ... وكثيراً ما التفتت إلىّ وهى جالسة فى استرخاء تسوى ثوبها الوردى المزركش ، وصدرها يكاد يكون عارياً ، وقالت : اعلمى يا «سلوى» أنه لو كانت أمك من هؤلاء النساء الجاهلات الخاملات اللائى يقضين أعمارهن بين أربعة جدران بالمنزل ، ولا يعرفن من شئون الحياة شيئاً ، لقضيت حياتك فى بؤس وتعاسة ، ولكن احمدى الله على أنى امرأة أجاهد فى الحياة جهاد الرجال ، سعياً فى طلب الرزق ، ورغبة فى أن أوفر لك أسباب العيش الرغيد !

كانت أمى مشغوفة بإعادة هذا الحديث على مسمعى ، حتى أصبحت لا ألقى بالا إليه ... ويوماً قلت لها :

ألا تسمحين لى يا أماه أن أصحبك مرة فى الخروج ؟

فحدقت فىّ مدهوشة وقالت : تذهبين إلى المحامى وإلى وكلاء الأعمال ؟ وهل تفهمين شيئاً فى هذه الشئون ؟

— أريد أن أرى منازلنا التى نمتلكها !

فوجدتها تحدق فىّ بغضب ، ثم اندفعت تقول :

من لقنك هذا ؟ لعلها « أم يونس » !

فنظرتُ إليها مبهوتة ، وقلت : وما شأن « أم يونس » بهذا ؟

فأخذتْ أمى تهز قدميها هزاً عصبياً ، ثم قالت لى وقد ثاب إليها الهدوء : سآخذك يوماً لترَىْ هذه المنازل ...

ولكن ترادفت الأيام والأشهر والسنون ، ولم أر ظلا لمنزل من هاته

المنازل ، وإذا ما سألتُ «أم يونس» عنها وعن الفدادين التى تملكها ، نظرتْ إلىّ المرأة فى إشفاق ، وغمغمت :

أسعدك الله يا بنتى ، وهيأ لك الخير ...

ظللت هذه الأعوام الخمسة قليلة الاختلاط ، لا أعرف كثيراً من الناس. ليس من أحد يزورنى، ولست أترك المنزل إلا ذاهبة إلى « الجيزة » حيث تسكن « سنية » فأقضى معها اليوم كله نلعب بالورق أو نتنزه فى الحديقة أو نستمع إلى المذياع ، وكان من النادر أن نبرح المنزل للذهاب إلى إحدى دور السينما أو غيرها من أماكن اللهو .

ولاحظت أن «سنية» لم تكن تدعونى إلا حين يكون والدها قد سافر إلى الريف ، وإذا اتفق وجود «الباشا» وقت حضورى لقينى بوجه متجهم ، وحيانى تحية فاترة ... أما « مدموازيل شانتل » فكانت تثير سخطى بمعاملتها المشبعة بالاحتقار . وكنت أرى أمامى وجوها محذرة عابسة ، وأسمع حولى همساً أتبين فيه دائماً اسم أمى ، فلا يروق «سنية» ما تسمع ، وتبالغ فى عطفها علىّ ، وإظهار حبها لى ...

أما «الدادة شيرين» ، فهى الشخص الوحيد الذى كان يحسن معاملتى ويحنو علىّ حنوًّا ليس فوقه من مزيد .

ولم أجرؤ على أن أدعو « سنية » إلى منزلى . إذ وضح لى أنهم لن يأذنوا لها بالحضور عندى ، وكان هذا يملأ نفسى بالغيظ الشديد ...

ولم أعد ألقى «شريف» أو «حمدى» فقد سافر الأول إلى «فرنسا» ليتم دراسته فى أحد معاهدها ... أما « حمدى » فقد انقطع عن زيارة « سنية » بعد سفر رفيقه ، وانقطعت بذلك أخباره عنى .

وكنت كلما ذهبت إلى «سنية» انفردتْ بى، وأرتنى الرسائل التى كان

يبعث بها «شريف» إليها. وكثيراً ماقرأتْ لى منها بعض الفِقَر ، فأصغى إليها وأنا أتذوّق فى شغف ذلك الحديث العذب... وكنت أحياناً أرغب إليها فى أن تعيد تلاوة ما أسمع ، ثم أمسك بيدها، وأدقق النظر فيها قائلة :

إنه يحبك يا « سنية » !

فتضغط يدى ، وقد تضرّج وجهها ...

ويحتوينى الصمت لحظة ، وقد تاه نظرى ، شاردة الفكر ، يغمرنى شعور حزين ، فأرى « سنية » تقبل علىّ قائلة : مابك ؟

فأثوب إلى وعيى ، أقول : لاشىء ... هنيئاً لك الخاطب العزيز !

أما حياتى المنزلية فى صحبة «أم يونس» فكانت تافهة يسودها هدوء وخمول ، فعلى الرغم مما كنت أقوم به من العمل لمساعدة «أم يونس» فى طهو الطعام وغسل الملابس وماشابه ذلك من حاجات البيت ، كنت أحسّ فى قرارة نفسى بتراخ وملل تشوبهما كآبة . فأقصد إلى حجرتى ، وأتمدّد على سريرى ، وأقضى وقتاً طويلا وأنا حالمة تحدّق عيناى فى أرجاء السقف !

وثمة شأن آخر خليق بالتدوين ، تم لى أثناء هذه الخمسة الأعوام ، ذلك هو إرسالى إلى المدرسة بعد عامين قضيتهما متعطلة فى المنزل . فقد كنت مرة مع «أم يونس» فى الردهة ، فدخلتْ علينا أمى وبادرتنى بقولها :

لقد حدّثونى عن مدرسة إفرنجية للبنات تقع فى حيّنا هذا يديرها رجل أجنبى وزوجه ، يجرى فيها التعليم على برنامج عصرى : لغة فرنسية ورقص وغناء . وقد رأيت أن الوقت قد حان لإلحاقك بها ... إننى أرغب فى نفعك . وقد تخيرت لك هذه المدرسة لأنى وجدتها تجارى روح العصر الحديث فى التعليم : رقص وغناء ولغة فرنسية !

فرأيت «أم يونس» قد تصدّت للكلام فى شىء من الحدّة ، وقالت :

رقص وغناء ؟ مالنا وللرقص والغناء ؟ هل ينفعها ذلك عندالزواج؟

فقالت أمى فى توكيد : بالطبع ، لترافص من سيخطبها حيناً . ثم تراقصه يوم يصبح زوجاً لها فيما بعد ... ألا تعلمين أن الرقص أصبح من مقتضيات المحافل والمجتمعات العائلية ؟

فتمتمت « أم يونس » وهى تحاول كظم غيظها :

حفظها القرآن أولا ... مالنا وللمدارس « الخواجات » ؟

فوجدت نفسى قد انبريت فى حدّة أجيب « أم يونس » :

لقد علمنى جدّتى القرآن ، وكفى !

فقهقهت أمى طويلا ، والتقت عيناى بعينى « أم يونس » فوجدتها تنظر إلىّ فى دهشة ، وقد اكتسى وجهها بسحابة قاتمة ، دون أن تنبس...

وسمعت أمى توجه قولها إلىّ :

إن « أم يونس » من أهل الزمان العتيق . فاعذريها ... أذكر أنها أخبرتنى مرة بأن زوجها لم يرها إلا ليلة الزفاف !

فقالت « أم يونس » :

إن زوجى ياسيدتى لم تقع عيناه حتى على طرف ثوبى قبل الزواج ولكنه أحبنى وأحببته ، وعشت معه فى هناءة موفورة ..

فازددتُ سخطاً على هذه المرأة الجاهلة التى لا تحسن الدفاع عن قضيتى ، ولكننى كلما اختلستُ النظر إليها ورأيت وجهها الشاحب يحمل طابع الألم والتحسر ، شعرت بخجل يغمر نفسى !

والتفتت أمى إلىّ ، وقالت وهى تبتسم : إن « أم يونس » تريدأن تجعلك على غرارها ، لا يرى خاطبك طرف ثوبك . أما أنا فأريدأن أجعل منك نموذجا للزوجة العصرية ... إننى أرعى دائماً مصلحتك ...

وقامتْ إلى حجرتها . وهى تخطر فى غلالتها الحريرية . فقمت على أثرها قاصدة حجرتى ، وقلبى تتنازعه شتى المشاعر ...

لم تكن مدرسة «العائلة السعيدة للبنات» كما كانوا يسمونها ، بأكثر اتساعاً ولا أوفر نوراً من البيت الذى أسكنه . وكانت تحوى بضع عشرة تلميذة يتعلمن فى فصلين : الفصل الأوّل للكبيرات ، والآخر للصغيرات . وقد ألحقونى به ، مع أنى كنت فى السن التى تخوّلنى دخول الفصل الأوّل ، ولكن معلوماتى كانت فى مستوى التلميذات الصغيرات ، بل أدنى منهن . وكنت إذا وقفت بينهن فى الصف شعرت بخجل من طول قامتى ... وكثيراً ما عيّرنى التلميذات بنقص معلوماتى على كبر سنى !

أما مدرسو المدرسة ومستخدموها فقد كانوا ثلاثة فقط : « مسيو فوكيه » وزوجه «مدام فوكيه» ، وهما صاحبا المدرسة ، وعليهما عبء القيام بمهام التدريس والإدارة . والثالث « أم فضل » التى كنا نعدّها فراشة المدرسة وبوابتها . مع أنها خادمة «مسيو فوكيه» وزوجه ، تؤدى لهما الخدمة المنزلية . وإذا علمتَ أن الرجل وزوجه يسكنان غرفة فى السطح ، عرفتَ أن هذه المدرسة فى الواقع لم تكن إلا مسكناً لصاحبيها ...

لم تخطىء والدتى إذ أخبرتنى بأنها سترسلنى إلى المدرسة لأتعلم الرقص والغناء واللغة الفرنسية . فلم يكن ثمة موادّ للتدريس غيرها . ولكنها كانت تدرس على الفطرة لا على نهج مرسوم ونظام معلوم . وإنى أذكر أن درس الرقص والغناء تعطل بضعة أسابيع لخلل أصاب «البيان» المهشم الكسيح ذا الصوت الأبحّ ... وكان « مسيو فوكيه » هو الذى يعزف دائماً عليه ويغنى ، أما «مدام فوكيه» فكانت تعلمنا الرقص . وكان هذا الوضع يدهشنى ، إذ كنت أعلم أن الرجال هم الذين يجب عليهم أن يراقصوا

النساء . والراجح أن «مسيو فوكيه» لم يكن يعزب عنه أن هذا الوضع مقلوب . فقد حاول أن يقوم بدور الراقص فى بعض المناسبات ، ولكن صوّبت إليه زوجه سهاماً من نار ، فارتد إلى «بيانه» مهزوماً ... ولم يكن يستطيع «مسيو فوكيه» أن يقاوم زوجه فى هذه المسألة أو فى غيرها . إذ كان منهوك القوى ، عالى السن ، فضلا عن ضمور جسمه وضآلة شخصه ... وكان إذا انتحى ركناً – فى فترة الراحة – وجلس ليحظى بغفوة سانحة شاهدتُ شفتيه ترتجفان بلا سبب .

على أنى كنت أهفو إلى غنائه . فقد احتفظت حنجرته البالية ببعض أوتارها ، فإذا غنى شعرت بشىء من الحنين يستيقظ بين جوانحى ، فأنظر إليه فأجده مندفعاً فى أغنيته وقد أغمض عينيه يحلم فى نشوة ، وترك جسمه يتمايل مع النغم ، وخصلة شعره تتساقط على جبهته ، فتسبغ على وجهه ظلالا شاحبة .

وقد علمتُ أن «مسيو فوكيه» كان فناناً ملحوظ المكانة بين رجال المسارح الغنائية فى الزمان السالف ...

أما زوجه فكانت تصغره بنحو عشرين سنة ، مكتنزة الجسم ، مبسوطة القامة ، لها وجه محتقن ، وعينان جاحظتان ... وكنت أشعر وهى تراقصنى أنها ستعتصرنى بجرمها الهائل ...

أما « أم فضل » فكانت امرأة نحيفة ، ولكنها نشيطة ، تكاد تكون صمّاء ، لا تنبس بكلمة إلا عند الضرورة القصوى . تقوم بعملها صامتة جاهدة . وفى أوقات الفراغ تنتحى ركناً بعيداً تحوك فيه الملابس ، وترتق الجوارب .

كنت أقضى وقتى فى المدرسة فى شبه وَحْدة ، فقد لاحظتُ أن جل

التلميذات يتجنبن مصاحبتى، ويهزأن بى ، فإذا مررت بجماعاتهن سمعتهن يتهامسن، وهُ يشرن إلىّ من طرف خفىّ ... ولكنى وجدت فى «مليحة» السودانية صديقة أركن إلى صداقتها ، فقد ألف بين قلبينا الاضطهاد والعنف ، إذلم تكن « مليحة » بأحسن منى حظاً عند الرفيقات ... وقد نشأت صداقتنا من حادثة يجمل بى أن أرويها : رأيت مرة « حميدة» الأرستقراطية النزعة ،واقفةقبالة «مليحة» تحدجها بنظرة كبرياء وتقول لها : لم يكن ينقصنا إلا هذه «الجارية» تأتى لتشاركنا فى الدرس !

فاتقدت عينا « مليحة » وفى مثل خطفة البرق وجدتها قد هجمت على « حميدة» ، وأنشبت فيها أظفارها ، ولكن صديقات «حميدة» هرعن إليها يساعدنها ، وأمسكن «بمليحة»،واندفعن يكِلْنَ لها اللكمات،فوجدت نفسى قد هجمت عليهن ، ودافعتهُ عن «مليحة» حتى خلصتها من بين أيديهن . وما إن ظهرتْ «مدام فوكيه» فى هذه اللحظة حتى تفرقت التلميذات هاربات ، ولم يبق الا أنا و «مليحة» ، فقد سرنا إليها نشكو الزميلات، فأجابتنا بصفعتين شديدتين ، وانهالت تنعتنا بأرذل النعوت !

كانت هذه الحادثة بدء صداقتى «بمليحة» السودانية ، فتآلفنا وكوّنا اتحاداً صغيراً يقاوم الاتحاد الأكبر من التلميذات الأخريات ، فازددن اضطهاداً لنا وحرباً علينا . وكانت «مدام فوكيه» لا تفتأ تنتصر علينا أعداءنا ، وقد فهمتهُ فيما بعد مبعث هذه المناصرة ، فإن نفقات الدراسة الخاصة بى و «بمليحة» لم تكن تؤدّى بانتظام ، وقد تمر الأسابيع تلو الأسابيع و « مدام فوكيه » تلاحقنا بطلب النفقات ، مزمجرة مهددة ، فأخبر بذلك أمى ، فتعِد ولا تفى !

وحدث مرة أن كنا جميعاً فى الصف واقفات، وأمامنا «مدام فوكيه»

تستعد لإلقاء خطبة موجزة تعوّدنا أن نسمعها منها بين حين وحين . فأشارت إلىّ أن أخرج من الصف ، وأحسست من حركة يدها ورنة صوتها أن هناك شراً ينتظرنى . وقد صدق حدسى ، فإن «مدام فوكيه» رمقتنى بنظرة نكراء من نظراتها الذميمة ، وقالت عالية الصوت :

«مدموازيل سلوى» ... أنت مطرودة من المدرسة ، لأنك لم تؤدّى النفقات ... نحن لا نضيف التلميذات لوجه الله ... غادرى المدرسة من ساعتك !

فأحسست بخزى شديد ، ولم أستطع رفع بصرى لأحد ، وسرت فى خطا آلية نحو الباب ، وكأن غمامة قد غشيت بصرى ، وما إن تخطيتُ عتبة الباب حتى شعرت بيد تلاطف ظهرى ، فرفعت عينى فرأيت « مسيو فوكيه» يرنو إلىّ فى حنو صامت ، فحاولت أن أبتسم له فخذلتنى شفتاى ...

ولما عدت إلى المنزل ، وأخبرت « أم يونس » بالأمر ، صمتت هنيهة وهى تحكّ رأسها ، ثم قالت لى فى غير اهتمام : لن تخسرى شيئاً بانقطاعك عن المدرسة ... وهل استفدت منها شيئاً حتى الآن ؟ !

فلم أجبها بحرف .

وفى غد دخلت على أمى فى حجرتها ، وكانت أمام خوان الزينة تتعطر ، فبادرتها بقولى : لا أستطيع العودة إلى المدرسة يا أماه !

فلم تلتفت إلىّ ، بل كانت جادة فى التزيُّن والتطرية ... وقالت : لماذا ؟

— لأنى لم أؤدّ النفقات ...

— ولكننا سنؤديها ... ألم تخبرى الناظرة بذلك ؟

— لم تعد تصدّقنى ... لقد طردَتنى أمس أمام التلميذات جميعاً شر طرد !

ولم أكد أنطق بالجملة الأخيرة ، حتى ملكنى الشهيق والاستعبار . فالتفتت إلىّ أمى قائلة :

طردتك أمام التلميذات جميعاً ؟ ياللوقاحة ! من تظننا ؟ أتحسب أننا لا نستطيع أن نؤدى لها مطلوبها التافه ؟!

ثم عادت إلى الأدهان والمساحيق ...

وبعد سكتة قصيرة قالت :

سأذهب إليها بما تطلب غداً ... سأقذفه فى وجهها ، وسألقى عليها درساً عالياً فى الأدب ، وسأعلمها كيف تعامل بنات الأسر الكبيرة !

ومرت ثلاثة أسابيع ، وأنا قابعة فى البيت ...

وفى الأسبوع الرابع اصطحبتنى « أم يونس » إلى المدرسة ، وهناك لقيتُ « مدام فوكيه » وسلمتها قسط النفقات ... وقضيتُ هذا اليوم ساهمة صامتة أشعر بهمّ يضغط قلبى ضغطاً . ولم أبادل واحدة من التلميذات كلمة ؛ حتى لقد أوجزتُ القول مع « مليحة » لا يزايل وجهى العبوس !

وقد تعددت هذه الحادثة أثناء الأعوام الثلاثة التى قضيتها فى المدرسة وتكرر انقطاعى عن الدراسة . وأصبحت الأيام التى أقضيها فى البيت تعادل أيام الذهاب إلى المدرسة أو تفوقها ...

ووقع « لمليحة » ماوقع لى ، ولكن تكراره لم يكثر كما هو الشأن معى ؛ فإن « مليحة » حين طردتها الناظرة فى المرة الثالثة فارقت المدرسة إلى غير رجعة ...

على هذا النحو قضيت السنين الخمس !

٩

انقطعتُ عن المدرسة وعدت إلى حياة المنزل . أعين «أم يونس» في أعمالها ، وكان من محاسن مصاحبتي لها أن تعلمت كيف أفصّل وأحوك ثيابي الخاصة . وكنت في الواقع في أمس الحاجة إلى ذلك . لاستحالة تكليف الخياطة الأجيرة أن تحوك ملابسي ... واهتممت مرة بتفصيل ثوب في زيّ مبتكر . قضيت فيه أياماً وليالي ، حتى غدا طرفة بديعة . وكنت قد اقتصدت ثمنه من النقود الضئيلة التي كانت تمنحني أمي إياها أحياناً .

وفي غداة يوم انتظرت أمي في الردهة حتى تصحو لأريها إياه . وخيّل لي في هذا اليوم أنها أطالت نومها إطالة غير مألوفة ، فضجرت وسئمت الانتظار ، وعدت إلى حجرتي .

وجاءتني بعد فترة «أم يونس» تخبرني أن أمي قد استيقظت ، وأنها تتناول الآن فطورها . فأخذتُ الثوب ، ودخلت عليها في حجرتها ، فوجدتها على المتكإ ، وأمامها صينية الطعام ... وتقدمت منها ، ولثمت يدها ، فدنت من خدي تقبله ، وعادت تأكل .

فقلت لها : أماه ... أريد أن أريك شيئاً ...

فأجابتني في سهوم دون أن تلتفت إليّ : شيئاً ؟

ـــ شيئاً بديعاً عملته بنفسي ...

ـــ وما هو ؟

ـــ ثوب جديد ...

فالتفتتْ إليّ ، وقالت : أين هو ؟

فأريتها إياه ، وقلبي بالغ الخفوق ، فمدت يدها إليه . ولمسته لمسة خفيفة ، ثم لوتْ رأسها إلى صينية الأكل [وقالت : أنتِ التي عملته ؟

فأجبتها : أقسم لك يا أماه إنى أنا التى فصلته وخِطته وطرزته ... هل أعجبك ؟

فقالت فى لهجة هادئة : حسن !

ــ هل أعجبك حقاً يا أماه ؟

ــ قلت لك حسن .

وصدمتنى لهجتها ، فاعتزمتُ العودة فوراً إلى حجرتى ، ولكنى رأيت أمى قد تركت المتكأ ، وقامت إلى صِوان ملابسها ففتحته ، وانتقت ثوباً جميلا بسطته أمامى ، وقالت :

انظرى يا « سلوى » هاكِ نموذجا للثوب البديع !

وسرعان ما وجدتها قد خلعت قميص النوم ، وارتدت هذا الثوب ، وجعلتْ تستدير أمام المرآة ، وهى تشير إلى مواضع الفتنة فيه مزهوّة تختال ... وقد كان فى الحق ثوباً بديعاً ... وبغتة ارتفع صوت أمى ينادى « أم يونس » وكانت تشتغل بطهو الطعام ، فجاءت مسرعة وهى تمسح يدها فى مِيدَعة المطهَى ووجهها محتقن من حرّ الموقد ، والعرق على جبينها يسبح ، فالتفتت إليها أمى تقول لها : أريد أن تذهبى فوراً إلى الخيّاطة لتأتى لى بالثوب الجديد ... إنها وعدتنى به اليوم .

فنظرتْ المرأة مبهوتة ، وقالت : والطعام ؟ إنه على النار !

ــ قلت لك اذهبى من فورك وأحضرى الثوب من عند الخياطة ... سأتولى أنا أمر الطعام ...

وحاولت « أم يونس » أن تجادل فى الأمر ، ولكن صيحات والدتى

دفعت بها خارج الحجرة ، فانصرفت تغمغم فى اهتياج كظيم ، ونسيت أحد خفيها البالين الممزّقين اللذين ينافسان فى بشاعتهما خفّى ! ...

وحجزتنى والدتى فى حجرتها وقتاً طويلا تُرينى أثوابها الفاخرة ؛ وترتدى منها واحداً بعد آخر أمامى ؛ وقد أغفلتْ أن تتم فطورها ...

وبينما كنا فى الحجرة نعرض الأثواب ؛ تسللت إلينا من المطهى رائحة الطعام يحترق ، فانتبهتْ أمى للأمر ، وصرخت قائلة :

أوَ أهملت القِدْر يا « سلوى » ؟ ... ما أشدّ نسيانك !

فهرولتُ إلى المطهَى ساخطة ، فوجدت معظم الطعام قد أفسده الاحتراق !

وفى غدى، بينما كنت مرتدية ثوبى الجديد أطالعه فى المرآة ، دخلتْ علىّ أمى وإذ رأتنى على هذه الحال رمقتنى بنظرة غريبة ؛ وتمتمت قائلة :

دائماً أمام المرآة ؟ ... دائماً !

ورأت على المنضدة ورقة مشابك الشعر ، فتناولتها وخرجتْ ؛ فهرعت إلى « أم يونس » والدمع يتحير فى عينى وقلت لها : لقد أخذتْ اليوم ورقة المشابك، ومنذ أيام أخذتْ لفافة الخيط وعلبة الإبر ؛ ولم تعد إلىّ المقص الذى استعارته منى من قبل وادّعت أنه ضاع ... إنها لا تطاق !

فقالت لى « أم يونس » : هدّئى يا بنية من روعك ... إنها أمك !

— أمى ؟ ... أمى ؟

— خفضى من صوتك يا « سلوى » !

— ولماذا أخفض من صوتى ؟ أتظنين أنها هنا ؟

— هل خرجت ؟

— اذهبى وانظرى .

ورأيت «أم يونس» تهرول خارجة، ثم عادت تجرّ نفسها وهى تبرطم...
فقلت لها : ماذا ؟

ــ لقد خرجت دون أن تترك لى نفقة المنزل ...

وبعد صمت قصير واصلت قولها كعادتها : ياحبيبتى!... لقد اقترضت أمس ريالا من جارتنا «الست حسنة»... وأول أمس اقترضتُ ريالا آخر من «الحاجة شفيقة»...

فقاطعتها قائلة : واليوم الذى قبله اشتريتِ أنتِ لوازم الطعام من نقودك الخاصة ... ألم أقل لك إنها لا تطاق ؟

فسحتْ «أم يونس» بميدعة المطهى وجهها المحتقن، وغمغمتْ :
لا بأس يا بنتى ... يغير الله من حال إلى حال ...

وجاءت «الدادة شيرين» ذات يوم من قِبَل «سنية» تدعونى إلى زيارتها فذهبتُ إليها فى ثوبى الجديد، فأعجبت به «سنية» وهنأتنى بحياكته، وقضيت اليوم عندها على مألوف العادة . وما إن حان موعد أوبتى حتى سارت بى «سنية» إلى صوان ملابسها ، وكان يزخر بفاخر الثياب ، وأخرجت من بينها ثوباً من الحرير الأخضر غاية فى الطرافة والإبداع ...

وقالت لى فى بساطة : كيف ترين هذا الثوب ؟

ــ أحسن من ثوبى ألف مرة !

ــ لست عن هذا أسألك ، لم أخرجه لك لتشاهديه ... هل أعجبك حقاً ؟

ــ جدًّا ...

فهمستْ فى أذنى : إنه لك ... أرجو أن تقبليه منى هدية أخت !
فاحمرّ وجهى ، وقلت مؤكدة :

كلا ، كلا ... لست فى حاجة إليه !

فاكتأبت « سنية » وقالت :

أتردّين هدية أقدمها إليك ؟ أقسم إنى لم أرتده بعد ...

وألحت علىّ فى قبوله، والدمع يترقرق فى مآقيها. فلم أر بدّاً من أخذه.

ولما عدت إلى منزلى . أخرجت الثوب من علبته فى احتراس. وبسطته بين يدىّ . وأنا به شديدة الإعجاب . ثم ارتديته وجعلت أروح وأجىء أمام المرآة طويلا من الوقت . ولكنى وجدتنى أتوقف ويستغرقنى تفكير مضطرب . ويغمر الهمّ نفسى ... وسرعان ما شعرت بكره شديد للثوب. فخلعته وقذفت به فى عُرض الحجرة .

ودخلت أمى فى تلك اللحظة . وألقت نظرة فاحصة علىّ مرة وعلى الثوب أخرى . ثم انحنت تلتقطه وجعلت تقلبه بين يديها .

ثم سألتنى فى لهجة هادئة : لمن هذا الثوب ؟

— لقد أهدته « سنية » إلىّ ،

— وهل فى عزمك أن تلبسيه ؟

— وماذا علىّ فى ذلك ؟

— وهذه الفتحة التى تكشف شطر الصدر !

— أفى هذا عيب ؟ إنه كان لـ «سنية» من قبل، ولم يعارض أبوها فى شرائه لها ...

فصاحت أمى : أبوها ! وهل يفهم أبوها شيئاً من أمر الشباب؟ ومع ذلك فإنى أؤكد لك أنه لو رأى ابنته مرتدية هذا الثوب لمزّقه على جسدها !

— أحقاً .

— أؤكد لك ذلك...

وهنا بدت من أمي ثورة عصبية ، لا أدرى كيف أثارتهـــا ، وما الباعث عليها ؟ ... وأخذت تلقى علىّ درساً فى الحشمة ومراعاة الآداب العامة ...

فما إن انتهت من درسها ، حتى قلت لها فى بساطة وهدوء :

إنك تحاولين منعى من ارتداء هذا الثوب ، لأنه مفتوح الصدر، فى شكل مجانب للحشمة ، على حين أن الثوب الذى قصلته بيدى يُظهر من صدرى أكثر مما يظهر ثوب « سنية » وقد شاهدتِ ثوبى ذلك ورضيت عنه .

فرمقتنى أمي بنظرة شزراء، وقالت : يا لضيعة نصائحى معك .... لم أر فى حياتى ابنة فى مثل صلابة رأسك وعنادك .

ثم رأيتها ترمق الثوب لحظة ، وسرعان ما خرجت من الحجرة تحمله فى يدها ... ووقفتُ مشدوهة أراقبها ، وهممتُ أن أجرى خلفها أسترجعه منها ، ولـكن عاقنى عن ذلك عائق لا أدرى له كنهاً .

وبعد أيام وجدت أمي قد ارتدت الثوب ، بعد أن أجرت فيه بعض إصلاح ، وكان لائقاً بها ، كأنما فصل خاصة لهـا ... فتبادلنـا بضع نظرات ولـكننا لم نتحدث فى شأن الثوب أىّ حديث ....

كانت حجرة « سنية » حالية بفاخر الأثاث والرياش ، يزينها سرير غاية فى الإبداع ... وكنت فى زيارتى إياها أقف أمام هذا السرير أتأمله ولا أمل التأمل ، ويلذ لى كثيراً أن أتمدد عليه ، فأحس بأنى انتقلت إلى عالم سحرى تشيع فيه أحلام ذهبية جميلة !

واستلقيت مرة على السرير بجوار «سنية» أصغى لما تقصه على من أنباء «شريف»... فشعرنا بالباب ينفتح بغتة ، ورأينا شبحاً طويلا ضامراً يدخل ، ولكنه ما كاد يلحنا فى السرير راقدتين حتى ارتد يهم بالخروج، فسمعت «سنية» تصيح منادية : « حمدى » ... « حمدى » ... تعال ...

ورأيت طيف «حمدى» يعود متعثرا فى مشيته . وسمعته يجمجم : المعذرة ... المعذرة ... لم أكن أعلم ... « الدادة شيرين » هى التى قالت لى ...

وقفزنا من السرير ، وأقبلنا عليه ، نبالغ فى الترحيب به ، وكنت لم أره منذ زمن طويل ... ولما انتهت عاصفة التحية ، وقفت أتأمله وأنا صامتة ، فألفيته قد ازداد نحافة . وبرزت عظام وجهه بروزاً يكاد يشق الجلد ، ولما أمسكت بيده أهزها ، خيل إلى أنها هشة كالعود اليابس تكاد تنقصف فى يدى ، وكان هندامه يدل على رقة حاله واستبانة فقره .

فقلت له فى تأثر : كيف حالك يا «حمدى» ؟

فأجابنى وقد ابتسم ابتسامة سانحة : الحمد لله .

— ماذا تفعل الآن ؟

ـــ إننى أعطى دورساً فى الموسيقى والرسم لبعض الطلبة .

ـــ ولكنك لم تستكمل دروسك فى المدرسة ...

ـــ منعتنى أسباب كثيرة ، أهمها المرض.

وظهر عليه الارتباك ، ففطنت إلى الحقيقة . وأردت أن أصرف الحديث إلى منحى آخر ، فقلت : وأين تسكن ؟

فأسرعت « سنية » تجيب : يسكن آخر الدنيا ... فى « الهرم » !

فقال «حمدى» : فى قرية عند آخر خط « الترام » حول «الهرم» ...

وصاحت « سنية » : إنه يعيش فرداً فى منزل صغير هنالك ...

فقلت : يالله !... تعيش فردا فى آخر الدنيا ؟ ألا تخشى أن يصيبك أذى؟

ـــ لا أخشى شيئاً !

ـــ ألا تشعر بالملل من وحدتك ؟

ـــ إن أعمالى كثيرة لا تسمح للملل أن يتطرّق إلى نفسى !

فقلت وأنا أحدّق فيه متفحّصة : أسعيد أنت بحياتك هذه ؟

فقال وهو يعبث بزرّ سترته ، ناظرا إلى جهة أخرى :

إنى راض عن حياتى على كل حال !

وهنا علا صوت «الدادة شيرين» تنادى «سنية» فخرجتْ مهرولة . وهمّ «حمدى» بأن يلحق بها ، فقلت له : ماذا تريد منها ؟

ـــ لدىّ كتاب جاءنى من «شريف» وقد رغب إلىّ فى أن أطلعها عليه.

ـــ إنها راجعة إلينا ... أمتعجّل أنت ؟

ـــ كلا ... كلا ... ولكن يجوز أن يكون فى وجودى ما ...

ثم تعثرت الكلمات على شفتيه ، وصمت ...

فقلت : ماذا ؟ أتممْ ... تكلم ...

فرفع إليّ عينيه ، وقال : قد يكون لدى « سنية » بعض أعمال ... واجبات ... لا أريد أن أعطلها عما هى منصرفة إليه ...

— خلّ عنك ... إن « سنية » لا تشغل نفسها بشىء إذا كان عندها ضيوف ...

وغشينا الصمت وقتاً ، وكنت أنظر إلى «حمدى» نظرات تفحص ، فإذا بوجهه يحمل طابع الأسى والقلق ، ثم ألفيته ينظر إلىّ خلسة ، وتلاقت عيوننا غير مرة دون كلام ، ورأيت ابتسامة مضطربة تسنح على فمه ، ثم حوّل بصره عنى ، وقال مهمهما : وأنتِ . كيف أحوالك يا «سلوى»؟

— لا بأس ...

— وكيف أمضيتِ حياتك بعد انتقالك إلى « القاهرة » ؟

— كسائر الناس ... لا شىء فى حياتى يستحق الذكر ! ...

ووجدتنى أقصد إلى النافذة ، متئدة الخطو .

وتبعنى « حمدى » فوقفنا نتطلع إلى الحديقة ...

وسمعته يقول: يبدو لى أن حديقة منزل « الإسكندرية » أحسن من هذه الحديقة وأجمل ...

فقلت وأنا على حالى أتطلع :

كل شىء فى « الإسكندرية » كان أحسن وأجمل !

ثم نظرت إليه قائلة : ألا توافقنى على ذلك ؟

فقال خافض الصوت : إنك على صواب ...

— حياتنا فى « الإسكندرية » كانت أسعد وأطيب ...

— أغير راضية أنتِ عن حياتك الآن ؟

— راضية أو غير راضية ، هذا لا يغير الوضع الذى أنا فيه ...

— أتلاقين فى حياتك بعض المضايقات ؟

— بل قل كل المضايقات .

— ماذا .

— لقد تركت هناءتى كلها هناك ... فى «الإسكندرية» ... فى ذلك المنزل الصغير الذى كنت أعيش فيه مع جدّى و « الحاج مسرور » .

— لا ترْكنى إلى الماضى كثيرا يا «سلوى» ... إنه لن يعود ... تطلعى إلى المستقبل .

— أىّ مستقبل يا « حمدى » ؟

— كل فتاة فى مثل سنك تتطلع إلى المستقبل ... المستقبل الزاهر المشرق .

— إنى أعيش فى الظلام ، وأحسب أنى سأقضى حياتى كلها رهينة هذا الظلام .

فدنا منى ، وأخذ بيدى يلاطفنى ، وهو يقول : يسوءنى أن أسمع منك هذا الكلام ... كنت أحسب أن حياتك مع والدتك قليلة المتاعب ...

— قليلة المتاعب . ... أرجو منك أن تترك الحديث عن والدتى ، إنها فى واد وأنا فى واد آخر ، إنى أعُدّ نفسى فى هذه الدنيا بلا أهل .

فصمتَ قليلا ، وهو يرنو إلىّ ، ثم جمجم : ولكن لك أصدقاء ... ثقى أن من الأصدقاء من هم أفضل من الأهل ، تستطيعين أن تعوّلى عليهم وأن تركنى إليهم ، فيكونوا لك عونا أى عون .

— وأين هم هؤلاء الأصدقاء ؟

فابتسم قائلا : يا عجبا ... أتنكرين وجودنا ؟

— معاذ الله . ... ولكن ...

— ألا تثقين بإخلاص شخص مثلى ؟

— كل الثقة ... ولكن ما الذى تستطيع أن تفعله من أجلى يا «حمدى» ؟

فقال فى شىء من الحماسة : إن المرء إذا أخلص النية وامتلأ قلبه بالإيمان استطاع أن يفعل كثيراً .

فحدقت فيه أتفحصه ، وأتأمل ما يعانيه من متاعب نفسية ومادية بادية على مظهره ، ناطقة بها عيناه الذابلتان ... ورحت أسائل نفسى :

ماذا يستطيع أن يقدمه لى هذا الصديق المنكود الحظ ؟

وهممت قائلة ، وأنا أشد على يده :

أشكر لك شعورك الطيب نحوى يا « حمدى » .

وكان يرقبنى فى اهتمام ، فما إن سمع قولى ، وما شاع فيه من نغمة يأس ، حتى خفض من بصره ، وأخذ يعبث بزر سترته ...

وصمتنا لحظة ، ثم عاد يقول : على كل حال لن تطول إقامتك مع والدتك .

— ماذا تعنى ؟

— سيحل الوقت الذى تتركين فيه منزل والدتك إلى منزل .... إلى منزل زوجك !

فقلت ساهمة النظرات :

لا يحل هذا الوقت قريباً ... بل يجوز ألا يحل أبد الدهر ....

— لماذا ؟

— لا أدرى ... هذا شعورى الخاص .

— إنه شعور باطل بلا شك ... إن فتاة فى مثل بهائك ونضارتك يسارع إليها الخاطبون أفواجاً .

— أشكر لك حسن ظنك ، ولكنك تبالغ كثيراً فيما تقول .

— ثقى أن ليس فى قولى ذرة من المبالغة ...

وأخذ يتوسّمني لحظة، ثم قال في صوت خافت لا يخلو من رعشة:
شدّ ما يكون الزوج سعيداً بك!
— أتظنّ ذلك؟
— بل أؤكده ...
وصمت قليلا، ثم قال: والذي أرجوه لك هو أن تسعدي به أنت أيضاً.
— هل لك أن تخبرني ما هو نوع الزوج الذي يستطيع أن يسعدني؟
— هذا موكول إليك ... إلى شعورك ... إلى رغائبك ...
ثم أخذ يصعّد فيّ بصره وقتاً، وما لبث أن رنا إلى الأفق وقال مبتسما:
يبدو لي أن الزوج السّريّ الميسور هو أصلح الأزواج لك على وجه خاص.
فتضاحكت وأنا أقول: إذن فلتبحث لي عنه!
وأقبلت في هذه اللحظة «سنية» وهي تتصايح وتضجّ مرحا ... وما هي إلا أن قالت: ماذا كنتما تقولان؟
فقلت على الأثر وأنا أتضاحك:
لقد اعتزم «حمدي» أن يخطب لي زوجاً من أهل الثراء والغنى ..
فازداد مرح «سنية» وتصايحها، وقالت:
إن «حمدي» في هذه المهمة من الطراز الأول.
ووجدته يتكلف الابتسام تكلفاً.
ثم تقدم من «سنية» وقد شاع الجدّ على قسمات وجهه، وقال:
المعذرة يا «سنية» ... إن زيارتي طالت ... وقد جئت في أمر يخصّك.
— يخصّني؟
فأخرج من جيبه كتاباً، وقدمه إليها قائلا:

هذا كتاب جاءنى من « شريف » به شىء يهمك .

فأشرق وجه « سنية » وأخذت منه الكتاب وجعلت تقرؤه فى اهتمام ، فانسللتُ قاصدة إلى النافذة أطلّ على الحديقة ...

ولم تفطن « سنية » إلى انسلالى إلا بعد أن أتمتْ قراءة الكتاب ، فصاحت بى :

لماذا تركتنا ؟ هل أخفيت عنك سرّاً من قبل ؟

وفى هذه اللحظة دخلت « مدموازيل شانتل » الحجرة ، فأسرعتْ « سنية » تخفى الكتاب فى صدرها ... وتقدمت « المدموازيل » وهى تسير فى كبرياء وشموخ أنف ممسكة بيدها اليمنى مَقبض منظارها العاجىّ وقد أحكمتْ وضعه على عينيها ، ثم مدت يدها دون كلام إلى صدر « سنية » وأخرجت منه الكتاب .

وتجلى لى فى هذا الوقت ما يبين على وجه « مدموازيل شانتل » من بشاعة ، فإن رقبتها الدقيقة ذات الجلد المقفع المجعد كانت أشبه شىء برقبة الصقر الهَرِم ، وإن عينيها الجاحظتين اللتين ترمقنا بهما كانتا تمثلان لى عينىْ بومة شوهاء !

والتفتت « مدموازيل شانتل » إلى « حمدى » وهى تداعب الكتاب فى يدها ، وقالت له رامية إيّاه بنظراتها المتوقدة : متى جئتَ ؟

— منذ نصف ساعة .

— لم أسمع بقدومك .

— إن « الدادة شيرين » ...

فقاطعته قائلة :

ليس « للدادة شيرين » أن تصدر أوامر فى هذا المنزل !

فلم يجبها «حمدى»، ودنا منا يحيينا فى أدب بالغ، وانصرف دون أن يعيرها أىّ التفات ...

فرأيتها تدمدم قائلة :

وقح ... ناقص التربية !

ثم مشت إلى « سنية » فى خطوات صارمة ، وقالت لها وهى تتشدق بكلماتها : أحرّم عليك لقاء هذا الولد ... أسمعت !

وكانت « سنية » واقفة كالتمثال لا تبدى حراكا ...

ورأيت وجهها قد احتقن ، وعينيها قد اغرورقتا بالدموع ، وشفتيها تضطربان بلا إفصاح ...

وخرجت «مدموازيل شانتل» فى تعاظم وخيلاء ، وهى ممسكة بيدها مقبض منظارها العاجى ...

وما كادت تختفى ، حتى ارتمت « سنية » على السرير يملكها البكاء !

١١

جلستُ فى حجرتى قبالة النافذة أرجّل شعرى بعد خروجى من الحمام ، وكانت الشمس الوهاجة تبعث بأشعتها ، فأشعر بحرارتها ونورها ينفذان فى أوصالى ، وما هى إلا أن دخلت علىّ « أم يونس » ولبثتْ هنيهة تحدّق فىّ وهى تبتسم ، فقلت لها : لماذا تنظرين إلىّ يا « أم يونس » !

فأجابت وعيناها تزدادان إشراقاً :

يحرسك الله ... لقد أصبحت حسناءَ ملء العين فتنة وبهاء !

فنهرتها ، فانصرفت عنى ، فمضيت إلى المرآة ، أنظر فيها إلى نفسى وأنا مجبورة بخور . حقاً لقد استطال قوامى ، وامتلأتْ أوصالى ، وعلى وجهى رونق ورواء ، فكأنى فى الثامنة عشرة من عمرى !

وطافت برأسى كلمة « حمدى » :

إن فتاة فى مثل شبابك وبهائك ليسارع إليها الخاطبون أفواجا .

وإذا بجسمى تشيع فيه رخاوة وفتور ، فأحسست رغبة فى العزلة والاعتكاف ، وسرعان مالزمتُ حجرتى ، وتمددتُ على السرير ... تبًّا له من سرير يقض المضجع !... إنى لأطلق لأفكارى عنانها ... إنها وقائع وأحلام متلاحقة مشتبكة ، شاهدت فيها أطياف « سنية » و « شريفة » و « حمدى »... ووجهتُ تفكيرى لحظات إلى « حمدى » وبدت لى صورته وهو فى شحوبه ومظهره البائس ونظراته التى تجلى فيها عطفه علىّ . وتذكرت قوله : إن الزوج الموسر السرىّ هو أصلح الأزواج لك !

وانطلقت فى أحلامى وقضيت يومى أجمع لم أبرح حجرتى إلا لتناول

الغداء والعشاء ...

ولاحظتْ « أم يونس» عليّ سهومي وتفكيري وعزوفي عن الطعام إلا أقله ، فدنت مني بعد العشاء تقول : أمريضة أنت يا حبيبتي ؟

فأجبتها : ليس بي مرض !

ـــ إذن أنت تتدللين ...

فنهضت أتركها تجمع الصحاف، وأويت إلى حجرتي، وفتحت صوان ملابسي ، وأخذت أقلب ما فيه ، ثم دفعت باب الصوان بشدة ، فكاد لقدمه ينخلع ويتحطم ... وذهبت إلى النافذة أروّح عن نفسي ، واستندت إلى حافتها ، وكانت الحجرة لا ينيرها إلا بصيص من نور المصباح المنبعث من الردهة . فراقني أن أظل في الظلام ، وأن أتسلى بالنظر إلى ما يجرى في الحارة ... ولكن أية تسلية رغبت فيها ؟ كانت الحارة حالكة السواد موحشة صامتة، كأنها قبر يخفي بين حناياه جثثاً هامدة ... ولقد حسبتُ نفسي في هذه اللحظة ميتة مدرجة في كفنها بين مَوْتَى !

وشعرت «بأم يونس» تدخل الحجرة ، ورأيتها تقترب مني وتقول :

ماذا تفعلين هنا منفردة في الظلام ؟

ـــ أستريح .

فانبعثت من فمها ضحكة خاطفة ، وقالت :

تستريحين ؟ أيّ عمل كنت تقومين به فأورثك التعب والإجهاد ؟

وكانت في لهجتها مسحة التهكم والتأنيب ، فرفعت رأسي إليها، وقلت :

ماذا تعنين ؟

ـــ لم تشغلي يدك اليوم بأيّ عمل معي !

فأجبتها في شيء من الحدّة :

ماذا تعدّينني يا « أم يونس » ؟ أخادمة أنا فى هذا المنزل ؟

فأدهش المرأة أن تسمع منى ما سمعتْ ، وأرادت أن تتكلم ، ولكنها لم تنطق بحرف . ورأيتها تحرك أصابعها حركات آلية ، ثم انحنت على الأرض ، تلتقط الخيوط وقصاصات الورق . ثم خرجتْ فى صمت .

وازداد على أثر خروجها انقباضى ، وثارت فى نفسى ثورة عمياء على «سنية» و «حمدى» ... وأحسست كأن ناراً مشبوبة تسرى فى ضلوعى ... وظللت أغلى كالمرجل ، وقد اتسع نطاق ثورتى ، فاستشعرت كرهاً شديداً للدنيا بأسرها ، ولنفسى أيضاً ... وعدت إلى فراشى ، فارتميت عليه ، وانطلقت أنشج وأسح من عينىّ الدمع السخين !

وأسلمنى البكاء إلى طمأنينة وراحة ، كأنما قد ألقيت عن صدرى بعض ما يجثم عليه من هموم ثقال ... وقمت إلى النافذة ثانياً ، فاستندت إلى حافتها . وجعلت أسرّح النظر فى الحارة ، أستدرّ من ظلامها الدامس وسكونها الموحش وحى أفكارى ، فما أسرع أن تمثل لعينى مرة أخرى منظر تلك المقبرة التى تختزن بين شعابها رفات الأموات ! ...

وظللت على هذه الحال وقتاً ... وأخيراً تناهى إلى مسمعى حوافر خيل تقرع أرض الحارة ، كأنها تقول لسكانها :

إن العالم ما زالت فيه بقية من حياة !

فسدّدتُ عينى صوب الصوت . فإذا بأشعة هزيلة تتطاير من مصباحين عن يمين وشمال ... وظهرت بعد قليل مركبة أجرة يجرها جوادان ، وكأنها بهيكلها الأسود قطعة قدّت من الحلك . وفرحتُ بقدم هذه المركبة ، إنها حدث جديد فى الحارة هذه الليلة ...

ورأيتها تقترب من منزلنا . ثم تقف ببابه ، وانبعث منها صوت

امرأة ، ثم تلاه صوت رجل ، وكان يتكلمان فى حدّة لهجة ، وما هى إلا أن قفزت المرأة من المركبة ، فعرفتها على الفور . إن نور المصباحين على ضعفه قادر أن يجلو لعينى المشاهد والشخوص ، وأمسكتُ بحافة النافذة وقلبى دائب الخفوق . وانثنيت برأسى قليلا إلى الوراء أخفى نفسى ...

كانت هذه القادمة فى زىّ يجانب الاحتشام ، شعر أشعث وملابس شبه ممزقة تكشف جوانب من الجسد ... ورأيتها تسرع فى الدخول مهتاجة الخطو ، وقفز الرجل من المركبة يتبعها ، ولكنها كانت قد سبقته بالدخول ، ودفعت الباب وراءها تغلقه فى وجهه ، وسمعت الرجل مدمدماً يدق الباب ، ثم عاد أدراجه إلى المركبة يغمغم بعبارات التهديد والوعيد ...

وهرعتُ إلى باب حجرتى أنصت خلفه ، فاذا بأمى تصعد الدرج مضطربة الأنفاس ثائرة الأعصاب ، وهى تنفث ألواناً من السباب فى لهجة نكراء . وأويت إلى مرقدى تثور بى الوساوس ، ونمت ليلتى تساورنى أخلاط أحلام ...

فلما استيقظت فى طلعة الصبح ، وثب إلى خاطرى هذا السؤال :

من الرجل الذى رأيته فى جوف الليل يشيع أمى يتهدد ويتوعد ؟

وشعرت بعبء فادح تنوء به نفسى ، وذهبت إلى حجرة الخزن (الكيلار) أتناول فيها فطورى ، فلقيت هناك «أم يونس» تعمل ، فأغضت عنى فقابلتُ إغضاءها بمثله ، وشرعت آكل دون أن نتبادل الكلام ...

ولاحظت أنها كانت بين الحين والحين تنظر إلىّ من طرف خفىّ .

وتظاهرت بالبحث عن السكر ، ثم صحت أخاطب نفسى :

يا لله ! ... أين وضع السكر ؟ إننى لا أجده !

فأحضرت لى «أم يونس» العلبة ، ووضعتها أمامى فى صمت ، فأصبت

منها حاجتى ، واستأنفت الطعام ...

ولما طال صمتنا طفقت أغنى ، فسمعتُ « أم يونس » تقول وقد أشاحت عنى بوجهها كأنها تخاطب نفسها : لا تُعلى صوتك ... إن أمك اليوم مريضة!

فقلت دون أحرك ساكناً : مريضة ؟ وهل تناولتْ فطورها ؟

— نعم ، تناولته فى شهية ... ولكنها أخبرتنى بأنها مريضة ، ورغبتْ إلىّ فى أن ألتزم الهدوء .

ولما انتهيت من فطورى تركت الصحاف على غير عادتى دون أن أغسلها ... ورأيت « أم يونس » تتقدم وئيدة الخطوات من المائدة ، فتجمع الصحاف وهى تتنهد ، ثم تمضى بها إلى الحوض .

وتركتُ حجرة الخزن وأنا مزهوة . وقد تجلى لى أنى قادرة أن أعيش وَفق هواى ، لا يتحكم فى مشيئتى أحد !

ومررت بحجرة أمى ، فوجدتُ بابها مفتوحاً فولجت فيه ، وذهبت إلى أمى ، فألقيت عليها تحية الإصباح ، وكانت متمددة على المتكإ الفسيح تدخن . ثم قلت لها :

لقد أخبرتنى « أم يونس » بأنك مريضة . كيف حالك ؟

— إنى متعبة ، وبرأسى صداع .

وتبينتُ فى وجهها عبوساً ، وفى عينيها احمراراً ، وعلى خديها آثار الدمع المذروف ... ولم تكن قد اتخذتْ زينتها بعد ... يالله ! ... شدّ ما هى دميمة زَرِيّة ! ... أهى حقاً تبلغ هذا المبلغ من الدمامة ؟ إن التجاعيد لتفتك بقسمات وجهها فى غير مرحمة ، وإن عينيها لتبدوان خابيتين لا يرفّ لهما بريق ، وإن شعرها ليشبه فى نصوله وذبوله شعر العجائز اللواتى طحنتهنّ السنون !

واقتحم مخيلتي في هذه اللحظة شبح الرجل الذى كان يرافقها فى مركبة الخيل ، فخفضت بصرى ، وأحسست قلبى يدق ...

وبعد هنيهة شاع فيها الصمت قالت أمى وهى تنفث دخان لفافتها :
مالك يا « سلوى » ؟ أمتعبة أنت أيضاً ؟

فوجدتنى أرفع إليها بصرى وأقول : أصابنى الليلة أرق شديد .

— أرق ؟ لماذا ؟

— لا أدرى ... إن ضيقاً شديداً لازمنى آناء الليل .

— لأنك ترهقين نفسك بالتفكير فى أمور لا يسوغ لك التفكير فيها

— أمور لا يسوغ لى التفكير فيها ؟

— إنى خبيرة بقلوب أمثالك من الفتيات ... أنصح لك ألا ترهقى نفسك بهذه الأفكار !

— أية أفكار؟ أنت واهمة يا أماه ... قد يكون مبعث هذا الضيق ما أرهق به نفسى من القيام بأعمال المنزل والانكباب على الخياطة !

— دائماً تشكين من متاعب لا وجود لها ... إن غيرك ليحسدك على حياتك الناعمة الهادئة !

— حياتى الناعمة الهادئة ؟ ...

— أنت بعيدة الأطماع ... وهذا هو مثار متاعبك ... يجب أن تكونى قنوعا راضية بما قسم الله لك ...

— لا اعتراض لى على ما قسم الله !

— أما أنا فقد بذلت كل ما فى وسعى لإسعادك ... أتظنين أن ما أنفقه عليك فى المدرسة قليل ؟

فلم أجب ... ولو سمحت لنفسى أن أخوض فى حديث المدرسة لجبهت

أمى بما تـكره من قول . ورأيتها تشعل لفافة أخرى وتسند رأسها إلى وسادة المتكإ ، وتحدّق فى سقف الحجرة وهى تنفث الدخان . ثم قالت :

إن ضميرى مطمئن لما أفعله من أجلك ... ولـكنك لا تقرّين بالجميل .

فلم أعلق على قولها بشىء ، وصمتت هى أيضاً ، ولـكنها دأبت تدخن محدقة فى السقف ، وكنت أنعم إليها النظر متأملة ما فى بشرتها الدكناء من غضون وأخاديد ... وعادت مشاهد الليل تستبدّ بتفكيرى . وشعرت بالقلق يغمر ما بين ضلوعى ، وخيل إلىّ أن الدخان المنبعث من لفافة أمى أصبح متكاثفاً كالغمام المركوم يطبّق أرجاء الحجرة جميعاً ...

وأردت الخروج لاستنشاق الهواء النقى ، ولـكن وجدتنى بغتة قد هبطت على المتكإ ، وأمسكت يد أمى أقول لها :

لقد كنت أنا الليلةَ يقظى لم أنم ، وقد رأيت ما جرى !

فرأيت اللفافة تهتز بين أناملها حتى تـكاد تسقط ... وسرعان ما التفتت إلىّ تقول وقد ازدادت عيناها احتقاناً : الليلة ؟ ... وماذا رأيت ؟ فتشبثت بيدها ، وقلت : من يكون هذا الرجل يا أمى ؟

— أىّ رجل ؟

— ذلك الذى كان يلاحقك متهدّدا متوعدا ! ...

فاجتذبت أمى يدها منى وقالت فى اهتياج : أ كنت تتجسسين علىّ ؟

— كنت ساهدة ، فقمت إلى النافذة أروّح عن نفسى ! ...

وعادت أمى إلى لفافتها تدخن ، وقالت فى لهجة راجعها شىء من الهدوء : اطمئنى ... إنك لم تـكشفى سرا عظيما ... الرجل الذى شاهدته يلاحقنى ما هو إلا وكيل من وكلاء أعمالى ، طردته لإهماله وتفريطه . هذا هو كل شىء ... والآن أنصح لك ألا تهتمى إلا بشئونك ، بشئونك

الخاصة ، واجتهدى أن تنامى مبكرة ، كما تنام كل الفتيات اللاتى فى سنك . أسمعت ؟

وقمت تاركة حجرتها وأنا صامتة ، وسرت متمهلة، والهواجس تنتهبنى، ورحت أفكر : هل من عادة الوكلاء أن يلاحقوا أصحاب أعمالهم فى صميم الليل على هذا النحو المرذول ؟ فقصدت إلى « أم يونس » فى المطهى ، وكانت مشغولة بقطع اللحم وقشر الخضر ، فلما رأتنى نظرت إلىّ صامتة ، ثم قالت فى تحفظ وقد عادت إلى عملها : أفى حاجة أنت إلى شىء ؟

فجلست على مقعد هناك وقلت : لا حاجة بى إلى شىء !

واستغرقت فى صمتى ، والحيرة والقلق يستوليان علىّ . وبعد قليل رأيت « أم يونس » قد اقتربت منى وقالت فى ترفق :

أنت على غير عادتك . . . ما بك ؟

— لا شىء . .

— لا تحاولى عبثاً أن تخفى عنى همك !

— فتنهدتُ وقلت : إنه سرّ لا أستطيع أن أبوح به لأحد ...

— حتى لى ... أنا مربيتك المخلصة ؟

— من يدرى ؟

فضربتْ صدرها ، وقالت : هل عهدتنى نمّامة أعبث بالأسرار ؟!

فجذبتها من ذراعها بلطف، وأجلستها بجوارى، وانحنيت عليها هامسة: مشهد عجيب رأيته الليلة اتفاقاً ...

— أىّ مشهد ؟

فانطلقت أروى لها حادثة المركبة مفصلة أدق تفصيل ، فظهر الامتعاض على وجهها ، وقالت وهى تنهض :

أنصح لك يا بنتى أن تنسى ما رأيته !

فقلت لها : من يكون هذا الرجل ؟

— تسأليننى أنا ؟ وهل أدرى من هو ؟

— لقد سألتُ أمى عنه ، وأخبرتها بكل ما رأيت ، فقالت لى إنه وكيل من وكلاء أعمالها ، طردته لإهماله وتفريطه ...

فنظرتْ إلىّ « أم يونس » طويلا نظرات تنم عن دهشتها ، لأنى جاهرت أمى بهذا كله ... ثم خفضت من بصرها ، وتمتمتْ :

لا ريب فى أنه كذلك ... كما تقول ... ليس هذا بغريب !

فصحت : ماذا ؟ وهل تظنيننى غبية أصدّق هذه الأقاويل ؟

— يجب أن تصدّقى ما تقوله لك أمك !

فقمت ثائرة أغمغم :

حتى أنتِ لا تبغين أن تريحينى ؟ !

١٢

وبعد أيام مضت على هذا الحادث الذى أسلفتُ ذكره قضت أمى يومها كله فى حجرتها لا تبارحها ، فلما أقبل الليل اقتصرتْ فى عشائها على كوب من لبن .

أما أنا فبعد أن تعشيت مع « أم يونس » قصدنا معاً إلى حجرتى ، ومضينا نسمر تزجية للوقت . وخيم على « أم يونس » كسل وفتور ، فانصرفت عنى إلى مخدعها . وقمت أنا إلى سريرى أتمدد عليه ، واستدنيت النوم فتأبّى علىّ ، ففتحت عينى ، وجعلت أحدّق فى السقف تهيم بى الأحلام ...

ولست أدرى أىّ وقت مضى علىّ وأنا على هذه الحال ؟ ولكن أثارنى عن أحلامى طرْق بباب المنزل ، وما هى إلا أن شعرتُ بأمى تترك حجرتها . وتنزل إلى الباب تفتحه ، ثم تغلقه . وتناهى إلى أذنى صوت أمى مختلطاً بصوت آخر . وتراءت لى فى هذه اللحظة حادثة المركبة ، ومنظر الرجل الذى أراد اقتحام المنزل . فتركت السرير عجْلى ، ووقفتُ خلف باب حجرتى أرهف السمع تنتظمنى رجفة ، فتبين لى أن أمى دخلت مع الزائر فى حجرة الاستقبال ، فى الطبقة الأول من المنزل ، وخفت صوتهما فترة . ثم تركتْ أمى الحجرة ، وعادت إليها بعد حين ... وظللت خلف باب حجرتى ماثلة يكاد الفضول يقضى علىّ . ثم فتحت الباب فى محاذرة ، وخرجت بخطوات خفاف إلى الردهة ، وانتظرت هناك وأنا أتسمع ، ثم وجدتنى أهبط الدرج إلى ردهة الطبقة الأولى ، وأسرعتُ أخبأ نفسى فى ركن بجوار حجرة الاستقبال ...

يالله ! ... ما أشد خفقان قلبي ! ...

ولبثتُ أنصت في شغف إلى الصوتين ، كان يصلان إليّ تارة في وضوح وتارة في خفاء . وشعرتُ بالدم يصبغ وجهي ، وهممتُ أن أعود أدراجي . ولكن قدميّ تسمرتا فلم أتحرك ... واشتد إنصاتي أكثر من ذي قبل ... وبغتة فتح الباب ، وظهرت أمي ، فرأتني ورأيتها ، كانت في غلالة منزلية رقيقة من الحرير الورديّ ... فوقفتْ هنيهة مصعوقة لا تفوه بكلمة ، وبدا في عينيها الاحمرار .

ثم قالت لي : أنت هنا ؟

ثم دنت مني ، ودفعتني دفعة شديدة ، وقالت في صوت مكبوت :

اصعدي إلى غرفتك يا فاجرة !

فاحتقن وجهي وأحسست بشفتيّ ترتجفان ... وفي هذا الوقت خرج الرجل من الحجرة ينادي أمي ، وما إن وقع بصره عليّ حتى أمسك عن السير ، ثم نظر إلى أمي مستوضحاً ، فتكلفت الابتسام ، وقالت له وهي تنتزع الكلمات من فمها في جهد : هذه ابنتي « سلوى » ...

وتقدّم الرجل مني ، وكان مبسوط القامة ، جميل الشارة ، وحدّق فيّ بعينيه النفاذتين ، وقال لي : « بونسوار مدموازيل » !

ثم التفت إلى أمي يقول : تبارك الله ... إنها عروس !

فأجابته : لا تغرنك قامتها ... ما برحت طفلة في الثانية عشرة ...

فإذا بي أقول في جرأة : بل في السادسة عشرة !

فضحك الرجل ، وتضاحكت أمي في نغمة نكراء . ثم التفتت إليّ ورمتني بنظرة حامية ، وقالت : اصعدي إلى حجرتك ...

ففعلتُ ... ودخلتُ في حجرتي أشعر كأن رأسي يحترق ... ماذا

فعلتُ ؟ ماذا رأيت ؟ ماذا قلت ؟ ماذا سمعت ؟ أأخطأت فى تصرفاتى أم أصبت ؟ وهذا الرجل الغريب ، ما زالت كلمته ترن فى أذنى :

تبارك الله ! ... إنها عروس !

كل ذلك كان يعج فى رأسى ، فلا أدرى أبى رغبة فى الضحك أم فى البكاء ؟ وجعلت أروح وأغدو فى الحجرة لا أقر ولا أسكن ...

وبغتة خرجت من الحجرة وذهبت إلى «أم يونس» وكانت ممددة على فراشها ، مستغرقة فى منامها ، يملأ المكانَ غطيطها . فأخذتُ أهزها وأنا أقول : استيقظى يا « أم يونس » استيقظى !

وبعد جهد جهيد سمعتها تدمدم : أى شىء تريدين ؟

— قلت لك استيقظى ...

— لأىّ شىء ؟

— أمر مهم ... مهم جدًّا

— ماذا ؟

— رجل فى منزلنا ...

ففتحت المرأة عينيها ، ومسحتْ لعابها ، وهى تتمتم :

رجل ؟ ... رجل ؟ ... أين ؟ !

وتقلص وجهها واصفرّ ، فاستأنفت أقول لها :

رجل فى حجرة الزوّار ... مع أمى !

فأخذت تتفحصنى لحظة ، ثم قالت :

ألم أقل لك لا تشغلى نفسك بهذه الأمور ؟ ... ربما كنتِ واهمة !

— لقد رأيته بعينى و كلمته !

— كلمتِيه ؟ ... كيف ؟

ثم قالت: ليس بغريب أن يوجد ذلك الرجل مع أمك في مثل هذا الوقت.
واعتدلت جالسة في فراشها ، فرويت لها ما وقع . وهي شديدة الإصغاء إليّ ... وما إن انتهيت حتى قالت عابسة :

لقد نصحت لك ألا تهتمي بمثل هذه الأمور ...

— أيؤسفك أني أيقظتك لأفضي إليك بما كان ؟

— كلا يا «سلوى» . ولكن يجب أن تعتقدي أنك أسأت التصرف ...

— أسأت التصرف أو أحسنت ... لا يهم !

وراحت تعصر جبهتها وقتاً ، ثم قالت :

ربما كانت في حاجة إليه لبعض المطالب ، أو لشئون القضايا والوقف ...

فقاطعتها بقولي : وهل يجري الحديث في هذه المسائل والليل يسري؟!

— يا بنتي للضرورة أحكام !

— وهذه الغلالة الحريرية التي تبدو فيها ... هل هي من أحكام الضرورة أيضا يا «أم يونس» ؟!

فوجمت المرأة وهي تتفحصني لحظات ، فتابعت قولي :

لماذا تنتقص من سني أمام هذا الضيف ؟

— عجباً لأسئلتك يا «سلوى» ! حقاً إن بنات اليوم لا تمل الكلام!

ثم تكلفت الابتسام ، وأخذت يدي ، وهي تقول :

تعالي ... تعالي ... أنت في حاجة إلى أن تستريحي !

وسارت بي إلى حجرتي ، وطلبت إليّ في رفق أن أدخل فراشي ، فطاوعتها ... وجلست «أم يونس» على طرف السرير بالقرب من رأسي ، وطفقت ترقيني ، ولما انتهت من رقيتها جلست بالقرب من قدمي ، وجعلت تدلكها في تلطف ، فشعرت براحة ، وبدأت أعصابي تستكين ، ثم

انطلقت « أم يونس » تروى لى فى صوت عذب أقاصيص عتيقة طالما سمعتها منها وأنا طفلة ، فأصغيت إليها فى لذة وسرور ، وطغت علىّ أحلام الطفولة ، فجعلت أتصفح الماضى ، وكأنى أعيش فيه عوداً على بدء ... هذا منزلنا القديم فى حىّ «محرم بك» بحديقته المهملة ، وها هو ذا جدّى يلعب بالنرد مع «الطوخى افندى» ، وهناك بجوار الباب يقبع «الحاج مسرور » غارقاً فى تأملاته التى لا تنتهى ، وأنا أقفز يمنة ويسرة فى الحديقة، كأنى فراشة أتنقل من زهرة إلى زهرة بين الأيك والغصون !

وحسبت «أم يونس» أنى نمت ، فتركت الحجرة ماشية على أطراف الأصابع . وبعد حين سمعت حركة بباب المنزل ، فقفزت من سريرى وجريت إلى النافذة ، وتطلعت إلى الحارة ، فإذا بأمى تشيّع الرجل عند الباب ... ولبثت أتابع شبحه فى سيره حتى ابتلعته الظلمة ، وما زلت أحدّق بعين حالمة حيرى ... وفيما أنا غارقة فى أوهامى ، سمعت وقع خطوات، فالتفتّ خلفى، فإذا بأمى تدخل الحجرة ، وما إن وقع بصرها علىّ حتى صاحت :

ويحك ! ... بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، ولما تنامى...

فتمتمت : الساعة الثانية بعد منتصف الليل ؟

— لو لم أحضر لأنبهك ، لقضيت سائر الليل ساهرة يقظى ... !

— لا أجد للنوم سبيلا إلى عينى ...

فوقفت أمى ترنو إلىّ لحظة ، ثم قالت فى صوت هادىء شيئاً :

اعترفى بأنك أخطأت فى تصرفك الليلة ...

فقلت فى غير اهتمام : يجوز !

— لماذا أجدك معى دائماً تجحدين الجميل ؟

— أنا جاحدة للجميل ؟ !

— لماذا لم تصيحى بملء فمك منادية الجيران ، قائلة لهم : تعالوا انظروا أمى تجالس وحدها رجلا فى جوف الليل ؟ !

— ما كان لى أن أفعل ذلك !

— كنت أظن أن طفلة مثلك لاقت من حنوّى وعطفى مالقيته ، لا يداخلها الظن السيء بى .

فنحيت عنها بصرى ، وعقدت يدىّ على صدرى ، دون أن أنبس بحرف .

فتابعت أمى قولها :

لستُ مضطرة لأن أجلو الأمر أمامك ، لأدافع عن نفسى ... ومن أنت التى تريدين محاسبتى على ما أفعل ؟ !

فنظرت إليها وأجبت فى بساطة وهدوء : وهل اتهمتك بشىء ؟

— تتهميننى ؟ وهل تجرئين ؟

وأخذت تجفف عرقها ، ثم ارتمت على المقعد تروّح وجهها ...

وصمتت قليلا ، ثم استأنفت الكلام ، كأنها تحدث نفسها :

رجل يزورنى ليلا ... مافى ذلك عيب ... إنه المحامى الذى يتولى الدفاع عن قضاياى ، ويساعدنى فى إدارة أعمالى . فأنا لست امرأة خاملة متعطلة . إن النقود لا تهبط علىّ من تلقاء نفسها ، بل علىّ أن أسعى فى سبيل الحصول عليها ... ولكن الناس لا يريدون أن يفهموا من ذلك شيئاً ... ليس من يده فى الماء كمن فى النار !

فأجبتها فى تؤدة واحتمال : لا أحد ينكر أن لك أعمالا تستوجب لقاءك للمحامين ، ولكن لهؤلاء المحامين مكاتب يستقبلون فيها العملاء !

فحملقت أمى فى وجهى ، وصاحت : إذن من يكون هـذا الرجل؟ ... تكلمى ... صرّحى بخبيئة نفسك !

وصرخت منادية « أم يونس » فهرولت المرأة إلينا على عجل، وهى تذود النوم عن عينيها ... فاندفعت أمى تقول لها ، وهى تشير إلىّ :

أرأيت ابنة أشدّ عقوقا من هذه ؟ كلما أسديته إليها ذهب سدى!

فأقبلت « أم يونس » علىّ، وقالت معاتبة :

ماذا فعلت يا «سلوى» ؟ ... إنها أمك ، وأنت مدينة لها بكل شىء!

ـــ ألا يحق لى أن أعلم من هو هذا الرجل الذى طرق بيتنا الليلة، ولبث فيه حتى الثانية بعد منتصف الليل ؟

فصرخت أمى ، وهى توجه الكلام إلى « أم يونس » :

لقد أخبرتها بأنه المحامى ... محامى قضاياى !

فقالت « أم يونس » وهى تقطع تثاؤبة حادّة :

إنه المحامى بلا ريب ... ماذا يخطر ببالك أن يكون ؟ !

فقالت أمى صارخة : فليخطر ببالها أىّ شىء ... ليس علىّ أن أقدم حساب أعمالى لأحد ...

فتناولت « أم يونس » يدى ، محاولة أن تذهب بى إلى أمى ، قائلة: تعالى . . . قبلى يد أمك ، واطلبى الصفح منها عما بدر منك . . .

فسللت يدى من يدها ، وأنا أقول :

إنى مستعدة أن أقوم بكل ما يرضيها ، على شرط أن أرافقها غداً إلى مكتب هذا المحامى ، حتى أتبين حقيقة الأمر ..

فتقدمت أمى منى مهتاجة تقول : اخرجى ياوقحة ، يافاجرة !

فقلت لها غير هيابة : لماذا تشتميننى ؟

— أنت لا تستحقين الشتم وحده ، بل الصفع والضرب ...

فازددت منها دنوًا ، وأنا رافعة الرأس ، وعيناى تقدحان شررا ...

وقلت فى صيحة : إذن جرّبى ...

وتوافقنا لحظة وجهاً لوجه ، صامتتين ، ترمق كل واحدة منا غريمتها بنظرة ملتهبة . على حين كانت « أم يونس » تحاول الدخول بيننا ، وهى تستعطفنا وترغب إلينا فى أن نهدىء من روعنا ، حتى ينتهى الأمر بنا إلى سلام ...

ووجدت أمى تتراجع بضع خطوات ، ثم خرجت وهى تدمدم قائلة :

 سترين ... سترين ...

فرددت الباب خلفها فى شدة وعنف .

ومكثت وقتاً أحدّق ولا أتحرك . . .

ثم وجدتنى أرمى بنفسى فى مخدعى ، يخنقنى انسكاب الدمع ...

١٣

وصحوت من رقادى فى مطلع الشمس ، على الرغم من أنى نمت بعد طول سهر ، وكان برأسى دوار ، وبجسمى همود ، وكنت أحسّ فى دخيلة نفسى بمشاعر متضاربة لاتهدأ . وتناولت فطورى مع « أم يونس » وأنا صامتة ، فقالت لى أخيرا :

لقد فكرتُ فيما وقع بينك وبين أمّك الليلة ، فتجلى لى أنك مخطئة .

فرفعت رأسى إليها وقلت فى هدوء : أنا المخطئة ؟ !

ـ أنت الابنة ، ويجب على الابنة أن تكون مطيعة لأمها ، مهما يكن من أمر .

ـ حسبك ، حسبك ...

ـ إنه قول أبتغى به مصلحتك !

ـ مصلحتى ؟ ألم تسمعيها تقول إننى أستحقّ الصفع والضرب ؟

ـ إنه مجرد كلام لا يجمل بك أن تلقى له بالا .

ـ وماذا تريدين منى أن أفعل الآن ؟

ـ أن تذهبى معى إليها ، وتطلبى منها الصفح . . .

ـ تريديننى أن أقرّ بأنى مخطئة ، فتزداد هى عتوًّا وجبروتا ؟!

ـ لن يكون من هذا شىء . أؤكد لك أن طلبك الصفح سيستلّ غضبها كله .

فصمتُّ . وجعلت « أم يونس » تحاول إقناعى بضرورة الذهاب

إلى أمى لطلب الصفح منها ، حتى أذعنتُ لها بعد لأى . وانتظرنا حتى استيقظتْ من النوم وفرغت من تناول فطورها واحتساء قهوتها، فقمت مع « أم يونس » إليها ، وكانت فى حجرتها تدخّن كعادتها .

فقالت « أم يونس » وهى تتقدم منها تتصنع الابتسام :

لقد جاءتك « سلوى » تؤدى لك تحية الصباح .

فلم تجب والدتى ، بل رأيتها تنفث دخان لفافتها وهى تتنهد. فأخذت يدها وقبلتها صامتة ، فانحنت علىّ ، وقبلتنى فى خدى ، ثم قالت :

إن قلب الأم سريع العفو ، سريع الرضا !

وجلست على مقعد غير بعيد من مكانها ، وسمعت « أم يونس » تتكلم موجهة قولها إلىّ :

أرأيت كيف أن قلبها رقيق ؟ ... لادَخَلَ الشيطان بينكما أبداً، ولا عكر عليكما الصفو !

ثم عادت أدراجها وهى تقول :

أستأذن فى الانصراف ... لم أقشّر بعض الخضَر .

وفيما نحن وحدنا ، قالت لى أمى : أتناولت فطورك ؟

— تناولته منذ قليل .

— وماذا أكلت ؟

— جبناً وحلوى طحينية !

فابتسمت وقالت : أما زلت تحبّين الحلوى الطحينية مثل الأطفال؟

— ما زلت أحبها !

— كنت مثلك ، ولكن عافتها الآن نفسى .

— لأنها طعام الأطفال ؟

فتضاحكت قائلة : الأمر كما تقولين !

وأشعلت لفافة ، وأخذت تنظر إليها ، وهى تديرها بين أصابعها ، منسرحة الخاطر . على حين قالت لى : أما زلت تظنينى كاذبة فيما أخبرتك به فى شأن المحامى الذى قدم فى الليل ... ؟

— لا نعاود هذا الموضوع يا أمى ...

— بل يجب أن نعاوده ليكون قلبانا صافيين .

فأجبتها وأنا أنظر فى كفى : إنى مصدقة كل ما قلته لى .

— إذن أعدك بأن نذهب معا إلى هذا المحامى فى مكتبه فى أقرب فرصة ...

— ذلك لا يهم ...

وعادت « أم يونس » تطلب من أمى نقودا لتشترى بعض مايلزم للطعام ، فرأيت الفرصة سانحة لأغادر الحجرة .

لم تبرح أمى المنزل هذا اليوم ، وتناولت معى طعام الغداء فى بهو الطبقة الأولى . وكانت مسترسلة فى ثرثرة على غير عادتها ، فانطلقت تعيد على مسامعى أنباء قضاياها ، وأنها تثق بصديقها المحامى ، فقد دلل لها على إخلاصه فى مواقف شتى ، وهى مدينة له بالشىء الكثير ، فلولا جهده لكانت خسارتها فادحة .

وكنت أصغى لها ولا أتكلم إلا بالموافقة . وما إن انتهينا من الطعام حتى دق جرس الباب ، فنظرت والدتى إلى « أم يونس » وقالت :

من يجيئنا فى هذه الساعة ؟

فأجابتها « أم يونس » وهى منكبّة على الصحاف تجمعها :

لا بد أن يكون الكنّاس أو صبىّ الخضرى .

وخرجتْ لتفتح الباب ، وبعد قليل وجدناها تعود مهرولة وتنحنى على والدتى تقول : شخص يريد أن يراك .

ولم تكد تنتهى من جملتها حتى رأيت « رجل الليلة الماضية » يدخل مبتسما يتقدم من أمى مصافحاً ، وهو يقول :

المعذرة عن إقلاق راحتك فى هذا الوقت . لقد ...

ولم يتم جملته ، بل التفت إلىّ مبتسما ، ومد يدهّ قائلا :

أهلا « سلوى هانم » ... « بونجور » !

فأجبتُـه : « بونجور » !

ــ أما زلتِ تصرِّين على أن عمرك ستة عشر عاما ؟ !

ثم اندفع يضحك ملء فمه . وقالت أمى فى لهجة لاتخلو من جفاء، موجهةً الـكلامَ إلىّ :

الأستاذ «رجائى بك» المحامى الذى كنتُ أحدثك فى شأنه منذ لحظة...

فالتفتَ إلى والدتى يقول : رأيت قبلَ سفرى إلى « الإسكندرية » أن أمرّ بك لأرى هل أنت فى حاجة إلىّ ؟

فقالت أمى : وكيف لا أكون فى حاجة إليك ؟ إننا لم ننته فى الليلة الماضية من بحث القضية !

ــ القضية ... ؟!

فلاحقتْـه أمى بقولها ، وهى تنظر إليه نظرات لها معناها :

قضية المتأخـّر من الإيجار ...

ــ آه ! ... ولكننا كدنا نتمـّها ... هناك تفاصيل صغيرة ليست بذات بال !

ثم مال علىّ وقال : «المدموازيل» لاتريدشيئاً من «الإسكندرية»؟

فقلتُ : أشكر لك . لا أريد شيئاً !

ـــ إن « الإسكندرية » تختلف كثيراً عن « القاهرة » . ومخازنها مشهورة بسلعها المبتكرة التى لا تجـديها إلا فيها ... أحسبك لم ترَىْ « الإسكندرية » ...

ـــ لقد قضيت بها أكثر من عشرة أعوام !

ـــ أكثر من عشرة أعوام ؟

فوجّه حديثه إلى أمى قائلا : إنها « إسكندرانية » !

واندفع يقهقه عالى الصوت ، فقالت له أمى : متى تسافر ؟

ـــ غداً فى الصباح المبـكر .

ودخلتْ «أم يونس» بالقهوة ، وتناول الرجل قدحه وشرع يحتسيه على مهل ، وقالت أمى :

إذن نؤجل البحث فى موضوع المتأخر من الإيجار حتى تعود !!

ـــ ولم ذلك ؟ يمكن أن نلتقى هذا المساء إذا أردتِ ...

ـــ لا موجب للعجلة !

وقدّم الرجل علبة لفائفه لوالدتى ، فأخذتْ منها واحدة ، فأسرع يشعلها فى رشاقة ، ثم تناول لفافة له .

والتفت إلىّ يقول فى ابتسامة واضحة : «سلوى هانم» لا تدخن بالطبع !

وأشعل لفافته ، ثم قال لأمى :

إنى أفضّل أن نلتقى ، لأنى لا أعرف مدة إقامتى فى «الإسكندرية» هل تطول أو تقصر ؟ وأخشى أن أتأخر هناك فتتعطل القضية !

ونفث دخانه دفعة واحدة ، وقال : قبل أن أنسى أريد أن أسألك : ألم تشاهدى « فلم » « مغامرات فى الجبال » ؟ .

— كلا !

والتفتَ إلىّ يقول :

«فلم» مدهش جداً يا «سلوى هانم» . لقد سمعتُ ثناء عليه مستطاباً.

ووجه حديثه لأمى قائلا : اليوم هو آخر أيام عرض «الفلم» فما رأيك فى أن نذهب لمشاهدته ؟ لقد حجزت مقصورة منذ الصباح .

— لا مانع ... !

— يمكننا أن ندرس موضوع القضية فى فترة الاستراحة . إن « سلوى هانم » ستسرّ بهذا « الفلم » كل السرور .

— ولكن « سلوى » ...

— ماذا ؟ إنه من نوع « الأفلام » التى تروق من فى سنها ... مغامرات ... حرب ... مباغتات ... حب ... سأمرّ بكما فى الساعة السادسة والدقيقة الخامسة عشرة ... اتفقنا ... إنها فرصة لطيفة لأريكما سيارتى الجديدة ...

— هل فرغتَ من أمرها ؟

— سأتسلمها اليوم ... أقصد بعد وقت قليل ... لن يركبها قبلكما أحد ... إنه لحظ سعيد بلا شك !

ونهض ، والابتسامة تتخايل على وجهه ، وقال :

فى الساعة السادسة والدقيقة الخامسة عشرة ...

وانحنى على يد أمى فقبلها محيّياً ، ثم لاطف يدى وهو يقول : سيعجبك «الفلم» جدّاً يا « سلوى هانم » . إنى واثق بذلك . أما إذا لم يعجبك فأنا مستعد للتعويض !

وجعل يقهقه ، ثم مضى .

وما هى إلا أن قلت لأمى فى ابتهاج : سأرتدى ثوبى الأخضر : فرمقتنى بنظرة جافية ، وقالت : أىّ ثوب ؟

— ثوبى الجديد الذى أريتك إياه ، والذى فصّلته بنفسى ...

— الثوب القصير الذى يُظهر ساقيك ! ؟

— إنه ليس من القصر كما تتوهّمين .

— بل إنه فاضح .

— سأحضره إليك لترَيْـه !

— لايمكن أن أدعك تخرجين معى إلى « السينما » بهذا الثوب .

— أؤكّد لك يا أمى أن ...

— لا تستطيعين أن تؤكدى شيئاً .

— ليس عندى ثوب آخر يليق بهذه المناسبة !

— أية مناسبة ؟ وهل تظنين أنك ذاهبة إلى المرقص ؟ ارتدى الثوب الكحلىّ !

فلم أتمالكْ أن صرخت قائلة :

الكحلىّ ؟ إنه مهلهل تتكاثر فيه الفتوق . لقد تعبتْ أصابعى فى رتقه ورَفْوِه ، وقد عوّلت على أن أعطيَه « أمّ يونس » ...

— حقاً ! ... يصح لك أن تنبذى أثوابك وهى فى حالة جيدة ، لأننا من أصحاب الملايين !

— لنختصر الحـــديث يا أمى ... إنى لا أرغب فى الذهاب إلى « السينما »

وتركتها على الفور ، وهرعتُ إلى حجرتى ودموعى تتسايل على وجهى ، وذهبتُ إلى النافذة واستندتُ إلى حافتها وأنا أقرض أطراف

منديلي ... إن أمي لتعلم عدد المرات التي ذهبت فيها إلى « السينما » في حياتي ، وهي لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ومع ذلك فإنها تضع العراقيل لتحرمني أن أذهب اليوم لمشاهدة ذلك « الفلم » !

وطرق سمعي خفقُ خطوات « أم يونس » ثم أحسستُ يدها تلاطف كتفي ، فالتفتُّ إليها وأنا أقول بحدّة :

لن أذهب إلى «السينما» . لا يمكن أن يُرغمني أحد على الذهاب ...

ثم انطلقتُ أحكي لها ما حدث ، فقالت لي وهي تتظاهر بتنظيف ثوبي : أوَتريدين أن تضيّعي على نفسك فرصة التفرّج ؟ لو كنت مكانكِ لذهبتُ !

— لأكون أضحوكة بين الناس في ثوبي الكحليّ ؟ محال ... !

فأخذتني من يدي ، وذهبتْ بي إلى صوان الملابس ، وقالت وهي تفتحه : فلننظر على مهل ...

فانطلقتْ مني ضحكة ساخرة ، وقلت : تنظرين ! أي شيء ؟ الثلاثة الأثواب التي لا أملك سواها ؟ انظري أيها يليق ؟ أهذا وقد نصل لونه ، أم ذاك وهو لا يصلح إلا أن يكون ممسحة للأرض ؟ ... أغلقي الصوّان ... أغلقيه ... !

— إن أمّك تريدك على أن ترتدي الثوبَ الكحليّ .

— لن أرتديه !

وأخرجته « أم يونس » من الصوّان وبسطته على السرير وهي تقلبه ، ثم سمعتها تتكلم كأنها تحدث نفسها :

لو خطنا هذا القطع ، ورتقنا هذا الفتق ، لما كان فيه ما يعيبه ! فقلت لها وأنا أهم بانتزاعه منها : قلت لك لن أذهب إلى «السينما» ،

فأريحي نفسك من العناء .

فأمسكتْ به ، وقالت : أنت حرة فى أن تذهبي إلى « السينما » أو لا تذهبي . أما الثوب فادام لا يروقك فدعيه لى أتصرّف فيه كما أشاء ...

— فليكن . خذيه . إنى لست فى حاجة إليه . لقد كان فى نيّتى أن أعطيك إياه ...

وجلستُ على مقعد بجوار النافذة ، ورحت أهزّ رجلى ، وجعلت أختلس إليها النظر ، فرأيتها قد تناولت سَفَط الخياطة من تحت السرير ، وقعدتْ متربعة على الأرض ، وأقبلتْ على الثوب تبسط جوانبه .

وبعد حين سمعتها تحدث نفسها بقولها : لو وضعنا فى هذا الثوب أزراراً حمراً يا بنيّتى ، ثم جئنا له بحزام على لون الأزرار ...

فأرسلت ضحكة عالية ، وقلت متممة كلامها : لأصبح فتنة الثياب !

فرفعتْ « أم يونس » رأسها وقالت :

ما رأيك فى ذوق جارتنا « الست فتحية » التى تسكن آخر الحارة ؟

— يقولون إنها نموذج الرشاقة والذوق السليم ، ولكن ما شأنها بالثوب ؟

— لقد شاهدتها منذ أيام تلبس ثوباً كحلىّ اللون كأنه هذا الثوب عينه . ولكنها حلّته بحزام قرمزى وأزرار عنّابية ....

وكانت فى يدها حقيبة حمراء قانية ، وفى قدميها حذاء كأنه قطعة من الحقيبة ، وفى الشقّ الأيسر من صدرها وردة حمراء ... فأعجب بها كلّ من رآها . وكانت بهذا الزىّ نهباً لأنظار الرجال !

١٤

وفى الساعة السادسة والدقيقة الخامسة عشرة سمعتُ صوت أمى تناديني . فلبّيت على عجل ، فما إن تلاقتْ أنظارنا ، حتى قالت :

ما هذا الثوب ؟ إننى لم أرَه عندك من قبل !

ـــ إنه الثوب الكحلىّ الذى طلبت منه أن أرتديه !

ـــ إن الأزرق مع العُنّابى من الألوان التى أصبحت مبتذلة الآن ! ... وهذه الوردة الغريبة .. إنها بلديّة الذّوق ! ...

ونظرتْ إلى قدَمَىَّ ، فصاحت : ليس هذا حذاءك !

ورفعت بصرها إلىَّ ثانياً تقول : قرّبى مكانك منى ... تعالىْ ... من أين لك هذه الحقيبة وهذا الحزام ؟ .. إن جارتنا « الست فتحية » لها ما يماثلهما .. لعلك قد ..

ودخلت فى هذه اللحظة « أم يونس » تعلن قدوم الأستاذ « رجائى » وأسرعنا نستقبله وأمى تغمغم ، فألفيناه فى البهو لمَّاح الطلعة ، جديد الملبس ، يتخذ رباط رقبة أحمر زاهياً يستثير بلونه انتباه الرائى . وتقدم خفيف الخطا من أمى فلثَمَ يدها ، ثم وقف قبالتى يتفحَّصنى وهو يقول :

ماذا أرى ؟ أأنا أمام « سلوى هانم » ؟

فتضاحكت أمى وقالت : أتراها قد تغيَّرت فى ساعتين ؟ !

ـــ إن « سلوى » الصبية قد اختفت عن الأنظار ...

فقالت أمى فى نظرة غامضة : عجيب !

ودنا منى الأستاذ « رجائى » وألفيته يمسك بيدى ، ثم انحنى عليها

فقبلها . فنظرتُ من فورى إلى أمى ونبضاتُ قلبى تتواثب ، فرأيتها تحد فىّ بصرها الملتهب ، ثم سمعتها تقول للضّيف : هل تسلمت السيارة؟

— أجل ... إنها طَوْع أمرك !

وخرجت أمى ، فتبعتها أنا والأستاذ «رجائى» وإذا بنا أمام سيارة لطيفة تبدو على ضوء النهار الغارب كأنها جوهرة نفيسة تأتلق ، وأخذ الأستاذ «رجائى» يدور بنا حولها ، ويرشدنا إلى دقائقها . ويشرح لنا مزاياها ، مسهباً فى الحديث ، متأنقاً فى التعبير .

وأخيراً دخلناها ،فاحتل الأستاذ مجلس القيادة، واتخذت أمى مجاسها فى الخلف وأنا بجوارها ، ورأيت السيارة تمضى بنا والأستاذ لا ينفك يحدثنا عن شئونها : ماهى طاقتها فى السرعة ؟ ماذا تختزن من الوقود ؟ ماهى مزاياها التى تنفرد بها ؟ وقد استغرق هذا الحديث طريق السيارة بين المنزل ودار « السينما » ...

ولما قصدنا إلى مقصورتنا فى « السينما » شهدنا على الستارة البيضاء أفلاما أخبارية وأخرى فكهية، وكان حديث الأستاذ «رجائى» لا ينقطع وضحكاته لا تفتر ، ولكن شغلى بمتابعة ما يعرض من الصور لم يدع لى بالا ألقيه إلى حديثه وبواعث ضحكاته .

وفى فترة الاستراحة وقد أطْلِقَ النور أخذتُ أسرّح بصرى حولى وأنا مبتهجة مغتبطة ، وشعرت بالأستاذ «رجائى» يترك المقصورة، وسمعته يحيِّى بعض الناس قائلا :

أهلا « دكتور فهيم » ... مصادفة مدهشة !

فالتفتُّ خلفى فإذا بشابّ وسيم يدنو من الأستاذ «رجائى» ويصافحه، ووقفا لحظات يتطارحان الحديث . ثم رأيت الأستاذ يدخل المقصورة

وفى صحبته « الدكتور الشاب » ، واقترب من والدتى يقول لها : « الدكتور داود بك فهيم » الذى حدثتك فى شأنه أخيراً حين كنت متوعكة .

ثم التفت إلى الدكتور فهيم » يقول : « درية هانم شوقى » !

واتجه نحوى مشيراً إلىّ قائلا : الآنسة «سلوى هانم شوقى » !

وأقبل « الدكتور » على أمى وعلىّ يصافحنا . وهو ربعة معتدل القامة ، نفاذ النظرات ، استرعى انتباهى منه على الفور ما يتحلى به من أدب واحتشام . وسمعت أمى تقول له :

اجلس يا « دكتور » ... إنه لتسرنى معرفتك !

ـــ أشكر لك . لست أقلّ منك سروراً بهذا التعارف يا «هانم» !

وقال الأستاذ « رجائى » :

إن « الدكتور فهيم » ليس طبيباً فقط ، وإنما هو عالم أيضاً .

فقالت أمى : عالم ؟ !

ـــ بحّاثة كبير ... ويريد التخصص فى أمراض المناطق الحارة .

فقالت أمى : أهنئك يا «دكتور » !

ـــ إن الأستاذ « رجائى » يبالغ يا «هانم » فيما يصفنى به ...

فقال الأستاذ «رجائى» : لا مبالغة فيما قلت !

ـــ لا أنكر أنى مهتم بأمراض المناطق الحارة . ولكنى أعترف بأنى لم أصل حتى الآن إلى شىء يستحق الذكر .

ـــ ومحاضرتك البليغة فى «بيت الحكمة» ؟

فقالت أمى وهى تتظاهر بالاهتمام :

هل ألقى « الدكتور » محاضرة فى « بيت الحكمة » ؟

فأجاب « الدكتور فهيم » :

تحدثت عن « التيفوئيد » باعتباره من الأمراض الفاشية فى مصر .

فقال الأستاذ « رجائى » : لقد عارضك « الدكتور شوكت » فى نظريتك ، ولكنك انتصرت عليه ...

والتفت الأستاذ « رجائى » إلى أمى يقول: لقد كان انتصاره حاسماً!

وبدأت الأنوار تطفأ ، فاستأذن « الدكتور » فى الخروج ، فقال الأستاذ « رجائى » : إلى أين ؟

— إن مقعدى ينتظرى يا أستاذ !

فقال له : فلينتظر يا سيدى ! ... كن معنا إلى نهاية الرواية ...

والتفت إلى والدتى التفاتةَ التساؤل ، فقالت : يشرّف ويؤانس!

فقال « الدكتور » : ولـكن يا « هانم » ...

وأجلسه الأستاذ رجائى ، وهو يقول : اجلس . اجلس !

وقد دار هذا الحديث ، فلم أشترك فيه بكلمة ، ولـكن نظرات « الدكتور فهيم » التقت بنظراتى غير مرة .

وساد القاعة ظلام ، وبدأت الستارة تعرض « فلم » : « مغامرات فتى الجبال » . وكان الفلم ملوّناً ، فسحرتنى مناظره وخلبتنى حوادثه . وشعرتُ بالأستاذ « رجائى » يدنى مقعده من مقعدى ، على حين كان « الدكتور فهيم » بجوار والدتى يتحدثان بين فترة وأخرى . فكنت أسمعه يتكلم عن « البكتريا » والطفيليات واللقاح و « الأمصال » وما إليها ، وظهرت إحدى ممثلات « الفلم » تضع على صدرها وردة حمراء ، وسمعت الأستاذ « رجائى » يهمس بقوله : ما أشبه وردتها بوردتك ! ... ولـكن وردتك أجملُ منظراً ، وإن عطرها لزكى !

فقلت له : إن وردتى من نسيج ، لاعطر لها ... !

— من نسيج أو من غير نسيج . إن لها لعطراً رائعا . حسبها أنها على صدرك ...

وسمعت والدتى فى هذه اللحظة تقول لى فى لهجة يتوضح فيها الجفاء :

إنك تحجبين الستارة عن « الدكتور » . تنحَّىْ قليلا ...

فقال « الدكتور » على الأثر : إنى أرى جيّداً . دعيها مكانها .

فتراجعتُ شيئاً عن مكانى . وأحسست الأستاذ « رجائى » يتأخر بمقعده خطوة ، وبعد قليل سمعته يشترك مع « الدكتور » فيما يتحدّث به إلى أمى عن « البكتريا » والطفيليات .

وانتهى عرض الرواية وأطلقت الأنوار ، فقمنا نتأهب للخروج .

فقال الأستاذ « رجائى » :

كان « فلما » عظيما . لقد أحسنتُ الاختيار . أليس كذلك ؟

فقالت والدتى : حقاً إن اختيارك كان موفقاً ، وأهنئك !

وانصرفنا .

ولما بلغنا مكان السيارة ، قال الأستاذ « رجائى » لوالدتى :

لدىّ اقتراح !

— ما هو ؟

— إن الليلة رائعة ، لا يجمل أن تقضوها بين جدران المنزل .

— إلى أى مكان تريد أن نذهب ؟

— إلى مطعم « أمبريال » نتعشّى ونستمتع بالموسيقى والرقص .

ومال علىّ قائلا : « سلوى هانم » تحسن الرقص . أليس كذلك ؟

فقالت أمى على الأثر : ليس لـ « سلوى » فى المطاعم والمراقص مكان !

فضحك الأستاذ « رجائى » قائلا :

تحكم « الدكتور فهيم » فى هذه المسألة !

فأجاب « الدكتور » : إن من التطفل أن أتدخل فى مثل هذه الأمور الخاصة ... والآن أظن أن موعد استئذانى قد دنا ...

ـــ ماذا تقصد ؟ أتأبى أن تكون فى صحبة « الهانم » هذه الليلة ؟

ـــ الموضوع يا أستاذ ...

ـــ الموضوع أنى أدعوكم جميعاً إلى العشاء الليلة فى مطعم « أمبريال » ... هلمّوا ... لا أريد جدالا ولا مناقشة !

وانحنى على والدتى يقول لها مبتسما :

لم ننته بعد من مسألة المتأخر من الإيجار ...

وتركنا السيارة فى خفارة غلام من حرّاس السيارات ، ونحونا نحوَ المطعم مترجّلين ، إذ كان مكانه على قيدِ خطوات .

وأعدّت لنا مائدة فى الصفّ الأول قبالة حلقة الرقص ومنصّة الموسيقى . وكانت الأنوار ألاقة تخطف البصر ، والضجة متتابعة تملأ السمع . فكنتُ مأخوذة أبعثر النظر ذات اليمين وذات الشمال .

وكانت المائدة مستديرة ، فالتففنا حولها ، واتخذت والدتى مجلسها بين الأستاذ «رجائى» و«الدكتور فهيم» . واختارت لى مقعدى ، وأشارت إلىّ أن أجلس عليه ، فإذا بها تتعمّد به ألا أرى من حلقة الرقص إلا بعض جوانبها بلَفْتِ النظر وإمالة العنق .

وأخذ الأستاذ « رجائى » يقرأ ورقة الأطعمة بصوت مسموع ، وقدِم خادمُ المطعَم ، فكتب الألوان التى انتخبناها فى مذكّرته .

ومال الأستاذ « رجائى » على والدتى يشاورها فى أمر . فقالت :

لا بأس ... أريده « بالصودا » ..

وفطنتُ إلى أنه يكلمها فى شأنى ، وسمعتها تقول :

أحضرْ لها شراب الليمون ... شراب الليمون ...

ولم يطلْ بنا الانتظار ، فقدأقبل الخادم بصِحَافِ الطعام وأقداح الشراب ، وبدأنا نتطعّم ، ووجدتُ الأستاذ « رجائى » يقرّب منى شرابَ الليمون ، على حين أخذ يفرغ زجاجات « الصودا » فى الكئوس الأخرى التى كان فيها قليل من شراب ذهبى ...

وانطلقتْ الموسيقى تعزف ، وانتظمتْ حلقة الرقص ، وأخذتُ بين الفينة والفينة أنظر إليها ، وأتلفّت حولى كأنى فى مدينة مسحورة ، وسمعت الأستاذ « رجائى يقول :

أرجو أن تكون « سلوى هانم » مسرورة .

— مسرورة جداً . أشكر لك .

وتناولتْ أمى ثلاث كئوس ، واحتسى الأستاذ « رجائى » مثلها . أما « الدكتور » فاقتصر على واحدة . وأبى كلّ الإباء أن يزيد عليها . وكان نزْرَ الكلام ، رزين المجلس « ولم يبادلنى إلا كلمات مألوفة فى احتشام ، وكان يقدّم لى ما يرانى فى حاجة إليه من أشياء الطعام .

ورأيتُ والدتى تحتسى الكأس الرابعة ، وانطلقتْ تضحك فى إغراق ، وتترنم بصوت جهير ، وتضرب بقدمها الأرضَ متمايلة تساير الموسيقى فى الإيقاع ... ولقد أكثر الأستاذ « رجائى » من الشراب ، فلمْ أعلمْ كم كأساً تعاطى ... ووجدت والدتى تنحنى عليه هامسة فى أذنه فى تدلّل ومعابثة . وبعد هنيهة نهضا معاً إلى حلقة الرقص ، ثم ارتدّت والدتى خطوة إلى مائدتنا تقول لـ « الدكتور » :

إن « سلوى » لا تحسِنُ الرقص . تعلمْتُه فى المدرسة منذ سنين ، ولكنها الآن نَسِيَتْه .

فأجابها « الدكتور » مبتسما :

وأنا أيضاً لا أحسن الرقص يا « هانم »

وتأبطت أمى ذراع الأستاذ « رجائى » وانتظما فى حلقة الرقص ، وانطلقا يرقصان. وسرعان ما تواريا بين الراقصين، ولكن ما لبثا أن ظهرا ثانية ... وكانا يتمايلان فى نشوة وقد تقارب وجهاهما حتى كادا يتلاصقان . وبدرت من والدتى بعض حركات غير لائقة تتبعها ضحكات مبتذَلة ، فوجدتنى ألتفت إلى «الدكتور فهيم» وأحسستُ على الفور وجهى يلتهب ، فخفضتُ من بصرى . وبعد هنيهة سمعت « الدكتور» يقول :

ــ أظنها المرة الأولى التى تحضرين فيها إلى هذا المطعم ...

فرفعتُ عينى إليه ، فإذا هو يبتسم فى وداعة ، فقلت :

إنها المرة الأولى التى أتناول فيها الطعامَ فى مطعم عامّ .

ــ وكيف تجدين المكان ؟

ــ لطيفاً ...

ــ وهذه الزحمة ، وهذا الدخان ، وهذا الضجيج ؟

ــ أحب فيه أنواره وما فيه من مناظر مسلّية .

فتناول كوبَ الماء يجرع منه قليلا ، ثم قال: حقاً إنها مناظر مسلية وأمسك بالسكين يتلاعبُ بها وقتاً ، ثم قال وهو يتفحصها :

أتعرفين الأستاذ « رجائى » من زمن طويل ؟

ــ منذ أيام !

ــ فقط ؟

ـــ فقط ! مع أنه يتولى قضايانا من عهد بعيد .

ـــ ألكم قضايا كثيرة ؟

ـــ أظنّ !

ورأيت والدتى قادمة مع الأستاذ « رجائى » فصمت .

وصاح الأستاذ بخادم المطعم :

أين الفاكهة يارَذل ... الفاكهة حالا . أسامع أنت ؟

ثم ابتسم لى وقال :

ماذا تود « المدموازيل » أن تأكل : كمثرَى ؟ تفاحاً ؟ برتقالا ؟

فقالت أمى على الفور :

أحضرْ لى كمثرى ... أما « سلوى » فهى تحبّ اليوسفىّ .

وبعد قليل قدم الخادم بالفاكهة ، فما إن رآها « الدكتور » حتى قال له : أمغسولة هى أم بدون غسل ؟

ـــ مغسولة يا سيدى !

ـــ أغسلتموها بالصابون ؟

فابتسم الخادم وقال : بالماء فقط .

وصاح الأستاذ « رجائى » وهو يتناول كمّثراة :

ماذا ؟ هل تريد أن يغسلوا الفاكهة بالصابون ؟ ... إنها ليست مناديل أو جواربَ ...

وأخذ يقطع الكمثراة ويلتهم قطعها . فقال « الدكتور » :

أنسيتَ أن « التيفوئيد » منتشر الآن ؟

ـــ أىّ « تيفوئيد » ؟... دعكَ من هذا الكلام !

وأخذ «الدكتور فهيم » صَحفة الفاكهة ، وطلب إلى الخادم فى

تأكيد أن يغسلها بالصابون جيداً ، ثم التفت إلينا يقول :

إن واجبي يحتم عليّ أن أفعل ما فعلت .

فصاحت والدتي : ستؤخرنا عن الرقصة يا « دكتور »

وأتمّ الأستاذ « رجائي » قولها :

إنه حقاً يؤخرنا عن الرقصة بهذه الفلسفة الطبية ... أظن أن « الدكتور » يرغب في أن يحاضرنا الليلة في أضرار « البكتريا » ... لسنا في عيادة أو معمل أبحاث ... نحن في مطعم ومَرقص ...

ثم اندفع يضحك بصوت جَهْوَرِيّ لفت إليه الأنظار ...

وخفّت والدتي إلى حَلقة الرقص بعد أن أفرغت في فمها كأساً من الشراب ، فاقتفى أثرها الأستاذ « رجائي » ، ووجدته قد تعثر في مشيته ، وكاد يسقط ، فانطلقت مني ضحكة كتمتُها بمنديلي ، ورأيت « الدكتور » يبتسم

وجاء الخادم بالفاكهة المغسولة ، فاختار « الدكتور » أطيب ما فيها ، وقدّمه إليّ ، فشكرت له ، وشرعت أقشر وآكل .

وساد بيننا الصمت ، وتلاقت عيوننا مرتين ، فتبادلنا الابتسام .

وكنت أحس بشعور من الغبطة ينبعث من أعماق قلبي فيشيع بين حناياي

وسمعتُ « الدكتور » يقول : لا تنسي أن تغسلي الفاكهة دائماً قبل أكلها .

فابتسمتُ وقلت : سأفعل !

— أتؤمنين بما أقول ؟

— دون شك .

— ولكن صاحبنا الأستاذ « رجائي » لا يقيم وزناً لنصائحي .

— إنه على غير حق ، ويدهشني أن يتفوه بأقواله تلك وهو محام كبير .

ـــ من قال لك إنه محام كبير ؟ !

ـــ لا أحد . أنا التى أقول ذلك!

فضحك ضحكة لطيفة ، جاذبتُه إياها فى ابتهاج . ورأينا الأستاذ « رجائى » مقبلاً وحده . وكان يمسح وجهه بمنديله . ولمحنا نضحك فوقف قبالتنا صامتاً يتطلع ، ثم قال « للدكتور فهيم » :

ألا تأخذ كأس « درية هانم » وتذهب بها إليها ؟!

ـــ أنا ؟ لماذا ؟

ـــ لأنها تريد أن تشرب ...

ـــ ولكنها كلفتكَ أنتَ إحضار الكأس ... أليس كذلك ؟

ـــ لستَ أنتَ لطيفاً يا « دكتور فهيم» ... سأشكوك إليها حتماً.

ثم دنا منى وهو لا يتمالك ، وقال مبتسما :

ليس « الدكتور فهيم » لطيفاً معى ... ألا تريْنه كذلك ... !

ـــ لا أدرى !

ـــ إننى أحتج على بقائه دائماً بجوارك ، لم يترك لى فرصة أستمتع فيها بحديثك العذب ...

وسمعت « الدكتور» يقول :

« درية هانم » تطلب الكأس، وأراك تتباطأ ... !

فلم يُعره الأستاذ « رجائى » التفاتاً ، وقال موجهاً حديثه إلىّ :

أقسم بالله إنه ليس فى هذا البهو الطويل العريض الزاخر بالحسان الفاتنات من هى أشدّ سحراً وأوفر حسناً ورشاقة منك يا «سلوى هانم»، أقسم بالله إنك ملكة الجمال فى هذا المكان ، بل ملكة ...

ووقف « الدكتور فهيم » ، وأمسك بذراع الأستاذ « رجائى »

وقال له جادًّا : دع «سلوى» وشأنها ، واذهب بالكأس كما أمرتك «درية هانم» .

فرماه الأستاذ «رجائى» بنظرة حادّة ، وقال :

لم أحضرك معنا لتجالسَ «سلوى» وتؤانسها . لقد جاوزتَ الحدّ

ولم يفضّ النزاع إلا عودة أمى ، ولكنها لم تنكر من أمرنا شيئاً ، فقد استطاع «الدكتور» بلباقته وسرعة خاطره أن يحيل الحديث فكاهةً ودعابة ...

ولم نمكث بعد ذلك إلا قليلا من الوقت ، ونهضنا معتزمين مغادرةَ المطعم ، فلما جاء الخادم ليأخذَ ثمن العَشَاء ، أخرج الأستاذ «رجائى» محفظة نقوده ، وشرع يقلّب فيها طويلا ... ولمحتُ الخادم يبتسم . ولكن سرعان ما وجدت «الدكتور فهيم» يؤدّى له حسابَ الطعام فى صمت وهدوء .

وحثثنا الخطا إلى الباب ، على حين كان الأستاذ «رجائى» يؤاخذُ «الدكتور فهيم» ويكرّر عتابه عليه فى تقدّمه لدفع الحساب .

ولما بلغنا سيارة الأستاذ «رجائى» دخلت أمى فدخلنا فى أثرها ، ثم رأيت «الدكتور فهيم» قد أسرع يجلس فى مكان القيادة ، فرمقه الأستاذ «رجائى» بنظرة نكراء ، وقال : ماذا تَعنى ؟

فابتسم «الدكتور» وقال :

ألا تريد أن أجرّبَ سيارتك الجديدة ...؟

ثم التفت إلىّ وقال : تعالى يا آنسة واجلسى بجانبى . الأستاذ «رجائى» يفضل أن يأخذ مجلسه فى الخلف .

فحملق فيه الأستاذ قائلا : ما معنى هذا ؟ ألا تترك لى مكان القيادة ؟

فقال « الدكتور فهيم » فى جدّ : لا ، لن أتركه لك . أريد أن ترجعوا فى أمان وسلام ، إنى أعدّ نفسى مسئولا عنكم .

ومدّ ذراعه ودفع بالأستاذ « رجائى » داخل السيارة ، وأشار إلىّ أن أنتقل لأجلس بجوار مقعد القيادة ، ففعلتُ على الأثر ، والتفت إلى أمى يقول : أين المنزل يا « هانم » ؟

فذكرت له أمى عنوانَ المنزل ، ووجدتها بعد لحظة قد اندفعت تقرّع الأستاذ « رجائى » وتكيل له ضروبَ التهم . وانقضى الوقتُ وهما مسترسلان فى جدال ومهاترة وتصايح ...

أما « الدكتور فهيم » فكان يبادلنى النظرات مبتسما ، ويلاطف يدى فى صمت .

وعند وصولنا ترك مكانه ، وساعدنى على النزول ، وقبّل يدى قبلة رقيقة ...

١٥

وفى صبيحة غد استيقظتُ مبكرة ، وأخذتُ أعرض ما وقع لى من أحداث الليل .

وكانت مشاهد الرقص تتراءى لعينىّ . وفكرتُ فيما قالته أمى من أنى لا أحسن الرقص ، وسألت نفسى : ماذا كان يجرى لو كنتُ أحسنه ، وطلب الدكتور « فهيم » أن يراقصنى ؟ وتمثلت لى على الفور صورتا «مسيو فوكيه» وزوجه صاحبى «مدرسة العائلة السعيدة» المدرسة التى تعلمت فيها مبادىء الفرنسية والغناء والرقص، وجعلت أحدث نفسى :

من هو المسئول عن جهلى للرقص ؟

وبعد حين سمعت « أم يونس » تقول :

صباح الخير . لعل النزهة كانت طيبة .

— طيبةً جداً يا « أم يونس » !

وقفزت من السرير، ثم احتضنتها وأنا أقول: «سينما» ... «مطعم» ... رقص ... موسيقى ... متعة حلوة ... كان معنا « الدكتور فهيم » !

— « الدكتور فهيم » ! !

— « الدكتور فهيم » صديق الأستاذ « رجائى » المحامى . شاب مؤدب ، وهو ماهر جداً فى فنه ؛ إنه حتم علينا ألا نأكل الفاكهة إلا إذا كانت مغسولة بالصابون !

— بالصابون ؟ !

— خوفاً من « البكتريا » ... إن « التيفوئيد » الآن منتشر فى

«مصر»، و«الدكتور فهيم» يكافحه بشدّة ... إنه عالم أيضاً ، وهو يخطب أمام العظماء خطباً جليـــلة . ولكن الذى أضحكنى غاية الضحك هو الأستاذ « رجائى » !

ـــ ماذا جرى له ؟

ـــ لقد زلّت قدمه ، وسقط فى حَلْقة الرقص وسط الناس !

ـــ يا للنائبة !

ـــ كان منظره مضحكا ... مضحكا جداً !

واندفعتُ أضحك ، و«أم يونس» تشاركنى فى ضحكى ؛ ثم تابعت قولى : هل استيقظتْ أمى ؟

ـــ ما برحتْ نائمة .

فملت عليها وهمست فى أذنها :

لقد اشتبكتُ مع الأستاذ « رجائى » فى مشاحنة صاخبة .

ـــ أمام الناس ؟

ـــ بل فى السيارة ... هذا سرّ بينى وبينك !

ـــ سرك محفوظ فى بئر ... لا تخشىْ شيئاً !

ـــ واستيقظتْ أمى قبَيْل الظهر . وبعد أن فرغت من فَطورها استدعتنى ، فذهبت إليها ، وكانت على مألوف عادتها ممدّدة على مقعدها الفسيح ، واللفافة فى يدها ، فقبلتها ، وجلست على كرسى بالقرب منها ، فبادرتنى بقولها : هل أعدْتِ الأشياء التى استعرتها من « الست فتحية » ؟

ـــ ستأخذها « أم يونس » إليها بعد الغَدَاء .

ـــ كان من الواجب أن ترسلوها فى الصباح ... لا أدرى بأى وجه

أقابل هذه المرأة ... ماذا تقول عنا ؟ شحّاذون ؟ !

— هوّنى عليك يا أمى . الأمر لا يستدعى كل هذا . إن الجيران يتبادلون الأشياء ، ويستعير بعضهم من بعض ...

هـــذا يكون بين جيران الأحياء البلدية ، أما فى الطبقة الراقية فلا ... لا بد أن « الدكتور فهيم » أطرَى فيك الوردة والحزام ، ولـكن مع الأسف لم تحظىْ منه بأكثر من كلام !

— لم تجر على لسان « الدكتور فهيم » كلمة فى هذا الشأن .

فابتسمتْ ابتسامة صفراء وقالت : إذن أُطرَى أشياء أخرى... لا بد أنه قال لك : إنك بارعة الحسن ، وإنْ حديثك كالشهد ... ولـكن اسمعى ، لا تصدّقى هذه الأقوال... إن الرجال أمهرُ خَـلقِ الله فى صناعة الـكذب !

— ولـكن « الدكتور فهيم » لم يقل شيئاً من ذلك أيضاً !

— أظنك تريدين أن تـُوهمينى أن « الدكتور فهيم » كان يلقى عليك خطبة فى طبّ المناطق الحـــارة ! ... ولذلك كنتما مبتهجين أشدّ الابتهاج ! ...

— كان يتحدّث الأحاديث المألوفة ...

— ولماذا تريدين إذاً إخفاء هذه الأحاديث المألوفة عنى ؟ !

— أى حديث أخفيه ؟

— احتفظى بأسرارك . إنى فى غنى عنها ... ولـكن أقول لك الحق : إن هذا « الدكتور » شديدالـكبرياء والتقعّر . يظن أنه لا أحد مثله فى علمه وكماله !

— إنه شخص مؤدّب رزين ...

ـــ صدقتِ ... مؤدب رزين كقالب الثلج !

فنهضتُ وأنا أقول : أظنك لست فى حاجة إلىّ الآن !

ـــ معذرة إذا كنتُ قد أثرتُ غضبك . ولكن أنسيت أنى صاحبة الفضل فيما نعمتِ به من تفرج ؟ ... أنتِ دائماً منكِرة للجميل ...

فعقدتُ يدىّ على صدرى وقلت : بل إنى معترفة لك بكل شىء !

ـــ يجب أن تعلمى أنى أردتُ باصطحابك معى هذه الليلة أن أعوّدك الظهور فى مثل هذه المحافل الراقية لكى تتعرّفى الأدب اللائق بها .

ـــ أشكر لك يا أمى .

ـــ إنى أعدّك لتكونى فتاة عصرية من فتيات الطبقة العالية ، ولكنك لا تريدين أن تفهمينى ...

ولم تتناول أمى الغداء فى المنزل بحجة أن لديها أعمالا مهمة تريد الخروج من أجلها .

وفى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر ، بينما كنت فى الردهة العليا ، مشغولة بإصلاح بعض ملابسى ، إذ دقّ جرس الباب ، وكانت « أم يونس » هى التى تذهب دائماً لتفتحه . ولكنى وجدتنى أسارع إلى النزول ، فما إن فتحتُ الباب حتى وقفت مأخوذة ...

كان القادم « الدكتور داود فهيم » !

وبادرنى بقوله وهو يبتسم فى تأدب : لم تتوقعى أن أحضر ...

ولم أملك أن أخفى حيرتى وارتباكى ، فقلت :

حقاً ... مطلقاً ... ولكن تفضل ...

وظهرت «أم يونس» بوجهها المهزول ، وجسمها الأعجف ، وعينها

المتفحصة ، وهى تسير فى تؤدة ، فقلت لها :

« الدكتور داود فهيم » الذى كان معنا أمس...

فقالت « أم يونس » وهى تحدّق فى « الدكتور » :

حضرتك تريد لقاء « الست » الكبيرة ؟

فقال لها فى هدوء ولطف حسبى لقاء « سلوى هانم » ...

— قصدى أن أقول إن « الست » الكبيرة خرجت ...

— لا بأس ... لقد جئت فى زيارة قصيرة لا تستغرق أكثر من بضع دقائق ...

فتقدمت إلى حجرة الزوّار وقلت له :

تفضل « يادكتور » ... تفضل ...

وفتحتُ باب الحجرة ، فقال : يمكننى إنجاز الموضوع الذى جئت من أجله وأنا واقف هنا إذا أردت ...

فقالت « أم يونس » موجهةً كلامَها إلىّ : الدكتور متعجل ...

فقلت لها فى صلابة : اذهبى فأحضرى القهوة ...

فنظرت إلىّ فى صمت ثم انصرفت عنا وهى تجر قدميها متثاقلة ..

فلما احتوتنى أنا و «الدكتورفهيم» حجرةالزوّار ، أخرجَ من جيبه منديلا صغيراً ، وقال :

هو منديلك . أليس كذلك ؟ لقد رأيت عليه حرف«س»مطرّزاً

فتناولت المنديل ، وسرعانَ ماعرفته ، فقلت :

حقاً إنه منديلى ... أين وجدتَه ؟

— وقع بصرى عليه فى السيارة اتفاقاً ، فهممت أن أعود به إليك قبل إيابى إلى منزلى ... ولكن الوقت لم يكن ملائماً ...

ورأيته يحدّق أمامه ، وهو يقول : إنى مغتبطٌ بعثورى على هذا المنديل ، فقد أتاح لى فرصةَ زيارتكِ !

فتشاغلتُ بالمنديل أبسطه وأطويه ، ولم أتكلم .

وامتدّ الصمتُ بيننا هنيهة ، ثم سمعته يقول :

كيف أمضيتِ بقيةَ الليل ؟ أ كان نومكِ طيّباً ؟

ــ نعم ... وقد استيقظت مبكرة ...

ــ تستيقظين مبكرة ، مع أن السهرة امتدت بنا إلى ساعة متأخرة ؟ !

ــ إنى مهما أسهر لا أتأخر فى يقظتى ...

ــ جميل جداً ... وهل تسهرين فى ليال كثيرة ؟

ــ أسهر أحيانا ... ولكن لا كسهرة الليلة !

ــ أظنك تسهرين فى منازل صويحباتك وجيرانك ...

ــ كلا .. بل هنا فى المنزل ، أفصّل ثيابى وأخيطها ...

ــ حسن ... إذاً أنت التى فصلتِ هذا الثوب الذى تلبَسينه الآن ، وأنت التى خطته ...

ــ الأمر كما تقول ... ولكنه ليس بثوب ممتاز ... إنه جلباب منزلىّ ساذَج ، وهو فوق ذلك قديم ...

ــ إن فى سذاجته سرّ جماله !

ــ الحق أن ظهورى به أمامك يخجلنى ... كان علىّ أن ...

ــ إن كان لومٌ فهو علىّ ... لأنى فاجأتكِ بزيارتى على غير موعد !

ودخلت « أم يونس » حاملة صينية القهوة ، فتناول « الدكتور »

فنجانَةً وشرب منها جرعة ... ووجدت المرأة واقفة لا تبرح ، فقلت لها :
امضى الآن يا « أم يونس » ... وسأعود حين يفرغ « الدكتور » من شرب قهوته ...

فرمقتنى «أم يونس» بنظرة إنكار ، والتفتت إلى «الدكتور» ترمقه بمثل هذه النظرة ، ثم خرجت صامتة ...

فابتسم « الدكتور فهيم » وهو يقول : إنها امرأة سليمة الطويّة .

ــ ولكنها تضايقنى جدّ المضايقة .

ــ كيف ؟

ــ إنها تتدخل دائماً فيما لا يعنيها ، وتضع نفسها فى منزلة فوق منزلتها الحقة .

ــ يظهر أنها تخدم فى المنزل من زمن بعيد .

ــ إنى أراها منذ نشأتى .

ــ هى حاضنتك إذاً .

ــ إنها تشبه أن تكون كذلك ... ولقد كان المرحوم جدى يعوّل عليها فى كل شىء .

ــ المرحوم جدك ؟ !

ــ كنت أقيم معه فى « الإسكندرية » فلما توفىَ انتقلت إلى « القاهرة » مقرّ والدتى ...

ــ هل أقمت فى « الإسكندرية » مدة طويلة ؟

ــ حتى العاشرة من عمرى ...

ــ ووالدك ؟

ــ لم أره ...

ووجدتنى مندفعة أقصّ عليه تاريخ حياتى ، وكيف قضيتُ النشأة الأولى فى كَنَف جدى ، وكيف أعيش اليوم مع والدتى ، ورأيتنى أفضى إليه ببعض أسرارى فى غير كلفة ، وفى تحمُّس وحميّة ...

وأذكر أن عينى كثيراً ما اغرورقت بالدموع وأنا أروى له حكايتى ، فكان فى الفَيْنة بعد الفينة يمدّ يده إلىّ ، ويتناول يدى يلاطفها فى حنوّ بالغ ، ويقول وهو يرنو إلىّ فى إشفاق :

لا تيأسى ... تشجعى ... إن الدنيا ستبتسم لك لا محالة !

ووجدتُ « أم يونس » تقتحم علينا الحجرة ، فصحتُ وأنا ثائرة غضبى : ماذا تريدين ؟

فأجابتنى بوجه متجهّم : جئت آخذ فنجانة القهوة .

— خذيها .

وجعلت المرأة تتوانى فى أخذ الفنجانة ، على حين كان « الدكتور » ينظر إليها مبتسما ، ثم ألفيته ينهض قائلا : يظهر أنى قد أطلت زيارتى ...

— كلا ...

وهمهمت «أم يونس» فى مجاملة متكلفة : لقد شرّفتَ وآنستَ .

ثم انصرفتْ فى تلكؤ شديد ، ووقف « الدكتور فهيم » قبالتى يتوسمنى فى تودد ظاهر ، وقال :

اشكرلكِ حسْنَ لقائك إياى ، وأؤمّل أن تتاحَ لى رؤيتك . ولكن لا أدرى متى تسنح الفرصة ، ولا سيّما أنى مقبل على سفر ...

— سفر ؟

— سأرحل إلى « إنجلترا » للتخصص فى طبّ المناطق الحارّة ...

— متى ؟

— بعد أسبوع ... بعد شهر ... بعد سنة ... إنى منتظر صدور الأمر من الوزارة !

فتغشينا الصمت معاً ، ثم رأيته يمد يده لمصافحتى ، فمددت إليه يدى ، فقال وهو يمسك بها : ثقى أنى لن أنسى هذا اللقاء ... لن أنسى ما شعرت به من مسرة وائتناس !

خفضت من بصرى ، ووجدته يرفع يدى إلى فمه ، ويلثمها لثمة طويلة حارّة . فاختلج قلبى ، وسمعته يقول: أتسمحين لى بمراسلتك إذا رحلت ؟

فرفعت عينى إليه أقول : كما تشاء .

— سأوافيكِ من أخبارى بما تجدين فيه بعض التسلية ، وأنتظر منك — لقاء ذلك — أن توافينى ببعض أخبارك ...

— وهل تطول غيبتك ؟

— لا أعلم على الوجه التحقيق ... قد تكون الغيبة بضعة أشهر ...

ودنا منى أكثر من ذى قبل ، وقال لى :

ثقى بأن لك صديقاً مخلصاً تملأ نفسه الرغبة فى إسعادك ...

وتذكرت فى هذه اللحظة جملة « حمدى » التى ألقاها على مسمعى فى جلستنا الأخيرة ، إذ قال : « ألا تثقين بإخلاص شخص مثلى ؟ » .

ولكن سرعان ما تزايل شبحه الضامر الأعجف من مخيلتى ...

ووجدتنى أدنو من « الدكتور فهيم » وأنا أهمهم :

أشكر لك يا « دكتور » ... أشكر لك من أعماق قلبى ...

ودق جرس الباب فى هذه اللحظة ، فتركنا حجرة الزوار إلى الردهة ، فإذا « بأم يونس » تفتح الباب للطارق . ودخلت أمى ، فما إن لمحتنا حتى صاحت وعلى فمها ابتسامة مغتصبة : « الدكتور فهيم » ... «بونجور»

ـــ « بونجور » يا « هانم » ... لقد وجدت منديل « سلوى هانم » في السيارة أثناء عودتنا في الليل فجئت الآن به ... يؤسفني أني لم أسعد بوجودك حين حضرت .

ـــ أشكر لك ... أشكر لك .

ـــ والآن ... أتسمحين لي بالخروج ؟

ـــ ولم العجلة ؟

ـــ عليّ أن أمضي لبعض العيادات الضرورية .

ثم صافحها وانصرف ... وسألت والدتي « أم يونس » :

ماذا أمضى من الوقت هنا حضرة « الدكتور » ؟

فأخذت تدعك يديها ، وتقول : بضع دقائق ، لا أكثر ... !

ـــ بل قولي نصف ساعة ، أو قولي ساعة كاملة ...!

ـــ ساعة ؟ لا والله العظيم !

والتفتت إليّ والدتي وقالت : وهل بقيتما وحدكما ؟

ـــ نعم .

فنظرت والدتي إلى « أم يونس » وصاحت بها قائلة :

يقع ذلك وأنت في المنزل ؟؟

فقلت على الفور : وماذا في ذلك ؟

فرفعت أمي صوتها مهتاجة تقول : لا شيء ... لا شيء ... «الدكتور» المتعجل الذي لديه عيادات ضرورية ، يأتي لإحضار منديل لك ، فيمكث معك ساعة في حجرة واحدة ، وأنتما مختليان !

فلم أعر كلامها أي اهتمام ، وتركتها تتصايح . وسرت متمهلة الخطو أقصد إلى حجرتي ...

مرّ أسبوع لم يصل إليّ فيه أيّ نبإ يتعلق «بالدكتور فهيم» فنالتني حيرة ممضّة ، وهاجني قلق وضيق ، ولم أعد أكترث لشئون المنزل... أقضي يومي مملولة أروح وأجيء ، أو أجلس إلى النافذة شاردة النظر وإذا اشتدّ بي الضيق والملال قصدت إلى خوانِ الزينة وجعلت أصفّف شعري وأتعطّر ...

ودخلت أمي مرة حجرتي ، فرأتني أتزيّن ، فقالت :

اسمعي «ياسلوى» إنها آخر مرة أحذّرك فيها أن تأخذي شيئاً من أدوات زينتي ... أسامعة أنت ؟ هذه هي المرة الأخيرة ... سأغلق باب حجرتي بالمفتاح ، فلا أدَعكِ تدخلينها ...

فلم أجب ، وتابعت زينتي ... أما باب حجرتها فقد عهدته منذ وطئتْ قدمي هذا المنزل بلا مفتاح ، ولا أدري ما الذي يمنعها من طلَب النجار لإعداد مفتاح له ، ما دامت كثيرة الشكوى مني ومن «أم يونس» لاقتحامنا حجرتها في مغيبها ... وما لبثتْ أمي أن اعتدلت في وقفتها ، ووضعت يدها في خاصرتها ، وقالت وهي ناظرة إليّ :

حقاً ليس هناك من يضارعك جمالا ...

فظللت صامتة ، وأنا متشاغلة بزينتي ، وسمعتها تقول :

نسيت أن أخبرك بشيء ... شيء قد يهمّك .

فنظرت إليها في غير مبالاة ، متوقعة أن تدلي إليّ بهذا الخبر الذي زعمته مهمًّا عندي ، وتوهمتْه غريباً عليّ ... فقالت :

« الدكتور داود فهيم » سافر ...

— « الدكتور داود فهيم » ؟

— الحمد لله... لقد انفكتْ عقدة لسانك... إنه سافر إلى «أوربا» دون أن يفكر فى توديعنا ... أقصد توديعك !

— توديعى أنا ؟

— نعم ، أنت !

— ولِمَ يأتى لتوديعى؟

— ألستما صديقين ؟

— أرجو منك يا أمى أن تفضّى هذا المزاح .. ولكن من أخبرك بسفره ؟

— الأستاذ « رجائى » ... وقد ودّعه على ظهر الباخرة ...

— ومتى سافر ؟

. لقد أصبحتِ ثرثارة ... سافر منذ أيام .

ووقفت ساهمة ، وسمعت أمى تقول :

أنصح لك ألا تضيعى وقتك دائماً أمام المرآة !

وخرجتْ وهى تضحك ساخرة ...

فقذفت بالمشط الذى كان فى يدى ، ثم قصدت إلى النافذة واستندت إلى حافتها ، ورحتُ فى تفكير مضطرب !

وفى غد جاءتنى «الدادة شيرين» من قِبَل «سنية» تدعونى لزيارتها، فأمضيت اليوم على مألوف عادتى معها ... ولاحظت علىّ « سنية » صمتى وسهومى ، فذكرت لها أنى أشعر بتعب ... وقد هممت غير مرة بأن أروى لها حديث «السينما» وسهرة المرقص وزيارة الدكتور فهيم .

ولكنى لأمر ما لم أنبس بحرف ...

وفى اليوم التالى كنتُ فى حجرتى بعد الفراغ من تناول الغداء ، فسمعت جرس الباب يدق ، فهرعت لأفتحه . وكان الطارق الأستاذ « رجائى المحامى » فما إن رآنى حتى تهلل وجهه ، وقال :

أهلا وسهلا « سلوى هاشم » ... كيف أنت ؟

— بخير والحمد لله !

— إنى مسرور جداً برؤيتك ...

ودخل الردهة وهو يقول :

كل يوم تزدادين بهاء ... ما شاء الله !

وجلس على أحد المقاعد ، ووضع ساقاً على ساق ، وتابع حديثه :

أظنّ أن والدتك ليست هنا ...

— خرجت قبل الظهر .

فقال وهو يتلاعبُ بسلسلة ساعته :

إن الوقت ليس وقت زيارة حقاً ... ولكنى كنت أجوز بهذه الناحية اتفاقاً ، فرأيت من واجبى أن أعرّج على البيت زائراً ...

وكنت أسائل نفسى ، وأنا أختلس إليه النظر :

كيف راقنى هذا الرجل حين وقعتْ عينى عليه أول مرة ؟

وشعرت بأنى تسرعت فى الذهاب لفتح الباب ، وكان جديراً بى أن أدع ذلك « لأم يونس » ... ولكننى تذكرت أنها خرجت بعد الغداء لإنجاز بعض الشئون ... ومرّ بخاطرى حديث والدتى عن سفر « الدكتور فهيم » ، فنظرت إلى الأستاذ « رجائى » منتظرةً أن يفضى إلىّ بشىء ... وسمعته يقول: لقد أخبرتك قبلا أنَّ متاجر «الإسكندرية»

تفوق فى بضائعها متاجر « القاهرة » ...

وصمت لحظة، ثم دنا منى، وهمس فى أذنى قائلا: إن صديقك لم ينسك!

فاعترتنى هزة ، وتمتمت : صديقى ؟!

ورفعت إليه بصرى ، متطلعة متشوقة ، أتوقع أن يحدثنى فى شأن « الدكتور فهيم » فوجدته يخرج من جيبه علبة صغيرة ، ثم يقدمها إلىّ وهو يقول : لقد قلت لنفسى لا يليق بى أن أعود إلى « القاهرة » دون أن أجلب معى هدية بسيطة لصغيرتى « سلوى » ...

وخبت اللمعة التى أضاءت عينى ؛ وساءلت نفسى : لماذا اختارت «أم يونس» هذا الوقت تخرج فيه ، فأكون وحدى مع هذا الرجل ؟

ورأيت الأستاذ «رجائى» يفتح العلبة ، ويخرج منها خاتما ، وقد أمسك بيدى ، فوجدتنى أجذبها إلىّ ، فأمسك بها ثانياً ، وهو يحاول وضع الخاتم فى إصبعى، فقلت له : كلا ... كلا ... أشكر لك !

— ماذا ؟

— أشكر لك ... أشكر لك !

— لعل الخاتم لم يعجبك .

— إنه جميل جداً ... ولكن ...

— ولكن ؟ ... ماذا ؟ ...

— أمى ... قد لا يروقها قبولى إياه !

— ولم ؟ إنه هدية من صديق يقدركما ويضمر لكما كل إعزاز واحترام ...

ثم انحنى علىّ ، وقال مبتسما :

ومع ذلك ليس من الحتم أن تعرف والدتك شيئاً ...

واستطاع أن يضع الخاتم فى إصبعى ، على تمنُّع منى ، ثم حدق فى يدى وهو يقول : إن الخاتم قد عظمتْ قيمته ... إنه قد ازداد تألقاً فى هذه اليد الكريمة !

وأراد أن يرفع يدى إلى فمه ، فسمع حركة بالباب ، فتوقف ...

وفى هذه اللحظة دخلت « أم يونس » حاملة وعاء ، وكانت تحمل ملاءتها المتساقطة عن منكبيْها ، وتحدث نفسها قائلة :

العياذ بالله ... ليس هناك أثر للرحمة فى قلوب الناس ... لقد أصبح التجار لصوصاً ملعونين !

ووقع نظرها علىّ ، فقالت :

أأنت هنا ؟ أتصدقين أنهم لا يريدون بيع رطل السمن بأقل من خمسة وعشرين قرشاً ، مع أنى اشتريته منذ أيام بـ ...

ولمحتْ الأستاذ «رجائى» فى مقعده ، فأمسكت عن الكلام ، وأخذت تدقق النظر فيه ، وتقول : ومن هذا ؟

فقال الرجل : أنا « رجائى بك » .

فقالت له فى مجابهة : « الست » الكبيرة خرجت .

— أعلم ذلك ... بلغيها سلامى .

وخطا يخرج ، وهو يحييني تحية رقيقة ، فوجدتنى أصحبه حتى الباب ... فالتفت إلىَّ قائلا : لا تشقِّى على نفسك ...

ثم رأيته يهمس فى أذنى :

أليست بك رغبة فى الذهاب إلى « السينما » مرة أخرى ؟

فأجبت ساهمة : « السينما » ؟ ...

— هناك « أفلام » عظيمة فى هذا الأسبوع ...

ـــ أشكر لك ... ولـكن أخبرني ؟

ـــ ماذا ؟

وتوقفتُ عن الكلام هنيهة ، وأنا أدعك منديلي في يدى .

ثم قلت في تلعثم : « الدكتور فهيم » ... هل سافر ؟

فحدق فيّ الأستاذ « رجائي » لحظة ، وهو صامت ، ثم قال :

نعم سافر ... لقد ودعته على ظهر الباخرة ...

ثم انحنى عليّ ، وقال خافضَ الصوت :

سأختار لك « فلماً » رائعاً في هذا الأسبوع ... كوني على يقين من أني حريص على إبهاجك وإسعادك على الدوام !

وفي لمح البصر وجدتُني أنزع الخاتم من إصبعي ، وأعيده إلى علبته ، وما هي إلا أن ناولته إياها ، فنظر إليّ مبهوتاً ، فتراجعتُ مسرعة أقفل وراءه الباب ...

وما إن خطوتُ في الردهة خطوتين ، حتى واجهتْني « أم يونس » وسمعتها تقول :

أتريدين أن تسمعَني أمك شتائمها هذه المرة أيضاً ؟ !

فصحتُ بها : اتركيني وشأني ... لا تزعجيني بكلام فارغ !

وصعدت إلى حجرتي ، وأنا أشعر بالنار تتأجّج في رأسي ....

١٧

وتصرّمت الأيام ، وسألت عن الساعة التى يأتى فيها ساعى البريد إلى الحارة ، وأخذت أرقب مَقدَمه من نافذة حجرتى ، وكلما لمحته آتياً تتدلى على جنبه حفظته المنتفخة المفتوحة تكاد تتساقط منها حزم الرسائل ، أرانى قد تطلعت إليه ، وأشعر بقلبى يزداد خفوقه ، فيمر بمنزلنا لايلوى عليه ، وهو يمسح وجهه المكدود ، فينالنى أسف ممضّ .

وأحسّ بنفسى أحقد على ذلك الساعى الدميم ... ثم أغلق النافذة فى عنف ، وأطرح نفسى على السرير ساهمةً أفكر ! ...

وبينما أنا على هذه الحال ذات يوم تذكرتُ جملة أمى :

« إن الرجال أمهر خلق الله فى صناعة الكذب ! »

فانفرجتْ شفتاى فى حسرة ، وأسبلت جفنى ، واليأس يتسلل إلى قلبى !

أما الأستاذ « رجائى » فلم أعد أرى له ظلا ... على أنى دخلت مرة على أمى لأحييها تحية الصباح ، فلفت نظرى على الفور خاتم فى إصبعها ، وكان هو الخاتم الذى أراد الأستاذ « رجائى » إهداءه إلىّ ، فأبيت قبوله ... ورحت أدقق النظر فى الخاتم ، فقالت أمى :

إنه خاتم لطيف ، اشتريته منذ أيام قليلة من محلّ « زهّار » ...

فحدقت فيها وأنا أقول : حقاً . إنه خاتم لطيف ... مبارك !

وفى ذلك اليوم جاءتنى « الدادة شيرين» تدعونى أن أزور « سنية » ، فذهبت إليها ، وتلقتّْنى صديقتى بالباب ، وبالغتْ فى الترحيب بى ،

كشأنها معى ، وطفقت تغمرنى بقبلاتها التى لا ينضب لها معين ...

ولما دخلنا البهو ، رأيت فيه «حمدى» . فقالت «سنية» وهى تضحك :

لقد تفضّل اليوم بزيارتى !

وسمعته يغمغم : العفو ... العفو ...

وتقدم منى يصافحنى وهو صامت خافض البصر ، فإذا هو قد تقوّس ظهره ، وازداد سقماً ونحافة . فقلت له فى إشفاق : لقد طالت غيبتك !

— إن مشاغل الحياة كثيرة ، و ...

فقاطعته بقولى :

خلّ عنك ! ... إن مشاغل الحياة لا تعوقك عن زيارة الأصدقاء !

فحنا رأسه ، وأخذ يدعك يديه ، وقال : أو كذلك ... أو كذلك ...

ولم يزد . فمضت بنا «سنية» إلى حجرة الزوّار ، وخرجت تطلب لنا شراب الليمون ... وشاع الصمت بينى وبين «حمدى» وقتاً ، وكانت تبدو عليه علائم الحيرة والقلق ، على الرغم مما كان يتظاهر به من الهدوء . وطالما شعرت بأنه يرغب فى فضّ هذا الصمت الموصول ، فيخونه الإفصاح ... وأخيراً قلت له : إنى عاتبة عليك أشد عتاب ...

فرفع إلىّ بصره الزائغ ، وقال : تعتبين علىّ ؟ لماذا ؟

— أتذكر قولك فى آخر لقاء لنا ؟

— أذكر كلّ شىء !

— ولكنك لم تفعل شيئاً ...

فطأطأ رأسه ، وقال فى سهوم :

وماذا يستطيع شابّ محطم مثلى أن يقدمه لك ؟ !

— لقد قلت لى : إن المرء إذا أخلص النية وامتلأ قلبه بالإيمان

استطاع أن يفعل كثيراً ...

فانطلق يدعك يديه بشدة ، وهو يقول :

يظهر أن إخلاص النية والإيمان يُعوزهما شيء آخر ...

— وما هو هذا الشيء الآخر ؟

فتلفّت حواليْه زائغ البصر ، وقال فى حسرة :

أنا فتى محطم ... منكود الحظ ... لا فائدة ترْجَى من مثلى !

— وأنا ... هل أنا إلا محطمة منكودة الحظ مثلك ؟

فتطلع إلىّ بعينه الحائرة ، وقال : هذا شيء مؤلم ... مؤلم جدّ الإيلام ... أخبرينى ما الذى يجب علىّ أن أفعَله من أجلك ؟

فقلت خافضة البصر ساهمة : لا شيء ... لا شيء ...

فدنا منى ، وقد بدا عليه شيء من التحمس ، وقال :

يجب أن أراك ... يجب أن تُفْضِى إلىّ بمتاعبك كلها ... يجمُل أن أتحدث إليك طويلا فيا يجب عليك أن تعمليه ... قد أستطيع أن أقول لك شيئاً تجدين فيه نفعاً .

— إنى أثق بك يا « حمدى » ... أنت صديق مخلص .

— أتسمحين أزورك ؟

— ولم لا ؟ هذا شيء يسرنى !

— يسرّك حقاً ؟

— وكيف لا يسرنى ؟

فنظر إلىّ فى يقظة ، وعيناه متألقتان ، ولم يلبث أن قال :

متى أستطيع أن أزورك ؟

— فى أى وقت تشاء !

ـــ ألا تضربين لى موعدا ؟

ـــ تعالَ غداً .

ـــ غدا ؟... أجادة أنت ؟

ـــ كل الجدّ...

ـــ فى أية ساعة ؟

ـــ فى السادسة

ـــ سأحضر .

ـــ لا تنسَ أن تحضر معك صَفّارتك...

ـــ صفارتى ؟... أمازلتِ تذكرينها ؟

ـــ وهل ننسى صفارة « حمدى » ؟

ـــ صفارة الطفولة...

ـــ سنمضى وقتاً طيباً .

ـــ بلا شك...

ووجدت وجهه قد تورّد بِشراً وأنساً ، ومال علىّ يقول :
سأسمعك مقطوعات جديدة من تأليفى .

ـــ جميل جداً .

ودخلتْ علينا « سنية » فى هـــذه اللحظة بشراب الليمون ... فصَمَتنا . . . ولم نخبرها بشىء . ولما صافَحَنا « حمدى » مستأذناً ، ضغطت يده ضغطةً خاصّة ، فأجابنى بابتسامة !

وفى غدى أعددت العدة لاستقبال « حمدى » فنظفت حجرتى ورتبتها ، وارتديت ثوباً غير ثوب البيت ، وبدوت متعطرة حسنة الهنـــدام . . . ورغبت إلى « أم يونس » فى أن تطيِّب القلل

بالبخور ، وتعدّ شراب الليمون...

وحلت الساعة السادسة ، فمكثتُ أنتظر فى الردهة بجوار الباب .
وانقضى ربع ساعة ، فتململت فى جلستى ، وخرجت أتطلع إلى الطريق .
ولكنه كان مقفراً صامتاً كما هو شأنه ، فدخلتُ الردهة ثانيا ، وطفقت
أغدو وأروح ... ونظرت إلى ساعتى ، فإذا بالوقت منتصف السابعة .

فصحت « بأم يونس » : كم الساعة الآن ؟

فأجابتنى من أعماق المطهى : ستة ونصف يا بنتى .

ـــ ساعتك مختلّة... مختلّة ...!

وعدت إلى الباب أنتظر بجواره ... ماذا أبطأ « بحمدى » ؟ !

ووضعت ساعتى على أذنى ، فوجدت دقاتها منتظمة كدقات القلب
السليم ... أين « حمدى » ؟...

ربما كان قد أخره الترام ، أو ربما عاقه عن الحضور عائق هين !
وسمعتُ حركة فى الطريق ، فهرعت إلى الباب ، وفتحته . فوقع
بصرى على غلام حقير يعدو خلف قطة ويقذفها بحجر ، ودخلت وأنا
شديدة السّخط على هؤلاء الأطفال الهمَل المشرّدين الذين يقلقون
راحة السكان ، ولا يرحمون الحيوان الألوف الضعيف...

وحلت السابعة ولم يحضر « حمدى » . فهرولت إلى « أم يونس »
وقلت لها محتدة : لقد توّسل إلىّ أن أضرب له الموعد ... فما باله
لا يحضر ؟... أية وقاحة هذه ؟

فهزّت كتفها ... فاستأنفتُ أقول وما زلت مغْضبة اللهجة :

إنه فاقد الذوق ... لا أدرى لماذا رضيت أن يزورنى ؟

ودقّ الجرس فى هذه اللحظة ... وتواصلتْ دقاته . فخفق قلبى ،

وقلت « لأم يونس » : إنه هو ! ... عجّلي بإعداد القهوة ، وأحضري بعدها شراب الليمون ... وليكن كل شيء نظيفاً ...

جريتُ إلى الباب أفتحه ، فواجهني صبيّ في نحو العاشرة من عمره ، حافي القدمين ، على رأسه طربوش واسع يكاد يستر أذنيه ... وما إن وقع بصره عليّ ، حتى قال : سيدي « حمـــدي » مريض اليوم ، ولا يستطيع الحضور ، وهو يعتذر إليك ويبلغك أزكى السلام ...

وقد نطق بهذه الجملة الطويلة على التتابع في لهجة ثابتة ، كأنه في المدرسة يلقي قطعة من محفوظاته بين يدي معلمه ... فألقيت عليه نظرة متفحصة ، فبدا عليه القلق ، ورأيته يهمّ بالرجوع ، فمددتُ يدي إلى أذنه ، وشددته منها حتى أدخلته الردهة ، وأقفلت الباب ، ولم أعبأ بما أظهره من تمنع واستنكار ، ثم عركت أذنه ، وأنا أقول : سيدك «حمدي» ليس بمريض ، أعرف أنه ليس بمريض ... قل الحقّ ، ولا تكذب عليّ ...

فانطلق يقول : والله العظيم إنه مريض ... والله العظيم إنه مريض !

فقلت له في إشارة تهديد :

سأقتلع أذنك في يدي إذا أصررت على كذبك ...

وعركت أذنه عركة عنيفة ، فتلوّى الغلام متألماً ، وصاحَ مستغيثاً ...

فقلت له : اصدقني ... إنه ليس مريضاً ... أليس كذلك ؟

— حقاً إنه ليس بمريض والله العظيم !

فتركت أذنه ، فتراجع ينخرط في بكاء وشهيق . فدنوت منه ألاطف ظهره ، وأقول : يجب أن تكون صادقاً ... انتظر حتى أحضر لك كوباً من شراب الليمون .

فحملق فيّ الصبي وأخذ يمسح أنفه وعينيه ، فذهبت على الفور ،

وطلبت إلى «أم يونس» أن تناولنى كوباً من شراب الليمون ، فقالت :
هل حضر ؟

— كلا ... لم يحضر بعد ... ولكنى أطلب هذا الكوب لغلام فقير رأيته فى الطريق يستجدى ، فأدركتنى الشفقة عليه .

وذهبت بالكوب إلى الصبىّ ، فأفرغه فى فمه دفعة واحدة ، وأشرق فمه بابتسامة واضحة . فانحنيت عليه ، وهمست فى أذنه : إذا سألك سيدك «حمدى» فاحذَر أن تخبره بما وقع ... أفاهم أنت ؟

— فاهم ، والله العظيم !

وفتحتُ الباب ، فانطلق يعدو كما تعدو قطة نَفُور ... وقصدت إلى حجرتى ، فاستندت إلى حافة النافذة ، ورحت أفكر فى شأن «حمدى» ... حقاً لم يَعْدُ الحقيقة حين قال لى :

إنه فتى محطم لا فائدة تُرْجَى منه !

حقـًّا إنه لشخصية تافهة ، مضطربة ، ضعيفة ، لا تستحق منى إلا الإهمال ... فعلىّ أن أنساه ، وأن أنسى ما بدر منه !

وسرعان ما طاف بمخيِّلتى وجه «الدكتور داود فهيم» الذى يَفيض حيويَّة ورجولة ... وخُيِّل إلىّ أنى أسمع صوته وهو يقول لى :

أتسمحين لى بمراسلتك إذا رحلتِ ؟ سأوافيكِ من أخبارى بما تجدين فيه بعض التسلية .

وراعنى الصمت الذى يخيم حولى ، فأخذت أتطلَّع إلى الحارة ... شدَّ ماهى عابسة ! منازل قديمة بالية على وَشْك الانهيار ، أكثرها خلو من السكان تصفر فيه الرياح ... وهذا السكون الموحش الجاثم فوق الصدور ... شدَّ ماهو ثقيل خانق ! ... حتى الباعة الجوالون يضَنّون

بأصواتهم على تلك الحارة المُقفرة .

وتمثل لى فى هذا الوقت قصر « سنية » وحديقته الفيحاء ! ... يا الله ! ... ما أشدّ الصمت فى هذه الحارة ... ألا أسمع صوتاً واحداً يرنّ فيها ؟ إنى لأرحّب حتى بنباح الكلاب ! .

وتراءى لى خيال «حمدى» فى هذه اللحظة .. كأنه«موميا» فرعونية متدثّرة بلفائفها ، تترك تابوتها محنيّة الظهر ، وتنظر إلىّ بعينيها المفرَغتين!

وسمعت وقعَ خطوات ، فالتفتّ فإذا «بأم يونس» تدخل الحجرة حاملة سلطانية ملئت بشراب الليمون ، فصحت بها :

ماذا تريدين يا « أم يونس » ؟

ــ لقد أحضرت لكِ شراب الليمون لكى تذوقيه ... إنه كالشهد !

فجذبت السلطانية من يدها ، وقذفت بها فى الحارة ، فسمع لها دوىّ قوىّ وهى تتكسّر !

ونظرت إلى الشراب المنسكب على الأرض ، فخيِّل لى فى غَسَق الغروب ، أنه دماء تنشخب من جروح ، فغطّيت وجهى بيدى ، وارتميت على كتف « أم يونس » وقد غلبتنى نوبة نشيج وانتحاب ، كما يفعل الأطفال ! ...

١٨

تفقدت أمى فى اليوم التالى ، فلم أجد لها فى البيت ظلا ...

فقلت « لأم يونس » : إنها لم ترنا وجهها منذ يومين ... أين هى ؟

— العلم عند الله يا بنتى ... فقد تكون مدعوّة عند إحدى صواحبها !

وبعد هنيهة استأنفت تقول : ألا ترغبين فى الخروج ؟

— الخروج ؟ وأين تريدينى أن أذهب ؟

— تذهبين معى لزيارة ضريح «الست أم هاشم» ... ثم نقصد إلى الحاجّة « أم البشاير » ؟

— الحاجة « أم البشاير » ؟

— سيدة صالحة مبروكة ، وأنا أعرفها من عهد بعيد ...

وهبطت علىّ فكرة جريئة على حين فجأة ! ...

فصمت هنيهة ، ثم قلت : أمعتزمة أنت الخروج حقاً ؟

— قبيلَ العصر ، بعد الفراغ من أعمال المنزل ... وأنت ؟ ألا تصاحبيننى ؟

— كان ذلك بودّى ، ولكننى أشعر بتعب ، وأوثِرُ الراحة .

— ما هذا الكسل ؟ ... إن زيارة « أهل البيت » مفيدة لك .

— لا أستطيع يا « أم يونس » ... اذهبى وحدك !

وقضيت فى حجرتى وقتاً ، وقد استبدّتْ بى تلك الفكرة الجريئة ... يجب أن أنفـــذها ... يجب أن أردّ الإهانة التى لحقتنى من ذلك «الشخص» ... يجب أن أفهمه أننى لست ألعوبة فى يده ، وأن شخصيتى

أقوى من شخصيته ، وأعز مكانة !

وما كادت «أم يونس» تغادر المنزل ، حتى قصدتُ إلى حجرة أمى ، وجعلتُ أفتّش فى صوان ملابسها ، وأعرض ما فيه ثوباً ثوباً ، وسرعان ما استقرّ اختيارى على ثوب وردىّ وحذاء أحمر وملاءة بلدية وبرقع ، ورحت أرتدى حلّتى الجديدة ، ثم تزينت وتعطرت مسرفةً فى ذلك كل الإسراف . غير مشفقة على ما حواه صِوان أمى من حقاق وقوارير !

ووقفتُ أمام المرآة أتأمّل نفسى ، ثم ابتسمت ...

وتركت المنزل وقلبى موصول الخفوق !

كانتْ هذه هى المرة الأولى التى أخرج فيها وحدى ، فجمعت شجاعتى ، وركبتُ السيّارة الحافلة إلى « ميدان فريدة » . وما كدت أمشى إلى محطة « الترام » ، حتى رأيت رجلا يقترب منى ، وهو يقول :

تبارك الخلاق !

وأقبل آخر بعد ذلك ، وقال فى جرأة عجيبة :

أأحضر مركبة يا « هانم » ؟

ولما دنا « ترام الجيزة » وهممتُ أن أركب فيه ، سمعتُ همساً

ولماذا أنت متعجلة ؟

اتخذتُ مقعدى فى مقصورة السيدات وأنا أبتسم عابثة ، وكان ركوب « ترام الجيزة » أمراً يكاد يكون مألوفاً لدىّ ، فقد طال ركوبى إياه إلى منزل « سنية » مع « الدادة شيرين » .

ولم يكن بالمقصورة غيرى ، ولكن ما إن وقف «الترام» فى المحطة الأولى فى « شارع فؤاد » ، حتى صعدتْ سيدة بَدينة مترهّلة الجسم ،

وجلستْ على المقعد أمامى ، فملأته كله ... وضايقنى وجودها ؛ إذ كنت أوثر أن أخلو إلى نفسى ... ورأيتها تحدّق فىّ بين فترة وأخرى ، وتمضغ اللبان فى خلاعة ، فحوّلت وجهى عنها ، ونظرت من النافذة .

وبعد قليل سمعتها تقول : أليس هذا « ترام الجيزة » ؟

فالتفتّ إليها ، وقلت على عجل : نعم هو « ترام الجيزة » !

ثم أشحت بوجهى عنها ، أنظر من النافذة ، وكنت أسمع تنفسها وصرير فمها وهى تمضغ اللبان ...

وانقضت فترة دون أن تتوانى عن المضغ لحظة ، وكدت أقول لها : دعى اللبان حيناً ؛ فإن مضغك إياه يثير أعصابى ...

وسمعتها تقول : وحضرتك ذاهبة إلى « الجيزة » ؟

فالتفت إليها ، وقلت : نعم ...

— حضرتك نازلة فى محطة « الجيزة » ؟

فجعلت أحد من بصرى هنيهة ، ثم غمغمت :

قد أنزل فيها ، وقد أنزل قبلها .

وغضضت الطرف عنها ، وانثنيت أنظر من النافذة ، ولا أعير وجود المرأة التفاتاً ، وكان حنقى عليها يمنعنى أن أخلو إلى تفكيرى ، ولكن على الرغم من ذلك كنت أسائل نفسى أحياناً : هل أخطأت بخروجى ؟ هل أصبت ؟ لماذا أكون قد أخطأت ؟ فيم الخطأ ؟ أمسلوبة الحرية أنا حتى أعد خروجى للنزهة إلى « الأهرام » جريمة ؟ يجب أن تكون لى إرادة ... يجب أن أنفذ ما أرغب فى تنفيذه لا أنقاد لسلطان أحد !.

وكنت أسمع دائماً مضغ اللبان وفرقعته ، فيخيَّل إلىّ أن هذه السيدة تقصد بعملها هذا أن تضايقنى وتثير غضبى .

وأخيراً رأيتها تترك « الترام » فى المحطة القريبة من طريق « انبابه » فحمدت الله على انصرافها ، وأرحت نفسى على المقعد ، وانطلق « الترام » يخترق طريق « العجوزة » وكان الهواء لطيفاً منعشاً ... ثم اقتربنا من « الجيزة » ، فعاودنى شيء من الخوف ، إذ خشيت أن يصادفنى أحد من معارف « سنية » أو أتباعها ، فيضايقنى بأسئلته ، ولكننى تشجعت ، ونزلت من « ترام الجيزة » أستأنف الركوب فى « ترام الأهرام » ، وما إن اندفع فى الطريق يلتهمه حتى بدا لى سخف الأوهام التى هاجمتنى !

ماذا يهمنى من أمر الناس ؟ لا شأن لأحد بى ، ولا سلطان لإنسان علىّ !

وهذا الفتى الضامر الأعجف سأكيل له الصاع صاعين . هذه « المومياء » الكريهة المنظر سأفهمها حقيقة أمرها ، وسأضعها فى الموضع الذى تستحقه !

وكانت المروج الفسيحة والمغانى الأنيقة على جانبى الطريق يعبرها ناظرى فى عجلة ، والهواء يهبّ على وجهى قوياً فأستقبله فى شغف شديد ...

وأخيراً بلغنا ساحة « الأهرام » فتركت « الترام » وسرت بخطوات مترددة ، وأنا أتطلع دائماً حولى ، وملكتنى الحيرة ، وخطر ببالى أن أعود أدراجى ، ووقفت لا أدرى ما أفعل ؟ ومرّ بى غلام من بائعى شراب « الغازوزة » ينادى مشيداً بشرابه ، وأقبل يعرض علىّ بضاعته ، وانبرى يغرينى ما وسعه الإغراء ، فطلبت منه زجاجة ، فما أسرع أن نزع سدادتها فى خفة ولباقة ، وناولنى الزجاجة ، فوقفت أشرب ...

ووجدتنى أندفع مسائلة ذلك البائع : أمن أهل هذه الناحية أنت ؟

— نعم .

— أتعرف سكانها ؟

— كلهم عملائى ... أوافيهم بكل ما يطلبون ... إنى لست بائع « غازوزة » فقط يا « هانم » !

فقلتُ فى شىء من التلعثم : أتعرف منزل « حمدى أفندى » ؟

ففكرَ لحظة ، ثم قال : « حمدى أفندى » الطويل النحيف ؟

— نعم .

— معلّم الموسيقى ؟

— هو عينه ...

— ليس منزله ببعيد ... انظرى ... هناك على مقربة من هذه القرية ... اتخذى أولا الطريق المعبّد ، ثم انحدرى منه ، واسلكى الطريق الأعفَر ...

فشكرتُ له ، ثم جرعتُ بضع جرعات على عجل من زجاجة «الغازوزة» وما هى إلا أن مضيتُ حيث دلّنى البائع ، ولم أضلّ الطريق ... ووجدت المنزل فى البقعة التى أشار إليها ، فإذا به منزل حقير تتقدّمه حديقة صغيرة لا يحوطها سِياج .. ووقفت محجمة متهيبة ؛ وخالط أذنى فى هذه اللحظة صفير « ناى » منبعث من المنزل ، فوقفت برهة أنظر ماذا أفعل ؟ واسترسل «الناى» فى لحنه ، وكانت نغمته تنطوى على أسىً دفين ، نغمة ساذجة رخيصة تصل إلى أعماق القلوب .

وعاودنى التردّد ، وطاف برأسى شبح « حمدى » ينظر إلىّ بعينيه الذابلتين الحائرتين ، وهو يهمهم :

أنا فتى محطم منكود الحظ ، لا فائدة ترجى من مثلى !

ووجدتنى أخترق الحديقة على مهل ، وصفير « الناى» يجتذبنى إلى الباب . ووقفت تجاهه أتسمّع ... ثم أخذت أقرع الباب . وقلبى

خافق رَفّاف ، وفتح باب المنزل ، فإذا بى أمام «حمدى» وجها لوجه ، فأخذ يحدّق فىّ دهشا ، ثم قال : من تطلبين ياسيدتى ؟

فقلت له على الفور وأنا جاهدة فى أن أغيّر نبرات صوتى :

أطلب الأستاذ « حمدى » معلم الموسيقى .

ـــ أنا « حمدى » ... أية خدمة تبغينَ ؟

فاندفعتُ أقول : أريد أن تعلمنى أغنية ...

فحدّق فىّ مبهوتاً ، وغمغم : أغنية ؟ ... أغنية ؟ ...

ـــ الأغنية التى كنت تعزفها اللحظة على « الناى » ...

ثم ما عتمتُ أن خلعتُ برقعى وأنا أتضاحك ، فنظر إلىّ «حمدى» فى اضطراب ، وقد تضرّج وجهه ، وسمعته يلوك هذه الكلمات فى فه :

من ؟ ... من ؟ ... « سلوى » !

ـــ لقد جازتْ عليكَ اللعبة ، وهذا ما رغبت فيه ...

واسترسلتُ فى ضحكى ، فرأيت وجهه قد تجهّم . فنظرت إليه وقلت : أعلى هذا النحو تستقبل ضيفك ؟

فأقبل علىّ وهو يدعك يديه ، ويقول : تفضلى ... تفضلى !

وبعد أن سكت لحظة ، قال : لماذا أخفيت نفسك عنى !

ـــ لأنى أردت أن تكون مفاجأة ، فأخطأت فى تقديرى ...

ـــ كلا ، لم تخطىء فى تقديرك قط ... ولكن ...

واقترب منى وهو ينظر إلىّ فى اهتياج ، ثم أمسك بيدى قلقاً حيران ، وشفتاه تختلجان بلا كلام ...

وسمعته يقول خافت الصوت : هذه الملاءة ... هذه الملاءة !

ثم تزايلتْ الكلمات على فه ... فقلت له مبتسمة :

أ أعجبتْك هذه الملاءة ؟

فضغط يدى، وانفرج فمه الهزيل عن ابتسامة ملؤها الرجاء والتعطف.

ثم قال فى صوت ضعيف : لا ريب أنك متعبة ... المنزل بعيد عن محطة « الترام » ... تعالى اجلسى ... تعالى !

وأسرع يبحث عن مقعد يصلح لأن أجلس عليه ...

وكان البهو مهوش الأثاث : « بيان » قديم مهدّم ، وبعض مقاعد متربة تتجمع عليهـــا كومات من الصحف والدفاتر والأوراق التى تحوى خطوط الأدوار الموسيقية .

ورأيته يقلب مقعداً ليخليه مما عليه . ثم انهال عليه بمنديله ينظفه وقدمه إلىّ ، فجلست عليه ، واندفع بعد ذلك محاولا أن ينظم ما يشتمل عليه البهو : يرفع كومات ويضع كومات ، يقلب مقعداً ويقيم آخر . ولـكنه مع ذلك كله وجد البهو قد ازداد اضطرابا . وألفى التراب يعقـد فى جوّه سحباً قاتمة ، فوقف حائراً يتصبّب منه العرق جزافا ، وقد اكتسى شعره الأشعث وملابسـه المهملة بطبقة كـدْراء .

فقلت له وأنا أسعل : دع عنك هذا ... أتراني غريبة تتكلف لى ؟ اجلس ، لا تجهد نفسك . أنضيع الوقت فى مثل هذا ؟ لقـــد خرجت متنزهة إلى « الأهرام » ، وتذكرت أنك تسكن غير بعيد منها ، فعرّجت عليك أزورك ، لأسأل عن صحتك ...

فغضّ من بصره ، وهو يقول :

أشكر لك يا « سلوى » ... أشكر لك !

— سأتركك بعد دقائق .

فرفع رأسه ، وقال : لماذا لا تمكثين وقتاً أطول ؟

ـــ لا تنس يا « حمدى » أن الطريق طويل ، ويجب أن أعود إلى المنزل قبل غيوب الشمس .

ـــ إن غيوب الشمس غير قريب ... أخبريني أيّهما تؤثرين : شراب البرتقال أم عصير الليمون ؟

ـــ قلت لك لا تتعب نفسك .

ـــ أقدم لك أولا قهوة .

ـــ أرأيتني أشرب القهوة يا « حمدى » من قبل ؟

ـــ لا تردّى مطالبي ... دعيني أقدم لك شيئا ... برتقالا مثلا ... برتقالا جنيًّا من حديقتي ...

ـــ أفى حديقتك شجر برتقال ؟

ـــ ألم تريه ؟

ـــ لم ألاحظ وجوده فى الحديقة ... إذن نذهب إليه .

وقمت نخلعت الملاءة ، وهو يختلس النظر إلى ثيابي : أهى ثيابك ؟

ـــ أفى ذلك شكّ ؟

ـــ إنها بديعة ... بديعة جداً .

فطفقت أضحك وأنا أقول : لقد سمعت إطراء كثيراً من غيرك !

ـــ ممّن ؟

ـــ من رجل عابثني بجوار محطة « الترام » ، وآخرين فى الطريق .

ـــ عفواً . . . أنا لم أقصد . . .

وانكفأ على يديه يدعكهما بشدة ، فقلت له :

إطراؤك يحمل معنى آخر ، معنى نبيلا بالطبع !

ـــ أشكر لك .

وخرجنا إلى الحديقة ، وزلّت قدمي أثناء السير ، فانخلع حذائي ، فأسرع «حمدي» يلتقطه ، ثم ساعدني على احتذائه ، وهو يتأمله طويلا ، ثم قال : أعابثك أحدٌ غير هذا الرجل ؟

— كثيرون ... تبارك الخلاق — أأحضر مركبة يا «هانم» ؟ لماذا أنت متعجّلة ؟ ... إلى كثير من أمثال هذا الكلام !

وانطلقت أضحك وأنا أقول :

الرجال كلهم ملعونون يا «حمدي» ... والمعذرة ... لاتؤاخذني !

— لن تعودي وحدكِ يا «سلوى» ... سأرافقك إلى المنزل .

— خلِّ عنك .

— هيهات !

وصحبني إلى شجرة البرتقال ، وكان فيها قليل من ثمرات يانعة ، فقال لي «حمدي» وهو يشير إلى الشجرة :

إني أفخر باحتيازي إياها ... لقد انتهى موسم البرتقال ، ولكن شجرتي ما فتئت محتفظةً ببعض الثمار ... هذه ميزتها !

فاجتنيت برتقالة ، وبدأت أقشرها ، ثم أمسكت عن العمل فجأة ، وقلت : لقد نسيت أن أغسل البرتقالة بالماء والصابون .

— ماذا ؟

— يجب غسل الفاكهة قبل أكلها بالماء والصابون .

— من أين لك هذه الآراء ؟

— ألا تعلم يا «حمدي» أن مرض «التيفوئيد» منتشر الآن في «مصر» وأن العدوى به من الطعام الملوّث ؟

— ولكن هذه البرتقالة ليست ملوّثة ... أؤكد ذلك لكِ !

— كيف تؤكد لى ذلك ؟ أنستطيع أن ترى « البكتيريا » بالعين المجردة ؟

— « البكتيريا » ؟ !

— أجل « البكتيريا » . الطفيليات . الميكروبات » الجراثيم !

— حقاً لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ! ... ولكن كيف انتهت إليك هذه المعلومات ؟

— أوَ حسبتنى جاهلة ؟

— عفوَك ... عفوك !

وما هى إلا أن أجهزتُ على البرتقالة قضما ، حتى فرغت منها ... فما أسرع أن اجتنى « حمدى » لى برتقالة أخرى ، فبدأت أقشرها ، وأنا أقول : لم أكن أقدّر أن برتقال حديقتك يبلغ هذا المبلغ من الحلاوة !

— أأعجبَك حقاً ؟

— كل الإعجاب ...

— سأجتنى لك طائفة منه .

— لا ... لا

— لماذا ؟

— لأنى لا أريد .

وتبادلنا الابتسام ، ودرت حولى بعينىّ أنظر فى زروع الحديقة ومسالكها ، فراقتنى سذاجتها وخلوّها من التنسيق ... وصافح وجهى فى هذه اللحظة نسيم عليل يحمل فى تضاعيفه طيِّب الأريج ، فغمغمت:
إنى أغبطكَ على مقامكَ فى هذه البقعة يا « حمدى » !
— أتروقك هذه الحياة ؟

— ولم لا ؟ بيت لطيف ، وحديقة مثمرة ، وهواء طيّب ...
ولكن أخبرنى : ألا تشعر بالسآمة من وحدتك ؟ .

فابتسم وهو يداعب عوداً يابساً ، وقال :

السآمة أمر لا بد منه ، ولكنى أكافحها بالعمل .

— أتعمل طويلا من الوقت ؟

— أعمل ما أمكنتنى صحتى من العمل ...

وناولتُه فصّا من البرتقال ، فراح يتأمله برهة ، ثم شرع يأكله على رِسْله ، ورفع بصره إلىّ قائلا :

احزرى ... من يزرع هذه الحديقة ويُعنَى بنباتها !

— الخادم الذى عندك .

— إنه لا يعرف كيف يشق عوداً من الورد !

— لديك إذن بستانىّ .

— أنا نفسى البستانى !

— أنت البستانى ! ... عهدناكَ موسيقيّاً تقضى وقتك أمام «البيان» ، أو فى صُحْبَةِ «الناى» !

— وهل تجدين اختلافاً بين البستانىّ والموسيقىّ !

— أليس بينهما اختلاف ؟

— إن لكل نبات من هذه النباتات التى ترينها حولنا ألحاناً خاصة به ، فالورد يترنم بألحان غير التى يترنم بها الفلّ ، وللفل أنشودة تختلف عن أنشودة شجرة البرتقال !

فحدّقت فيه طويلا ، ثم قلت بسّامة الثغر :
ما زلتَ فيلسوفاً كما عهدناكَ ...

وأشار إلى شجرة « توت » هرمة وهو يقول :

ـــ احزرى ... ما اسم هذه الشجرة !

ـــ أوَلها اسم ؟

ـــ « الحاج مسرور » ...

ـــ أحقاً سميتها « الحاج مسرور » ؟ ما أطيب قلبك !

ـــ بل قولى ما أطيب قلب « الحاج مسرور » ... لقد كان يحبنا أصفى حب .

ـــ إن الماضى يعمرُ جانباً كبيراً من قلبك !

ـــ إذا فصلتِ بينى وبين الماضى يا « سلوى » لم يصبحْ لى وجود .

ـــ ولكن ألا تذكر قولك لى : يجب ألا يركن المرء إلى الماضى ، بل عليه أن يتطلع دائما إلى المستقبل !

نعم ، أذكر ... وقد يكون هذا سرّ شقوتى !

وسرنا بخطوات وئيدة إلى شجرة « الحاج مسرور » ، وكنت قد فرغت من أكل البرتقالة . وأردت أن أمسح يدى ، فلم أجد منديلا معى ، فأخرج «حمدى» منديله من جيبه ، وقال وهو يبتسم فى استحياء :

أتسمحين لى أن أمسح يديك بمنديلى ؟

فمددت إليه يدىّ ، فأخذهما بين يديه ، وجعل يمسحهما فى عناية وتلطف ، ويطيل النظر إليهما . فقلت :

لقد أصبح منديلك غير صالح للاستعمال !

ـــ وكيف خطر لك أنى سأستعمله ؟

..... سترميه إذن ؟ !

ـــ بل سأحتفظ به كما هو تذكارا لهذه الزيارة .

وتبادلنا النظرات ، ونحن صامتان ... ثم مضينا نجوس خلال الحديقة جنباً إلى جنب ، ونعاود السير فى مسالكها دون نظام ... ولبثنا فى جيئة وذهوب ، نحيد هنا ونعرّج هناك ، يخيّم علينا الصمت ، و « حمدى » يبعث فى عرض الأفق شواردَ النظرات !

وأخيراً دنونا من الباب ، فوقفت قائلة : لقدحان موعد أوبَتى !

— أوبتك ؟

وعلا بهامته إلىّ ، كأنه صحا من سبات عميق .

ثم أردف قائلا : لا يمكن أن يكون ذلك !

— أخشى أن يدركنى الليل ...

فأمسك عن الكلام برهة ، وهو قلق حيران .

ثم قال : أؤمل إذن أن أحظى بزورات أخر .

ولم يكد يتمّ جملته . حتى رأيت وجهه قد اكفهرّ ، وساد حركاته الارتباك ، وظلّ وقتاً كأنما يؤامر نفسه ...

وأخيراً أخذ بيدى فى تذلل ومسكنة ، وقال فى صوت مختنق :
أرجو ألا تكونى حاقدةً علىّ لما بدرَ منى أمس ...

فلاطفت يده بلا كلام ، فتابع قوله : كنت فى حالة نفسية ...

فقاطعته قائلا : لا تلقِ إلى ذلك بالا .

فشدّ على يدى شدّاً عصبيّاً ، وقال محتجا : ماأنبلَ قلبك يا « سلوى »

— إلى الملتقى .

— سأرافقكِ حتى البيت .

— كلا ... كلا ... أخشى أن يرانا أحد فى الطريق ، ولا سيما معارف « سنية »

— ولكن كيف تعودين وحدك ؟

فابتسمتْ قائلة : كما جئت وحدى ؟

— وهؤلاء الأوغاد الذين يضايقونكِ فى الطريق ؟

— إن نظرة واحدة منى كفيلة بأن تعيدهم إلى صوابهم ، وتقفهم عند حدّ الأدب .

وتذكرت أنى نسيتُ الملاءة ، فصرخت : ولكن ... الملاءة ؟

— سأحضرها لكِ فورا .

وجرى إلى الدار ، فغاب فيها لحظة ، ثم عاد يحمل الملاءة ، وأعاننى على ارتدائها ، ثم وقف يتأملنى صامتاً ...

وبعد لحظات قال : إذن أصاحبك إلى محطة « الترام » .

— لا بأس .

وانطلقنا نسير ، وكان الطريق فى أوله أعفرَ غير ممهّد ، فأسرع « حمدى » يمدّ إلىّ ذراعه ، فاستندتُ إليها شاكرة ، وسرنا وأنسام الأصيل تهبّ علينا مزاجا من جفاف الصحراء ورطوبة المساء !

وانبرى « حمدى » يحدثنى كيف يحيا ؟ وماذا يعمل ؟ وروى لى حوادث فكهة مما يجرى بينه وبين تلاميذه . كان يتحدّث طلق المحيا ، ذلق اللسان فى ألفة لم أعهدها فيه من قبل ... ووصلنا إلى المحطة ، وكان « الترام » فى الانتظار ، فمددتُ يدى إلى « حمدى » أصافحه ، فتناولها بين يديه ، واستبقاها وقتاً وهو يرنو إلىّ بعين حَسْرى .

ونفخ عامل « الترام » فى صفّارته ، فهز « حمدى » يدى ، ثم أطلقها وهو يبتسم ابتسامة كاسفة دون أن ينبس بحرف . وصعدتُ فى العربة ، وتحرك « الترام » وأنا ألوّح « لحمدى » بيدى ... أما هو فكان يحدق

فنّ ، والابتسامة الكاسفة على فمه تطبع محيّاه بطابع الحزن والتحسّر

وشهدتُ معي في العربة بعض الركاب من الأجانب ، مضوا يتحدثون في اهتمام ، ويشيرون في الفينة بعد الفينة إلى «الأهرام» وإلى معالم الطريق وانسرحتُ أنا أفكر في «حمدي» وما هو عليه من شذوذ ، وما يعانيه من متاعب الحياة ... مسكين هذا الشاب ! شد ما هو طيّب النفس ، نقيّ السريرة ! ... إنه في حاجة إلى من يرعاه بقلب شفيق .

وكان «الترام» ينتهب الطريق ، والمغاني تمر سراعاً في غسق الغروب كأنها الأشباح ؛ ووجدتني أسائل نفسي : هل المغاني في «لندن» على غرار هذه المغاني ؟ وهل تجرى الحياة هنالك كما تجرى هنا الحياة؟ وكيف يعيش «الدكتور داود فهيم» في بلاد الإنجليز ؟

وبلغ «الترام» «ميـــدان «فريدة» فتركته قاصدةً على التوّ إلى منزلي في السيارة الحافلة . وما كدت أتخطّى عتبة الباب ، حتى رأيتُ «أم يونس» أمامي فرمقتني بنظرة متجهمة ، وهي تتفحّصني طويلا ، وسمعتها تقول في لهجة دمدمة وتأنيب :

تلبسين ثياب أمك ، وتخرجين وحدك ؟ ... عرفت الآن لماذا لم ترغبي في الخروج معي لزيارة ضريح «الست أم هاشم» ؟ !

فوضعت يدي في خاصرتي ، وقلت : أنا حرة أفعل ما أريد !

فقالت ، وقد اضطرمت عيناها ، وكأنهما داميتان من فرط الاحمرار : أين كنت ؟

... كنت حيث كنت !

وأدبرت عنها ، فإذا هي تجتذب الملاءة قائلة :

إني أسألك أين كنت ؟

فدفعتها عنى وأنا أقول : ألا تكفين عن هذيانك ؟

وكادت المرأة تسقط ، لولا أنها لاذت بمقعد قريب فاستندت إليه ، وشعرتُ بأنى أسأت تصرفى معها ، وإن كانت هى قد تجاوزت الحدّ...

فأمسكتُ عن السير ، وقلت لها فى لهجة لا تخلو من رفق :

إنك تخرجينني عن حلمى بتدخّلك فيما لا يعنيك .

فأجابتنى مهورة الأنفاس :

تدخّلى فيما لا يعنينى ؟ ... أهذا هو جزاء جهدى فى خدمتك ورعاية شأنك ؟ لو عرفت كيف قضيتُ الوقتَ وأنا ذاهبة العقل أترقب أوبتَك فى حيرة وتململ ، لما تفوّهتِ بمثل هذا الكلام ...

— أنت تتعبين نفسك فيما لا جَدْوَى منه !

— ألا تخبريننى أين كنتِ ؟

— وإذا لم أخبرك ؟

— أتضرّع إليك أن تقولى أين ذهبت ؟

ورأيتها تنظر إلىّ بعينين شَرِقَتَيْن بالدمع ، فقلت :

كان بى ضجر ، فخرجت إلى الطريق ، وركبت «الترام» إلى «الهرم».

— وحدك ؟!

— أجل ، وحدى ... أفى ذلك ضير ؟ ... لست طفلة ... إننى فى سن تخوّلنى أن أفعل ما أريد .

فدمدمتْ فى حسرة :

— كلا يا «سلوى» . بل أنتِ فى سنّ توجب عليك الحذر الشديد!

وأخذت بيدى ، فمضت بى إلى حجرتى فى صمت ...

١٩

تعاقبت أيام لم يحدث فيها شيء غير مألوف ..

أما أمي فقد جهلت زيارتي «لحمدي»، وكنت واثقة أن «أم يونس» لن تبوح لها بشيء مها كان ... وقدمت « الدادة شيرين » تدعوني من قِبَل « سنية » إلى زيارتها على مألوف العادة، فاستجبت لها .

وما إن استقبلتني صديقتي في بيتها ، حتى ساقتني إلى حجرتها ، وهي تهمس في أذني : سأريك شيئاً ...

وقامت إلى الباب تغلقه ، ثم ذهبت بي إلى خزانة كتبها ، وفتحت درجاً أخرجت منه لفيفةً من الرسائل ... وبعد أن فكّت وثاقها استلّت منها رسالة وهي تقول :

إنها آخر رسالة وردتني من «شريف»... ألا أقرؤها عليك ؟

ــ يسرني ذلك كل السرور .

وجلسنا على الأرض بجوار الخزانة ، واللفيفة في حجر « سنية » وجعلت صديقتي تقرأ الرسالة ، ولم يكن بها شيء ذو غرابة : بُدئت بتحية مألوفة ، وخُتمت بقبلة رسمّية ... ولكن الذي راقني فيها بعض أوصاف للحياة في « فرنسا » ... فقلت لها :

ألا يقصّ عليك « شريف » أنباء أشخاص هنالك ؟

ــ قلما يفعل .

ــ ألم يتعرف إلى أشخاص جدد مرّوا «بفرنسا» من أعضاء البعثات الحكومية ؟

ــ لم يخبرني في هذا الشأن بكثير أو قليل .

ثم نظرت إلىّ ، وقالت ووجهها يلتمع بشاشة وبشرا :
ما رأيك فى الرسالة ؟ لطيفة غاية اللطف ، أليست كذلك ؟
— ولا سيما هذه القبلة الختامية !
فابتسمت ابتسامة ساطعة ، ثم احتضنتنى ، وهى تقول :
ثق أن حبى إياه لا يقلّ عن حبّه إياى .
فلاطفتُها ، وأنا أقول :
أهنئك يا « سنية » ... ومتى يعود إلى « مصر » ؟
— لا علم لى ... ولكنى سمعت من « مدموازيل شانتل » أنه لا يغيب طويلا .
فجمّشت خدّها ، وقلت : وموعد الزواج ؟
فولّت عنى ، وهى تقول : دعينا من ذلك !
وأعادت الرسالة إلى اللفيفة ، ثم أودعتها مكانها من خزانة الكتب وما هى إلا أن وجدتنى أميل على « سنية » أقول لها هامسة :
لدىّ سر أريد أن أفضى به إليك ...
فاحتضنتنى ، وأرهفت لى السمع ، فقلت :
لقد دعانى « حمدى » إلى زيارته .
— متى ؟
— منذ أيام ...
— وهل لبّيت دعوته ؟
— لقد ألحّ علىّ ، فلم أملك لدعوته رفضاً .
— وهل صحبتك أمك فى هذه الزيارة ؟
— أمى ... إنها تجهل الأمر كله !

— ومن تَصحبك إذن ؟ ... « أم يونس » ؟

— كلا . .

— أذهبت وحدَكِ ؟

— ولم لا أفعل ؟

وأقبلت علىّ « سنية » تنظر إلىّ محدقة فى عجَب وإكبار فتابعتُ قولى : هذا زمن الحرية !

ورأيت عينىْ صديقتى تلتمعان ، وضغطتْ يدى ، وهى تقول :

وماذا فعلتِ هناك ؟

— تنزهنا حول « الأهرام » ، ثم دعانى إلى تناول الشاى فى أحد النوادى .

— أتناولت معه الشاى فى النادى ؟

فملتُ عليها وهَمست : ودخّنت لفافة تبغ !

فسمعتُ شهْقتَها وهى تقول : لفافة ؟ ... يا لك من جريئة !

— اسمعى ... اسمعى ... إننى لم أتمّ لك ما جرى ...

— قولى ...

— وعندما أرخى الظلام سدوله ، وكاد النادى يخلو من روّاده ، رأيتُ « حمدى » يدْنى وجهه من وجهى ، ثم اغتصب قبلة منى !

فغطّتْ « سنية » وجهها بيديها ، وهمهمت : أوَ قبّلك ؟

ولم تلبث أن انفجرت ضاحكة ، وأقبلت تغدق علىّ القبلات !

ولما حان موعد انصرافى ، نزلتُ إلى البهو مع « سنية » فلمحت أباها « الزهيرى باشا » جالساً فى ركن يطالع الصحف ويدخّن ...

فوقفت أقول « لسنية » : لمَ تخبرينى بأنه موجود !

— وهل كنت أعلم أنه عاد من الضيعة ؟

وشعر « الباشا » بمكاننا منه ، فالتفت نحونا ، فلم أر بدّاً من أن أقبل عليه أحيّيه ... وأذكر أنى لم ألتق به منذ أكثر من عام ... فسرت إليه متهيّبة ، على حين أنه أخذ يتفحّصنى بعينيه الحادّتين ذواتى الأهداب الغزار ... ثم ابتسم ، وقال وهو يمدّ يده إلىّ :

ها أنت ذى يا « سلوى » ... كيف حالك ؟

فقبّلت يده وأنا أقول : بخير يا عمى .

— أمنصرفة أنت ؟

— عائدة إلى منزلى .

— مع من ؟

— مع « الدادة شيرين »

ورأيته يطيل النظر إلى وجهى ... وسمعت « سنية » تقول : إن « الدادة شيرين » تركب معها « الترام » وترافقها حتى المنزل .

فقال « الباشا » لابنته :

وكيف تدعينها تركب « الترام » ؟ أليس عندنا سيارة ؟

فغمغمت « سنية » :

المعذرة ... لم أكن أعلم أن السيارة غير مشغولة !

وخرجت مع « سنية » وركبت السيارة إلى المنزل فى صحبة « الدادة » حقاً لم أكن أتوقع أن يشملنى « الزهيرى باشا » بهذا العطف ولقد راعتنى منه نظرته اللامعة التى تماثل نظرة الأبطال فى أساطير الأوّلين ! .

وفى ضحوة غد التقيت بأمى غبّ الفطور ، فجلست معها ساعة

نتجاذب أطراف الأحاديث . وسألتنى كيف قضيتُ يومى فى منزل « سنية » ، فرويت لها نُتفاً من أخبارى ...

ثم قلت لها فى ختام الحديث : وقد رأيت « الباشا » !

— « الباشا » ؟

— وحييته ، فردّ تحيتى أحسن رد ، وتلطف بى أكرم تلطف ...

— هذا عجيب !

— عجيب ؟ لماذا ؟ إنه دائماً يعاملنى معاملة كريمة .

— معاملة كريمة ! إنه يعـدّنا من بعض أتباعه !

— أتباعه !

— أجل ... ولـكن لـكلّ امرىء كرامته ، ولـكل امرىء مكانته فى نفسه ... لن يستطيع ذلك «الباشا» أن يشترينا بماله !

ونهضت هى إلى حجرتها ، فقمت على الأثر إلى حجرتى ، وقد ملأ رأسى التفكير فيما تحدثت به أمى إلىّ .

وما إن استقر بى المقام ، حتى رأيت « أم يونس » تدخل الحجرة فى تباطؤ ، وهى تقلب رسالةً فى يدها ، فقلت : ما هذه ؟

فأجابتنى ، وعيناها تحـدّقان فى الرسالة :

لقد أعطانيها ساعى البريد ، وأخبرنى أنها تخـصّك .

فما إن طرقت سمعى هذه الـكلمات ، حتى اختطفت الرسالة من يدها فقالت مهتاجة : ماذا ؟ لابد أن هذه الرسالة لأحد غيرك ... لقد قلت لساعى البريد إن «سلوى» لم يسبق أن تلقّت رسائل من أحد ...

ولمحت طابع البريد الإنجليزى ، فرفرف قلبى ، وأخذت أدفع « أم يونس » إلى الباب ، وأنا أقول : إنها لى ... لاريب فى أنها لى .

فوقفت المرأة تقول : إذن أخبريني ممن جاءتك ؟

فحدجتها بنظرة حادة ، ثم غمغمت : إنها من « سنية » .

— « سنية » ؟ لقد كنت عندها أمس ! فضِّى الغلاف وانظرى ،

— قلت لك إنهـــا من « سنية » وكَفَى ! انصرفى عنى الآن ، وسأخبرك بعد بما فيها .

وخرجت المرأة تتسخَّط ، وأقفلت الباب خلفها ، وجعلت أطيل النظر إلى الرسالة ، وكأن بين جنبىَّ طائراً يهفو ... ثم فضضت الرسالة وطفقت أقرأ :

« حضرة الآنسة المهذبة سلوى شوقى :

أستميحك العذر من تقصيرى فى موافاتك برسائلى وَفْقَ وعدى إياك ... كثيراً ما هممتُ أن أكتبَ إليك ، وطالما شرعتُ أسطر جملا وكلمات . ولكنى ما أعتم أن أحجم بعد إقدام ، وأنهال على الورق أمزقه شرَّ ممزق ... كيف أبيح لنفسى مراسلة فتاة لم أرها إلا مرتين ؟ أيَّة الموضوعات هى التى يجب ألا أتعدَّاها فى الكتابة والتسطير؟ على أنى قررتُ أخيراً أن أبعث إليك بهذه الرسالة مهما يكن من أمر .

لا أريد أن أتحدث إليك فى شأنى ، فأوافيك ببعض أنبائى كما أسلفت لك وعدى ، ولكنى أريد أن أخصَّك بهذه الأسطر ... إيذنى لى أن أكون صريحاً : إن المرتين اللتين لقيتُك فيهما كشَفَتا لى جانباً من حياتك ، واستطعتُ أن ألمح ما يحيط بك من خير ومن شرّ ، وتوضحتْ لى بعض همومك وآلامك ... ولقد وجدتنى مهتمًّا بهذا كله أشدّ اهتمام ، راجياً أن أكون بجانبك فى متاعب الحياة ، عوناً لك على أن تجتازى مراحلها الأولى بسلام ... والآن ، وبيننا شقة بعيدة ، كأنى بكِ تقولين :

ماذا تستطيع أن تقدمَ لى ؟ حقاً ليس فى طوقى أن أقدم لك شيئاً كبير النفع . ولـكنى على أية حال أرجو أن تعدّينى نصيراً صادق الرغبة فى خدمتك ، ولن يخيبَ ظنـُّك فىّ إذا عوّلت علىّ .

وأبعث إليك فى الختام بتحيات عطرة ، وإلى الملتقى فى الرسالة الآتية ؟

المخلص : داود فهيم

استدراك : « لم أكتب لك عنوانى ، لأنى لم يستقر بى المقام بعد فى المسكن المنشود » .

وجعلت أتلو الرسالة ، أبدىء فيها وأعيد ... وكلما أتممتها انسرحت مفكرة أكتنه مدلولها ، وأفسّر لنفسى ما يخفى علىّ من معانيها ... إنه يشير إلى ما يحوطنى من خير ومن شر ، وإلى همومى وآمالى ، وإلى رجائه أن يكون عوناً لى ... كل هذا حسن ، ولـكن ... ولـكنه لم يوضح لى شيئاً معيناً : ما هو نوع العون الذى يبذله من أجلى ؟ وكيف أعوّل عليه وهو لم يخبرنى متى يعود ؟ ... وتحيته الأخيرة ؟ ما كان أقلها من تحية !

ورأيت الباب ينفتح فى بطء ، ثم أطلّ رأس « أم يونس » فقلت لها : ادخلى .

فدخلتْ ، وهى لا تحيدُ ببصرها عن الرسالة ، فجذبتها من ذراعها ، وذهبت بها إلى النافذة ، ثم قلت لها : ليست الرسالة من « سنية » .

ـــ كنتُ أعلم ذلك .

فأمسكت عن الـكلام لحظة ، ثم قلت :

أتذكرين شخصاً يُدعَى « الدكتور داود فهيم » !

فراحت المرأة تفكر ، ثم قالت :

« الدكتور داود فهيم » ! ... « الدكتور داود فهيم » ! .. أظنه الشاب

الذى حضر لزيارتك منذ شهر . وقدمت له القهوة فى حجرة الزوّار ..

— إنه هو عينه ...

— أهو صاحب الرسالة ؟

— بعث بها إلىّ من « لندن » .

— وما « لندن » هذه !

— من بلاد الإنجليز !

— أوَ سافر إلى بلاد الإنجليز !

— بعثته الحكومة فى أمر مهمّ .

— وماذا قال لكِ فى الرسالة ؟

— يقول إنه ... إنه يهتم بحياتى ومستقبلى ، ويكرّر هذا القول .

— وماذا أيضاً !

— وإنه يفكر دائماً فىّ ، وقد مزّق عشرات الأوراق قبل أن يخط رسالته إلىّ ...

— يظهر انه يضمر لك عاطفة طيّبة .

— لم يصرّح لى بشىء .

— وبماذا ستجيبينه ؟ !

— لا أكتب له الآنَ شيئاً ... لم يرسل إلىّ عنوانه بعد .

— أنصَح لك ألا تتبسطى معه فى الكلام ... نحن لا نعرف من شأنه إلا القليل ، ولم نفطن إلى سريرته .

— إنه يطلب إلىّ أن أعوّل عليه لأنه صادق الرغبة فى خدمتى .

— حسناً ... حسناً ... عدينى بأنك إذا كتبت له شيئاً فإنك قبل إرساله إليه تطلعينى عليه .

— أعدك بذلك!

وقبلتها وقبلتني ...

واتفقت معها على أن يكون هذا الأمر بيننا سراً جد مكتوم.

ولقد أسلمتني هذه الرسالة إلى تفكير حائر استغرق وقتي أجمع، فكنت دائماً أعيد قراءتها، وأحمل جملها ما تحتمل من وجوه المعاني وضروب التأويل ... ولما جن الليل، قصدت إلى نافذة حجرتي، فجلست بجوارها، وأرسلت طرفي في الفضاء الحالك، والرسالة في يدي لا تفارقني ... وقضيت هزيعاً من الليل وأنا غارقة في أحلامي. وكانت تتراءى لي في هذه الأحلام صورة «الدكتور فهيم» في أشكال متعددة، ولكن وجهه لم يكن يتغير، ذلك الوجه الهادىء القسمات الذي يحمل طابع الرجولة الحقة ... كانت عيناه ترنوان إلى في عطف وعذوبة، وفمه يهمس في صوت خافت:

أما زلت تشكين في إخلاصي؟ أما زلت تتجاهلين عاطفتي نحوك؟

فكنت أهب من نومي، فأدني الرسالة من عيني، وعلى ضوء المصباح الشحيح الذي ينير حجرتي، كنت أقرأ: «كثيراً ما هممت أن أكتب إليك، وطالما شرعت أسطر جملا وكلمات، ولكني ما أعتم أن أحجم بعد إقدام، وأنهال على الورق أمزقه شر ممزق»، فأنحي الرسالة عن مرمى عيني، ثم أراني قد ابتسمت، وماهي إلا أن أهيم في أودية الأحلام، وشبح «الدكتور فهيم» يتوضح في مخيلتي يملأ آفاقها ...

٢٠

استيقظت من النوم فى غدى متكاسلة ، وقد متّع النهار .

وما كدت أفتح عينى حتى رأيت «أم يونس» تدخل الحجرة، وبيدها رسالة تقلبها بين يديها ، فقفزت من فراشى ، وأخذت الرسالة منها ، فقالت : أفى كل يوم رسالة من بلاد الإنجليز ؟ ... ما هذا ؟

وتبيّنت الرسالةَ على عجَل ، فألفيتها تحمل طابع البريد المصرى فقلت «لأم يونس» وأنا أدفعها نحو الباب بلطف :

سأخبرك بكل ما فيها .. دعينى الآن حتى أقرأها بسلام .

وأقفلت باب الحجرة ، وجعلت أقلّب الرسالة وقتاً فى يدى ، وأنا أستطلع الخطّ ... لمن يا ترى ؟ .

وأخيراً فضضت الغلاف ، فإذا الرسالة من «حمدى» ... وقرأت :

عزيزتى سلوى :

أجزل الشكر لك على زيارتك اللطيفة ، حقًّا كنتِ كريمةً معى، طيبةَ القلب نحوى ... لقد أشعرتنى بسعادة أجدُ نفسى عاجزاً عن وصفها وإن أطلت القول ... هذا دين لك عندى ، فهل أستطيع يوماً أن أوفّيك إياه ؟ ... على شفتى كلام كثير أريد أن أفضى به إليك، وإن بعضه ليزحم بعضا ، فبأى شىء أبدأ ؟ أريد أن أتحدث إليك مشافهة ، فمتى نلتقى ؟ سأزورك يوم الأربعاء فى الساعة العاشرة صباحاً.

أرجو أن يروقكِ هذا الموعد ، وأن تكونى راضية عنى ... وأبلّغك أزكى تحيّة .

صديقك الوفىّ : **حمدى**

ملاحظة : « إنى محتفظ بالمنديل الذى مسحت به يدك فى صندوق صغير من خشب الصندل ، وسأظل محتفظاً به ، تذكاراً لا يعدله عندى تذكار آخر فى هذا الوجود ... » .

ووضعتُ الرسالة على خوان الزينة ، ووقفت أفكر ... مسكين هذا الفتى ! ما أطيبَ قلبهَ ! ... شدَّ ما تحزننى حاله فى فقره الشريف

ودخلت علىَّ فى هذه اللحظة « أم يونس » مستطلعة ، فقلت لها :

إن الرسالة من « حمدى » ، إنه يرغب فى زيارتى .

— يرغب فى زيارتك ؟ يفعل كما فعل فى المرة السابقة ؟ !

— إنه يعتذر اعتذاراً بالغاً ، لقد كان مريضاً لا يستطيع خروجا . وسيحضر يوم « الاربعاء » ، غداً ...

— غداً ؟ ... إن هذه الزيارة غير مقبولة على أيَّة حال .

— لماذا ؟ إنه صديق الطفولة ، أما أخلاقه ...

— أعرف أنه ولد طيب .. ولكن يجب إخبار أمك مهما يكن من أمر .

— اتركى هذا لى .

وكان الصباح ... ورأيت « أم يونس » فى البهو ، فما كادت تلمحنى حتى هرعتْ إلىَّ ، وقالت وقد نسيتْ أن تحيينى تحية الإصباح :

هل أخبرتِ أمك بأن « حمدى » يزورك اليوم ؟

— إنها لم تستيقظ من نومها بعد ... قد يأتى « حمدى » وتنتهى زيارته ، وأمى ما تزال تغطُّ فى نومها .

— وإذا استيقظت وهو موجود ؟

— لا تلقِ لهذا الأمر بالا .

وانتظرت «حمدى» فى البهو بالقرب من الباب ، وحلّت العاشرة ، ومرّ بعدها ربع ساعة ، ولكن «حمدى» لم يحضر ... وقمت أروح وأغدو فى البهو ، وأنا أقرض أظفارى ... ومر عقرب الساعة بمنتصف الحادية عشرة ، ورأيت «أم يونس» آتيةً تستطلع الخبر ، فصحت بها:

اذهبى عنى الآن ... لا أريد أن أرى أحداً ...

واقتربت الساعة من الحادية عشرة ، فانطلقت أدمدم :

ولد قليل الأدب ، مجرّد من الذوق !

وقصدت إلى حجرتى ، فوجدت «أم يونس» جالسةً تحتسى قهوتها ، فنظرت إليها متعجّبة ، فقالت :

هل يسوءك أن أشرب القهوة فى حجرتك ؟

- افعلى ما تريدين .

وجلست على المقعد بجوار النافذة ، وأسندت رأسى إلى قبضة يدى وخيّم الصمت وقتا ، ثم سمعت «أم يونس» تقول كأنها تحدّث نفسها ، وهى تصب القهوة فى القدح :

لو كنت مكانك لما اهتممت بالأمر أىّ اهتمام .

فصحت : أمهتمّة أنا بالأمر ؟ من قال لك ذلك ؟

وأرسلت ضحكةً مشوّهة ، وتركت مقعدى ، وأخذت أتغنّى ، ثم فتحت صوَان مَلابسى ، وجعلت أقلب ما يحتويه ... وسمعت «أم يونس» تتكلم فى لهجتها السابقة ، وقدح القهوة فى يدها :

لماذا لا تأتى «الدادة شيرين» فتأخذك اليوم إلى «سفنية» ؟...

وكنت على وَشْك أن أثور عليها ، ولكننى لم أفعل ، وجعلت أراجع قولها فيما بينى وبين نفسى... حقا ، لماذا لا تأتى «الدادة شيرين»

فتأخذنى إلى « سنية » ؟ إنى فى حاجة ملحّة إلى أن أروّح عن نفسى !

وعدتُ إلى النافذة ، فأسندتُ رأسى إلى يدى ، وأرسلتُ بصرى فى الحارة ، ومضيت أفكر فى اضطراب ... إن « سنية » لا ترسل إلىّ « الدادة شيرين » إلا إذا رغبتْ هى فى رؤيتى ، أما أنا فمحرَّم علىّ أن أزورها من تلقاء نفسى ... أليستْ والدتى على حقّ إذ قالت إنهم يَعدّوننا من الأتباع ؟ ... نحن دائماً رَهْن الطلب !

وقمت إلى صوان ملابسى ، وبدأت أهيىء نفسى للخروج ، فقالت « أم يونس » : ماذا أنت فاعلة ؟

— سأذهب إلى « سنية ».

— إلى « سنيـة » ؟

— فى مسألة مهمّـة ... كنت قد نسيتها .

— ولـكن « الدادة شيرين » لم تحضر ...

— ومالى و « للدادة شيرين » ؟ هذا أمر يخصـّنى لا يخصها .

واتجهت نحو الباب ، فقالت لى « أم يونس » : إذن أذهب معك

— تذهبين معى ؟ ومن يجهـّز طعام اليوم ؟

وخرجت من باب الحجرة ، ورحت أثب على الدَّرَج مسرعة ، فسمعت « أم يونس » تقول :

وإذا سألتـْنى عنك أمك ، فماذا أنا قائلة لها ؟

فتلبثت فى مَهبطى قليلا ، ثم رفعت رأسى إليها ، وقلت :

أخبريها بأن « الدادة شيرين » جاءت فصحبـَتـْنى إلى منزل « سنية »

بلغت بيتَ الصديقة دون أن يقع أمر غير مألوف ، وكان لركوب « الترام » واختلاف المناظر أمام عينى أثر طيـّب ، فقد هدّأ شيئاً من

ثائرة نفسى ... دخلت على « سنية » فى حجرتها ، فألفيتها تتلقّ درساً فى اللغة الفرنسية مع « مدموازيل شانتل » ... ورفعت المربية رأسها ، ورمقتنى بنظرة نكراء من خلف منظارها ، وما أسرع أن قالت :

إن « سنية » مشغولة الآن ، فأرجو أن تنتظريها حتى تفرغ من الدرس ...

ونظرت إلىّ « سنية » نظرة استرضاء لا تخلو من دهشة، ثم عادت إلى كتابها تقرأ فيه و« المدموازيل» تستمع إليها . فخرجت وأنا أغمغم :

المعذرة ... لم أكن أعلم .

وذهبت إلى الردهة ، وأخذت أتفرّج بالصورة المعلقة على الحائط ، فلما وقفت أتطلع إليها بدت لى كأنها جديدة لم تعلق إلا اليوم ، وعجبت من نفسى كيف زرت البيت غير مرة ولم ألتفت إلى هذه الصور كأنى أجهل وجودها على الحائط ؟ ! ... ولبثت أنظر إلى صورة تمثّل هجوم عصبة من لصوص البحر على فُرْضة آمنة مطمئنة ، وكانت جموع اللصوص تدوس الأطفال فى طريقها ، وتحمل السبايا من النساء وكأنهن متاع

ولاحظت شبهاً غريباً بين صورة كبير اللصوص البحريين وبين « الزهيرى باشا » ... أليست عيناهما متماثلتين فى الوهج وغزارة الأهداب ؟ وهذا الشارب الغزير ، أيستطيع أحد أن يجد فرقاً بينه وبين شارب « الباشا » والد « سنية » وكان كبير اللصوص البحريين يصدر أوامره إلى أتباعه . وقبالته امرأة بارعة الجمال تكاد تكون عارية ، وهى راكعة تتضرّع إليه ... فأطلت وقفتى أمام هذه الصورة وأنا مأخوذة بروعتها ودقة رسمها ، وخيّل إلىّ أن شفتى كبير اللصوص تتحركان ، وتوهمت أنى أسمعه يصيح بأحد أتباعه ، فسرت الرّجفة فى

أوصالى ، واستدرت حولى أتبيَّن مكانى ، فإذا بى أرى «الزهيرى باشا» خارجا من إحدى الحجر ، وهو يخاطب « شفيق أفندى » كاتب الدائرة فى حدّة وعنف ، وانكمشت فى موقفى ، فمرّ بى ولم يرنى ، وخرج مع الكاتب إلى الحديقة ، ومكثت حيث أنا وقلبى مازال دائب الخفوق . ثم عدت إلى تجوالى فى الردهة أنقّل العين بين الصور ، ولكنى كنت أعود دائما إلى صورة « لصوص البحر » فأقف أمامها أتأملها ...

وكان السكون يخيّم على المنزل ، لا تسمع فيه إلا أصداء ضعيفة تنبعث من أماكن الخدم البعيدة . ولم أر أثراً « للدادة شيرين » ... كيف لا تسرع إلىّ تحيّينى ؟ . وأحسست انقباضا . ورفعت بصرى إلى ساعة الحائط ، فتبيّن لى أنى قضيت فى الردهة وحدى قرابة ساعة . لماذا لا أعود إلى منزلى ؟ . واتجهت مسرعةً إلى الباب فإذا بى أرى « الزهيرى باشا » داخلا ، مقطّب الوجه ، يحمل فى يده إضبارة أوراق ، فأخليت له الطريق ، فما إن رآنى حتى انبسطت أسارير وجهه ، وحيّانى فى رقة ، ثم قال وهو يلاطف خدّى : لم أعلم أنك هنا ... متى أتيتِ ؟

— منذ ... منذ برهة !

— وهل رأيتِ « سنية » ؟

— رأيتها مع « مدموازيل شانتل » تتلقّى درسها .

— ولماذا لم تبقْ معها ؟

— لم أرد أن أقطعَ عليها درسها ، لقد أتيت لشأن تافه .

— وأين أنت ذاهبة الآن ؟

— عائدة إلى المنزل .

ورأيت « الزهيرى باشا » يصيح بصوت عال منادياً « سنية » ،

فقلت له : لماذا تستدعيها ؟

ـــ انتظرى قليلا !

وانبعث ينادى ابنته فى صوت أشد وأعنف من ذى قبل .

وشاهدت « سنية » تهرع نازلة الدرَج ملبّية النداء ، فما إن رآها « الباشا » حتى قال لها فى لهجة جافية : أمن اللائق أن تهملى صديقتك ؟

فقلت : أؤكد لك ياعمى أنها لم تهملنى قط !

وتكلمت «سنية» خافضة الرأس تقول :

إن «مدموازيل شانتل» حتّمت علىّ أن أؤدّى التمرين تحت إشرافها .

وقال « الباشا » جافىَ اللهجة كما كان : أىّ تمرين ! ؟ اصعدى إلى «المدموازيل» فأخبريها أن الدرس انتهى ، وعودى من فورك إلى «سلوى»

فقلت فى تلعثُم : ولكنى ... ولكنى منصرفة الآن .

وصَعِدتْ « سنية » ... ونظر إلىّ « الباشا » يقول :

لقد حان موعد الغداء ... ألا تتناولين معنا الطعام ؟

فأطرقت حائرة ، فأتم كلامه قائلا : سنأ كل معاً .

فرفعتُ بصرى إليه ، وقد داخَلنى التعجب ... لم يسبق أن تناول « الزهيرى باشا » معنا الطعام ... وسمعته يقول مبتسما :

قد لا يروقك مجلسى ، ولكنى لست كريها على نحو ما تتصوّرين !

ففتحت فمى أريد الكلام ، ولكنى لم ألفظ حرفاً . ومضى «الباشا» يضحك ضحكته المتزنة ، وقال وقد رأى « سنية » عائدة تجرى :

اذهبا إلى الحديقة حتى ندعوكما !

وخرجنا إلى الحديقة ، وانطلقنا نسير فى مَمشَاها الكبير .

وقالت « سنية » : لقد ثارت بى الدهشة حين رأيتُكِ !

ــ لم تتوقعى أن أحضر !

فقالت فى لهجة ساذجة وهى تبتسم :

إن « الدادة شيرين » لم تذهب إليكِ كالعادة .

فقلت لها : لقد حضرت لأسألكِ عن شىء .

ــ تسألينى عن شىء !

ــ أرغب فى رؤية أغطية وسائدك . إن التطريز يعجبنى جدا ، وأريد أن أنقل رسمه .

ــ لتطرّزى أغطية وسائدك على مثاله ؟

ــ نعم !

ــ إذن تعالى معى لأريك إياها .

ــ أمامنا فسحة من الوقت !

وتابعنا سيرنا فى الحديقة ، فمررنا بشجرة برتقال محملة بالثمر ، فوقفت أمامها أتأملها صامتة ، ثم تركناها ومشينا .

وقلت « لسنية » : لم يزرك «حمدى» بعد!

ــ كلا !

ــ ألم تلاحظى عليه أنه تغير كثيراً عن ذى قبل ؟

ــ حقاً تغــيّر .

ــ إنه دائماً عَبوس صموت !

ــ لقد اصطلح عليه الفقر والمرض معاً !

ــ ولـكنه لا يبذُل جهدا فى علاج مرضه أو الخلاص من فقره . إنه يترك نفسه نُهبَى للأقدار تذهب به كل مذهب ! ... إنه فتى خامل النفس ، راقد الهمّــة ...

واستدرنا ، ثم سرنا متجهين إلى المنزل . ومرت بنا فترة صمت .

وقلت « لسنية » وأنا أحدّق أمامي : اسمعى يا « سنية » !

— ماذا ؟

— لا تبعثى إلىّ منذ اليوم « الدادة شيرين » لتدعونى .

فتوقفت «سنية» ترنو إلىّ ، وهى تقول :

لا أبعث بها إليك ؟ لماذا ؟

— سأحضر من تلقاء نفسى !

— لا أفهم ماذا تقصدين ؟

— كيف لا تفهمين ؟ قلت لكِ إنى سأزورك كلما واتتنى الفرصة وتيسّر لى الحضور ...

— لعلّ شيئاً قد ساءك !

— ما أعجبَ أمرك ! ... لماذا تظنّين أن بى استياء ؟

— ذلك ما أحسبُه !

وأخذت «سنية» يدى تلاطفها، وقالت وقد تابعنا سيرنا : ولكن أخشى إذا لم نبعث إليك « بالدادة شيرين » أن تطيلى عناغيبتك .

— اطمئنى، فستكون زياراتى متقاربة .

— والآن ... أتريدين أن أريك أغطية الوسائد ؟

— أمامنا فسحة من الوقت !

وما كدنا نقترب من الباب،حتى رأينا « الدادة شيرين » تقبل علينا وهى تقول : سيدى « الباشا » ينتظركما فى حجرة الأكل .

فبادرت «سنية» بقولها : وهل سيأكل معنا ؟

فقالت « الدادة » : هو و « مدموازيل شانتل » !

فالتفتت إلىّ « سنية » وقالت : ولكن ... أظن الأفضل ...

فقلت لها هامسة على الأثر : هل الأفضل أن نظل دائماً أطفالا ؟

وجذبتها من يدها ، فمضينا ندخل الدار ...

كانت حجرة الأكل من أفخم حُجَر المنزل . أثاثها على أحدث طراز مغطاة جُدْرانها بورق مزخرف تشَيع فيه الخضرة الدّكناء ، وقد أحيط الشّطر الأسفل من جدران الحجرة بوزرَة من الخشب المُذهَب . ولا أذكر أني دخلتها إلا مرة واحدة ، ولكني لم أتناول فيها الطعام قط ... دخلت وأنا أتلفّت حولي ، وكان الضوء فيها غير ساطع ، فلم يقع بصري في الحجرة على أحد . وألقيت نظرة على الخوَان فوجدت صحفة ً مملوءة بتماثيلَ لأفانينَ من الفاكهة كبيرة الحجوم .

فقلت لـ «سنية» : نأكل كل هذه الفاكهة؟

وأرسلت ضحكة عالية ، فسمعت صوت « الباشا » يقول :

سنقدم لك من الفاكهة الجنيّة ما هو أطيب منها !

فالتفتُّ صوبَ الصوت ، فألفيت « الباشا » ينظر إلىّ باسم الثغر ، وتلاقت نظراتنا ، وطالعني على الفور وجه «كبير اللصوص البحريين» فخفضت من بصري ، وقلت متلعثمة :

عفوا ... لم أكن أظن أنك هنا ياعمي ... !

— اجلسي ! اجلسي ! لا حَرجَ عليك ...

وكان مجلسنا على هذا الترتيب : «الباشا» في الصدر ، وأنا عن يمينه ، و « سنية » عن شماله ، و « مدموازيل شانتل » قُبالته ، ولم أكن قد أحسستُ قدومها ، ولكني رأيتها فجأة تحتل مقعدها ، وبدأ الطعام ، وكانت «مدموازيل شانتل» أشبه بالدُمية التي تتحرك باللولب ، تتجلى

الصلابة فى كل حركاتها، تحمل وجه مشنوق ، لا تلفظ الكلمة إلا بشق النفس ، فلم أعر وجودها أى اهتمام ، وأقبلت أصغى إلى «الباشا» وقد مضى يحدثنا حديثاً لطيفاً يصف به عهد حداثته حين كان يماثلنا فى السن ، ويشرح لنا مكايده فى معاملته للناس . وعرّج فى حديثه على الريف ، فروى لنا بعض نوادره مع الفلاحين ، وجعل يصوّر لنا الحياة فى القرى أجمل تصوير ... والحق أنى قضيت وقتى فى هذه الجلسة هانئة مُمتّعة ، وما كنت أحسب أن « الباشا » على هذا النحو من الإيناس وعذوبة الحديث . ووجدتنى أترك نفسى على سجيّتها ، ولاحظت أنى أسرفت فى الضحك ، وحانت منى التفاتة إلى «مدموازيل شانتل» فرأيت علائم الاشمئزاز مرتسمة على وجهها بوضوح ، فحولت بصرى إلى « الباشا » فوجدته يبتسم إلىّ فى لطف بالغ ، وكأنه يشجّعنى على الاسترسال فى الضحك ، غير مبالية بتلك « المدموازيل » العَبوس !

وقد أكثرت من الطعام فى شهيّة . وكان «الباشا» هو الذى يضع الطعام بيده فى صحفتى . وقبل انتهاء الأكل استأذنت « مدموازيل شانتل » فى الانصراف ، فرأيت « سنية » تتبعها النظرَ فى حيرة .

وسمعتها تغمغم : إنها لم تأكل الفاكهة !

فقال «الباشا» بلا مبالاة : سنرسلها إليها فى حجرتها، فهى تفضل ذلك.

وجعل يستأنف حديثه ... وبعد أن أكلنا الفاكهة أحضروا القهوة «للباشا» فأخذ يحتسيها على مَهَل . وقد انطلق يدخّن، ورأيته يستغرق فى التفكير برهة . ثم التفت إلى « سنية » قائلا :

ألاحظ أنك متعبة هذه الأيام يبدو على وجهك ذبول وهزال ... أنت محتاجة إلى الراحة . لقد فكرت فى إرسالك إلى الضيعة .

فقالت « سنية » كأنها تكذّب أذنها : إلى الضيعة ؟ !

— تقضين هناك نحو أسبوع ... أحسب أنكِ لايطيب لكِ المقام هناك إلا إذا صَحِبَتْكِ « سلوى » .

والتفت إلىّ على الفور يقول : مارأيك ؟ أسبوع فى الضيعة مع « سنية » ، تركبان الحمير ، وتتنزهان فى الحقول ، وتصطادان السمك... ولاتنسَىْ أن هناك حديقة فيّاحة تجريان فيها ماطاب لكما الجرى .

وصفّقت « سنية » مبتاجة تقول: الضيعة . « سلوى ». الحقول...

وقامت إلى أبيها تعانقه ، وقال «الباشا» : ولكن مارأى «سلوى» ؟

فقلت وقلبي يشتدّ وجيبه : لابدّ أولا أن أستأذنَ والدتى .

فقال «الباشا» : قولى لها إن «سنية» تدعوك لقضاء أسبوع فى الريف.

وكان ينفُخ دخان لفافته على نحو رائع .

وقال متابعاً حديثه : أذهبتِ إلى الريف ؟

— كلا !

— إنك كـ « سنية » لم تطأ قدمُها الضيعة !

ورفعت «سنية» عينيها إلى أبيها وقدأظلّ وجهها عبوس وهى تغمغم :

و « مدموازيل شانتل » ؟

فقال « الباشا » مبتسما » :

أىّ الأمرين تختارين ؟ أن تسافر معكما أم تبقى هنا ؟

فنكّسَت « سنية » رأسها . وقالت : لا أدرى ... لا أدرى ...

فقال « الباشا » : تبقى هنا .

فقالت « سنية » : وماذا تفعل وحدها هنا ؟

فقلتُ على الفور : امنحوها إجازة !

فقهقه «الباشا» وقال: فكرة عظيمة ! إن لها أهلا فى «الإسكندرية» يمكن أن تقضى عندهم أسبوعا !

والتفت إلى ابنته يقول: ولكن يجب أن يرافقكما أحد !

فقلت: « الدادة شيرين » !

فضرب «الباشا» المائدة بيده وقال: فكرة أعظم من الفكرة السابقة.

وفى هذه اللحظة دخلت « الدادة شيرين » تحمل لفيفة فى يدها. فما إن أبصرها « الباشا » حتى صاح: لقد وقع اختيار « سلوى » عليكِ لتَصحبيها هى و « سنية » إلى الضيّعة !

فأشرق وجهها المستدير المقبّب، واختلج جسمها البدين المترهّل، وقالت فى صوتها الهادىء ولهجتها المحبّبة: بارك الله فيها وهيّأ لها الخير. ووضعت أمامه اللفيفة قائلة: لقد أحضر «جميل» السائق ما أمرته به.

— حسناً ...

وخرجت « الدادة شيرين » فتناول « الباشا » اللفيفة، فإذا هى علبة فخمة من الحلوى. وسمعته يقول لى: إنها هديّة من «سنية» إليك.

— أنا ؟ !

— نعم أنتِ، هدية صغيرة من صديقتك !

وناولنى العلبة فأخذتها وأنا مضطربة، ثم رأيت «الباشا» ينهض قائلا: لقد اتفقنا على كل شىء، ونحن منتظرون استئذانك لأمك فى شأن السفر.

ودنا منى يلاطف خدّى مبتسما، ثم غادر حجرة الطعام.

وفتحت العلبة فإذا هى تزخر بالفاخر من الحلوى، فأعطيتُ «سنية» منها، وأخذت لنفسى شيئاً، ومضينا نأكل فى مَرَح، وبغتة رأيت « سنية » تحوطنى بذراعيها، وتضمنى بشدّة إليها وهى تغمرنى بقبلاتها !

٢١

ما إن فرغت أمي من تناول فطورها حتى دخلتُ عليها في حجرتها وهي تترنّم ، وفي يدها بعض الأوراق المالية تقلبها ، فحييّتها تحية الصباح ، فردّت التحية دون أن ترفع عينيها عن الأوراق ، ثم قالت :

هذا ريْـع بعض أملا كنا !

ـــ حسناً ... لقد كنتُ أمس عند « سنية » .

ـــ أخبرتني بذلك « أم يونس » . وكيف هي ؟

ـــ ليست على ما يرام !

فرفعت أمي نظرها إليّ وقالت : أمريضة ؟

ـــ إنها متعبة ، ومحتاجة إلى تغيير الهواء !

فعادت إلى أوراقها المالية تُعنى بها وترتبها ، وقالت :

أبناء السَّراة دائما يشكون توعُّكَ الصحة ! ... وإلى أين يريد أن يرسلها أبوها لتغيير الهواء ... إلى « الإسكندرية » ؟

ـــ بل إلى الضَّيعة !

ووجدتها تدسّ الأوراق في صدرها وتقول : إلى الضيعة ؟ ... فكرة حسنة ! ... لقد سمعتُ أن لهم هناك قصراً وحديقة واسعة .

ـــ هكذا قال « الباشا » .

ـــ وهل لقيتَـه ؟

ـــ نعم ! وقد تناول الطعام معنا أنا و « سنية » و «المدموازيل».

ونفثت أمي دخان لفافتها دفعة واحدة ، وقالت :

تناول الطعام معكن؟ ...

وانطلقت منها ضحكة عابثة ، ثم عادت تترنم ، وبغتة انقطعت عن الغناء ، وقالت : ولكن لماذا قال لك إن له قصراً وحديقة فى الضيعة؟

فنظرتُ إليها فى تضرّع صامت وأنا أبتسم ، ثم أمسكت يدها ولاطفتها ، فقالت : آه ... فهمت !

فقلت على الفور ، وأنا أشدّ على يدها :

إن « سنية » تدعونى إلى الذهاب معها لقضاء أسبوع .

— وهل هى التى دعتك ؟

— دعتنى بلسان والدها ... ليس لها — كما تعلمين — أن تقرر شيئاً دون موافقة « الباشا »

— مفهوم ، مفهوم ... ليس لها أن تقرر شيئاً ... ولكنى أسأل. هل الفكرة فكرتها ؟

— الحق أن الفكرة كانت عارضة أثناء الحديث ، ولو كان « الباشا » قد ترك « لسنية » الوقت لأبدَتها من تلقاء نفسها .

— حقاً ! ... حقاً ! ...

— إنها تحبّنى أصدق حبّ .

— شىء واضح !

وفتحت علبة لفائفها ، وجعلت تنظر فيها ، ثم أخرجت واحدة. فأشعلتها فى بطء ، وقالت واللفافة فى فمها :

وهل يذهب « الباشا » إلى الضيعة أيضاً ؟

— كلا ...

— وكيف علمت بذلك ؟

— لم يتحدث إلينا فى شأن سفره ، بل كان جُل حديثه يتعلق بسفر « سنية » و « الدادة شيرين » .

— و « المدموازيل » ؟

— سيمنحونها إجازة .

— وبماذا أجبت حين دعاك « الباشا » ؟

— أجبته بأنى سأعرض الأمر عليك .

— وماذا قال فى ذلك ؟

— قال : يجبُ استئذان أمك !

وأخذت تدخن برهة وهى صامتة .

ثم قالت وهى تنظر إلى الدخان المتطاير : كثير أن تغيبى هناك أسبوعا ... ماذا تفعلين فى هذا الأسبوع ؟ لو كنتُ مكانك لما استطعتُ المكث أكثر من يوم واحد ... من يُطيق سُكنى الريف ؟ !

— حسبى بضعة أيام .

— وتتركيننى هنا وحدى ؟ !

— لا أغيب أكثر من يومين إذا أردت !

— أنا لا أريد أن أحرمك هذه النزهة ، بشرط ألا تزيد على يومين . يجب ألا تكونى ضيفة ثقيلة على الناس مهما يظهروا لك الرضا !

— لن أغيب أكثر من يومين !

وقبّلتها وقبلتنى ، ثم قلت لها وأنا مبتهجة :

وقد أهدت إلىّ « سنية » علبة من الحلوى !

— علبة من الحلوى ؟ ... أين هى ؟

وهرعتُ إلى حجرتى ، وعدت أحمل العلبة ، فأخذتها أمى ، وجعلت

تقلبها وهى تقول : لا بأس بها !

وفتحتها، وجعلت تنظر فيها طويلا ، بيد أنها لم تصف بكلمة واحدة فخامة الحلوى ، وأخذت منها قطعة ، وهى تقول :

« سنية » هى التى أهدتها إليك ؟

— نعم ، ولكن « الباشا » هو الذى أوصى بإحضارها !

وجعلت تلوك قطعة الحلوى فى فمها قائلة : مفهوم ! ... مفهوم !

ثم انطلقت منها ضحكة غريبة ، فقلت : لماذا تضحكين ؟

— لاشىء . لا شىء . تذكرتُ حادثاً تافهاً أضحكنى ... أخبرينى كيف كان حديث « الباشا » معكن على المائدة ؟

— كان مُسلياً ، روى لنا أقاصيص ونوادرَ من عهد حداثته .

وتناولت أمى قطعة أخرى من الحلوى . وقالت :

يظهر أن له أوقات صفاء !

ورأيت فى هذه اللحظة « أم يونس » تدخل الحجرة ، وهى تنهج ، فقالت لها أمى : ما الخبر ؟ !

فنظرت المرأة إلىّ ، ثم التفتت إلى أمى ، وبعد صمت مُمِضّ قالت فى تباطؤ : قدِمَ « حمدى أفندى » وهو فى البَهو ...

فقلت فى دهشة لا تخلو من غيظ : « حمدى » ؟ !

وقالت أمى : من « حمدى » هذا ؟

فقلت : إنه صديق الطفولة ... عرفتُه قديماً عند « سنية » .

— آه ... يخيّل إلىّ أنى سمعتك مرة تتحدثين فى شأنه .

وقالت « أم يونس » : ماذا يجب أن أقوله له ؟

فقلت فى اندفاع :

قولى له إنى مريضة ، أو قولى أىّ كلام آخر ... لا أريد أن ألقاه
فنظرت إلىّ أمى تتفحصنى ، ثم قالت : ولماذا لا تريدين أن تلقيه؟
— لأنى ... لأنى غير متأهّبة للقائه .
فابتسمت أمى وقالت : ولكن ليس هذا من الذوق فى شىء !
فالتفتتْ إلى « أم يونس » وقالت : أدخليه حجرة الزوّار .
ونظرت إلىَّ تقول :
سأنزل إليه ، وسألقاه نائبة عنك... ولكن يجب أن أغيّر ثوبى.
ووجدتها قد تركت مقعدها ، وقد أخذت معها علبة الحلوى ،
وفتحت خزانتها ، ووضعت العلبة فيها ، وطفقت تعرض أثوابها .
وخرجت أنا إلى الردهة ، ومن ثمّ نزلت إلى الطبقة الأولى ...
ودخلتُ حجرة الزوار ، وما إن وقع بصرى على « حمدى » حتى
اختلج جسمى اختلاجة فزَع .
لقد شهدته شاحب الوجه ، غائر العينين ، يتصبّب العرق غزيراً
من جبينه ، ورأيته يمسح يده بالمنديل ، ثم مدها إلىّ وهو يقول :
أقسم لك إنى كنت أمس فى حالة يُرثى لها من وعكة المرض .
واشتدّ شحوب وجهه ، ورأيته يغمض عينيه ، ويمسك بجبهته .
وشعرت حين صافحته بأنه محموم ، فقلت : اجلس . استرح . ما بكَ ؟
فجلس وعيناه مازالتا مغمضتين ، ثم غمغم : أنا اليوم أحسن حالا .
وضغط يدى ، وفتح عينيه قليلا ، وهو يقول :
أرجو ألا تكونى مستاءة ...
— كان يجبُ أن تظل فى فراشك !
— بل وجب علىّ أن أحضر لأ كاشفكِ بعذرى .

ـــ ولِمَ لمْ تبعث إلىّ برسالة ؟

ـــ خشيتُ ألا تصدقيني !

ودخلت « أم يونس » بالقهوة ، فتناول كوب الماء وكرَعه دفعة واحدة . ثم انطلق يمسح العرق السائح على وجهه ، وبعد حين مضى يحتسى القهوة ... وقال وقد افترّ ثغره عن ابتسامة كاسفة :

أشكر لك ... الحمد الله ... أشعر بتحسن كبير .

ودخلت أمى فى هذه اللحظة ، وكانت مزّينة معطّرة ترتدى ثوباً يكشف جانباً من صدرها ، فقلت لها :

حضرته الأستاذ « حمدى » الموسيقىّ الفنان .

والتفتّ إليه وقلت : والدتى !

وانحنى « حمدى » على يد والدتى وقبّلها فى أدب ، وهو يقول :

تشرفنا « يا هانم » !

ـــ تشرفنا يا « بك » ... من الغريب أنك صديق ابنتى منذ الصغر ، ولم أرك حتى الآن . لم تزرْنا قبل هذه المرة .

ـــ حقاً لم أزر هذا المنزل قبل الآن ، ولكنى كنت أتردّد على منزل « الإسكندرية » .

ـــ أوه ... هذا عهد قديم جداً !

وصمتت والدتى برهة ، ثم قالت : هل حضرتك موظف فى الحكومة ؟

ـــ كلا ، بل إنى أعطى دروساً خصوصية فى الموسيقى والرسم .

ـــ حضرتك رسام أيضاً ؟ ... شىء جميل ... أعرضْتَ صوراً فى المعارض ؟ ... ذكّرتنى ... إن معرض رابطة الفنانين الذى أقاموه الشهر الماضى فى « الكونتنتال » كان عظيما جداً !

— لم أتمكن من مشاهدته مع الأسف ، ولم أعرض فيه شيئاً .

— إذن عرضتَ في غيره .

فطأطأ هامته ، وقال : ليس لديّ صور أعرضها ... أنا معلم صغير

فوجدتني أقول : إن « حمدى » متواضع يا أمى ، ولعل هذا هو السبب في غمط حقّه دائماً ... إن كثيراً من القطع الغنائية التي يسمعها الناس في « الرّاديو » هي من تلحينه ، ولكنه لا يذكر اسمه .

فقالت أمى لـ « حمدى » :

— إذن حضرتك تكسب من تلحينك لمقطوعات الغناء ؟

فقال « حمدى » وهو يعبث بأصابعه :

أكسب ما هو ضروريّ لمعاشي .

— أتقيمُ مع أسرتك ؟

— بل أقيم وحدى .

فابتسمت والدتى ابتسامة لا يخفى معناها ، وقالت :

إن الفنانين يهوَوْنَ حياة الانفراد .

فرفع بصره إليها وقال : إنى أحيا هذه الحياة ، لأنى بلا أهل .

— بلا أهل ؟ ... كيف ؟

— يجوز أن يكون لى أهل لا أتذكرهم ، ولكنى لا أعرفهم ولا يعرفوننى .

— شيء غريب !

— إنى أسكن وحيداً في قرية بجوار « الأهرام » ...

وخشيت أن يفضى أمام والدتى بشيء من أمر زيارتى على غير قصد ، فغمزت له غمزة فهمها ، فابتسم قائلا : إنه ليسرنى أن

تشرّفنى «الهانم» و«سلوى» ... إن منزلى بسيط جداً ، ولكنه يستطيع أن يرحب بزيارتكما .

فقالت والدتى على عَجَل : إن شاء الله ! ... إن شاء الله ...

ونهض « حمدى » مستأذناً فى الخروج ، فمدّت له أمى يدها وهى تقول فى لهجة رسمية :

فى الوقت سعة ... لماذا أنت متعجّل ؟

— إنى أشكر لكِ حسنَ ضيافتك يا « هانم » ...

وقبَّلَ يدها فى تبجيل ، ثم صافحنى وضغط يدى ، ومضى إلى الباب. والتفتت والدتى إلىّ تقول :

لم يكن ينقصنا إلا هذا الموسيقىّ تعقدين بينك وبينه صداقة !

— إنه شاب طيِّب مخلص .

— حسبك ! ... الطيِّبة والإخلاص وحدهما لاينفعان فى هذه الدنيا ...

وسِرْنا بضعَ خطوات صامتَيْن ، ثم قلت لوالدتى :

سأرسل «أم يونس» إلى « سنية » لتخبرها بقبولكِ دعوتها إياى ، ولتسألها عن موعد السفر .

فأجابت وهى تجدّ فى سيرها :

فليكن ... فليكن ... أرسلها !

ما أسفر صبح يوم السفر حتى شرعت أعِدّ أشيائى ، فلما أعددتها لم يبق إلا أن أضعها فى حقيبة ، فسألت «أم يونس» أن تأتىَ لى بها ، فوجمت المرأة وقالت : ليس عندنا حقائب !

— ليس عندنا حقائب . . . ؟!

وعجبت كيف أنى لم أهتمّ بهذا الأمر قبل الآن ، وكيف لم يخطر ببالى أن أدبّره أمس . ووقفت أكاد أتميّز من الغيظ ، وقد وضعت يدى فى خصرى ، وصحت بـ « أم يونس » أطلب إليها أن تحضر لى حقيبةً فى الحال .

وتناهت صيحتها إلى أمى فجاءت تسأل ما الخبر ، فأنبأتها « أم يونس » بالأمر ، فابتسمت طويلا ، وهى تداعب سلسلة فى يدها .

ثم قالت «لأم يونس» : اذهبى فأتينى بحقيبتى فى حجرة الفرش .

فبادرت بقولى :

أيّة حقيبة ياأماه ؟ . . . تلك التى احتكرتها القطط لصغارها !

— احتكرتها القطط لصغارها ؟ ما هذا الكلام ؟ !

— إنها ممزّقة ، وليس بها مفتاح !

— يمكن رَبْطُها بالحبل .

— لا أحتمل نظرات السخرية التى يَرْشُقُنى الناس بها .

— إذن عليك بشراء حقيبة جديدة ... أمعك ثمنها ؟!

فلم أجب ، وواصلت أمى قولها : إذن لماذا التعالى والتكبّر !

— سأضع أشيائى فى صُرّة .

— كما يحلو لك !

وخرجتْ وهى تداعب السلسلة . ولاحظتُ أن « أم يونس » ليست فى الحجرة ، فخرجتُ أناديها فلم أسمع لها ردًّا ، فازداد حَنَقى عليها ، وعدتُ إلى حجرتى ، واستلقيتُ على المقعد ، وقد زَهدت فى السفر ... وبعد قليل دَخلت « أم يونس » وأنفاسُها تتتابع وهى حاملة حقيبة لطيفة ، فقفزتُ من السرير وقلت : من أين جئت بها ؟

— ضعى أشياءك ، ولا تضيعى الوقت فى كلام !

— أراهن على أنها من « الست فتحية » ...

— قلتُ لك ضعِى أشياءك وكفَى !

وانهمكنا نضع الأشياء فى الحقيبة ، ثم أقفلتها بالمفتاح ، ثم وضعته بعناية فى محفظتى ... وجعلتُ أرتدى ملابسى فى عَجلة ، إذ تبيّن لى أن الوقتَ قد أزِفَ ، ولم يخطئْ تقديرى . فسرعان ما سمعتُ نفيرَ السيارة يدعونى إلى النزول .

خرجتُ من الحجرة و «أم يونس» خلفى تجرّ الحقيبة ، فوجدتُ أمى فى الردّهة . فسارعت إليها وقبلتُها قبلة الوداع ، فاستجابتْ لى بقبلة عابرة . وما إن وقع بصرها على الحقيبة حتى صاحت : ما هذا يا « أم يونس » ؟ ... إنك تُسيئينَ إلى كرامتى بهذا العمل المشين !

— أى عمل ؟

— لقد حذّرتُك أن تستعيرى شيئاً من أحـــد ... أين أخبأ وجهى من الناس ؟

وسمعنا نفير السيارة يتعجّلنا ، فقضيتُ أعين « أم يونس » على

حمل الحقيبة وأخذنا نهبط الدرج . وسمعت أمى تقول :

إن من يراك بحقيبتك هذه يحسبُك راحلةً إلى « أوربا » !

ورنَّت ضحكتها فى سخرية ... وما إن بلغت السيارة حتى احتضنت « أم يونس » بشدة وقبلتُها فى حنُوٍّ بالغ . وركبتُ وأنا أحيِّى « سنية » و « الدادة شيرين » فى صخب واهتياج ، ولما تحركت بنا السيارة التفتُ إلى « أم يونس » فوجدتها بجوار الباب تحدّق فينا مبتسمة وهى تمسح عينيها ، فباغتتْنى كآبة وأسى ، واستغرقت فى تفكير .

وبعد حين سمعت « سنية » تقول : انظرى . انظرى .

فانتبهت من أحلامى ، ونظرت فإذا بموكب من صغار الكشافة يسيرون بخطوات راتبة منظمة على قرع الطبول ، وهم يؤدّون بصفيرهم لحناً من ألحانهم الساذَجة ، وعلى وجوههم طلاقة وبِشر ، ورأيت « سنية » تحييهم بيدها وهى تضحك ، فالتفتُّ إليها « الدادة شيرين » بوجها اللامع البرّاق ، وقالت وقد تجلت عليها علائم الجدّ والوقار :

لا تضجّى بالضحك على هذا النحو يا بنتى

ثم وجهت إلينا معاً قولها : إن سيدى « الباشا » قد أوصانى بأن أرعاكما ، وألا أترككما على هواكما .

فتبادلت أنا و « سنية » النظرات ، ثم علا صوتنا بالضحك . فصاحت « الدادة شيرين » : لماذا تضحكان ؟ أفى قولى مايثير هذا الضحك؟

فقلت لها وأنا أشدّ على يدها : لقد رأينا قطًّا أجرب يتواثب أمام السيارة كأنه ألعبان ... لقد أضحكنا منظره يا « دادة » .

واستأنفنا الضحك ، وسمعنا « الدادة » تقول وهى تضحك معنا :

لقد رأيته يفرّ بين عجلات السيارة . كادت تقصم ظهره ... !

وبعد حين تخطّت السيارة حدود القاهرة ، ومضت تسير فى طريق معبَّد تكتنفه المزارع . وسرّحتُ بصرى فى الحقول مغتبطة وأنا أستقبل النسيم الفوّاح . ورأيتُ فيما حولى أشجارَ القطن يتناثر فيها نُوّاره البنفسَجِى ، ومررنا ببعض البيادر حيث يُدْرَس القمح بالنوارج

فقالت « الدادة شيرين » :

طالما ركبتُ هذه النوارج ، وسقت الثيران ، فى عهد حداثتى .

فقلت : أ كانت نشأتُك فى الريف ؟

فقالت « سنية » : إنها من بلاد الفلاحين !

فبادرت « الدادة » تقول فى حدّة : ماذا تقولين ؟ أفلاحة أنا ؟

فرأيت « سنية » تربت ذقن « الدادة شيرين » وهى تقول :

لا تغضبى ... لا تغضبى ... أوَ قلتُ إنك فلاحة ؟ !

ثم حدّقتْ فى وجهها برهة وهى تبتسم ، وقالت : إنى أحبّ فيك « طابَعَ الحسن » . هذا الطابع الذى يزين ذقنك . إنى أحبه أعظم الحب!

ثم انبرت تدغدغها ، فإذا المرأة تتأود ، وإذا بها فى ثورة تضحك وتخلط الضحك بالتمنّع والاستنكار .

ومررنا ببيدر شاسع تعمل فيه عدة نوارج ، فقلت « للدادة » :

وهل نستطيع أنا و « سنية » أن نركب النوارج فى الضيعة ؟ !

فقالت وهى تلفظ كلماتها على رِسْل : تركبين النوارج أنت و « سنية » ؟ ... هذا أمر قد أفكر فيه حين نكون فى الضيعة !

فقالت « سنية » وهى توجّه نظرها إلىّ :

ولكن أليس فى ركوبها من خطر ؟ ألا تجرها الثيران ؟

فقلتُ « لسنية » : أىّ خطر ؟ ... ألا تَرَيْن الأطفال يعتلونها وقد

أخذوا يسوقون الثيران في سهولة ويُسر ؟

والتفتُّ إلى « الدادة » وقلت : وستركب معنا « الدادة » !

فقالت : أنا أركب النورجَ ؟ ماذا تقصدين ؟

ـــ لتراعينا وتُعْنَىْ بأمرنا ...

ـــ سننظُر في هذا الأمر ... سننظر فيه حين نصل إلى الضيعة !

ووجدتها تبتدرُ السائقَ بصيحتها ، قائلة له : دقّق النظر أمامك وحذار أن تغفل . مالي أراك تتمايل تمايلَ النيام ؟

ورأيت السائق لا يعقّب على قولها بشيء ، وإنما اقتصر على أن يهز كتفيه بلا مبالاة ... وظلت السيارة ماضيةً بنا بين الحقول ، ولكنى لاحظت أن الطريقَ لم يعد معبّداً ، فقد جعلت السيارةُ تهتزّ ، وراح رأسى يصطدم بسقفها كلما اهتزّت ، فكان في ذلك مثار للضحك . واضطُرّ السائق أن يهوّن من سرعته ، إذ ضاق الطريق ، واعترضتْه السَّقَوات ، وتزاحمت أشجار السنط المشتبكة على جانبيه ، وكنا نمر بزَرافات ووُحدان من الفلاحين يَمضون إلى أعمالهم مترجّلين أو على ظهور الدوابّ ... فأما المشاةُ فكانوا يَحيدون عن وَسَط الطريق ويبعثون إلينا عوابرَ النظرات ... وأما الراكبون فكانوا يتابعون سيرهم وقد تدلت أرجلهم الطويلة حتى كادت تلامس أديمَ الأرض وهم غير مبالين بدنو السيارة ، فلا يجدُ السائق بدا من الوقوف حينا والتباطؤ حينا آخر .

وفي بعض الطريق كنا نصادف زُمَراً من الصِّبية فأراهم يقبلون على السيارة ولا يفتأون يتبعونها ويتعلقون بها من الخلف متهللين متصايحين .

كان كل شيء يدعو إلى الغِبْطة ، بيد أنى ضجرت من ذلك الغبار

المتطاير الذى كان ينهال علينا فتضيق به أنفاسنا أىّ ضيق .

وأخيراً وصلنا ... وتمهلت السيارة وهى تقترب من الضيعة ، فإذا بى أرى القصر قائماً وسط أكواخ الفلاحين المتواضعة ، يستقبلنا بهامته البيضاء عليها غبَرة . وكان الطريق المؤدى إليه يقوم على جانبيه صفان من الأشجار فى استواء ، وتعترض منتصفه ترعة اجتزناها على جسر من الخشب ، شعرنا به يهتزّ تحت عجلات السيارة ، وسمعنا له طقطقة واضحة ، فتماسكنا بأيدينا ، وقد أخذ منا الهلع كل مأخذ .

وما إن دنت السيارة من الباب حتى لمحنا جمعاً من موظفى الضيعة يقتربون منا . وهرع إلينا رجل أشيب ، صلب العود ، يرتدى الجلباب البلدىّ والمعطف ، ووجه الأسمر الممتلىء المضرّج بنضرة الصحة يتطلّق تحية ومؤانسة . فبادر إلى الباب يفتحه وهو يكرر من كلمات الترحيب . والتفت إلى « الدادة شيرين » وهو يقول :

أهلا وسهلا بأمى !

ومدّ نحوها يده لتستعين بها على النزول ، فنحّت عنها يده وهى تغمغم :

أمك ؟ ... الأفضل أن تقول إنى جدّتك ! لا تكلف نفسك عناء فى معاونتى ! ... أستطيع أن أنزل دون أن أستعين بأحد .

فلم يأبه لقولها . وإنما دنا منها يأخذ بيدها ، فما كان لها أن تستطيع النزول من السيارة دون أن يعينها .

وقال لها : لا تغضبى ... لن أدعوك أمى ... أهلا وسهلا بأختى !

وما كادت قدماها تثبتان على الأرض حتى ردّت يده وهى تقول :

الحق يا « مصطفى أفندى » أنى لا أميل اليوم إلى الهزل ، فدع هذا المزاح !

وكنتُ أنا و « سنية » نضع منديلنا على فمنا نكتمُ به ما يكاد ينبعث من الضحكات .

وأحاط بنا جمعُ الموظفين ، وكانوا أخلاطاً بين لابسِ لبدة أو عمامة أو طربوش . فأقبلوا علينا يحيوننا واحداً تلوَ الآخر ، وقد ينحنى أحدهم على أيدينا فيقبلها .

ورأيتُ مَدخلَ الحارة التى فيها مساكن الفلاحين قد اكتظت بالنساء والأطفال ، وكانوا يشرئبون بأعناقهم ويتطاولون برءوسهم إلينا يزحم بعضهم بعضا .

ودخلنا القصر أنا و «سنية» ويدى فى يدها . وكان «مصطفى أفندى» يتقدمنا وهو يُصدِر أوامره للأتباع ، على حين كانت «الدادة شيرين» تزحف خلفنا فى خطو كسيح ، وهى تصيح بنا أن نتمهّل . ونادت « مصطفى أفندى » فرجع إليها ، فاعتدلت فى وقفتها ورفعت رأسها شامخة الأنف ، وقالت له :

حضرتك « ناظر الزراعة » فى الخارج . أما فى القصر ...

فلم يدعها الرجل تتم جملتها ، وإنما بادر بقوله ، وهو يبتسم ابتسامته الساطعة :

أما فى القصر فحضرتك « الناظرة » ... مفهوم !

كان المنزل عجيبَ الشكل ، على طراز عتيق ، له بهو طويل مُعشِم ، يقوم على جانبيه صَفان من الحُجَر ، واستقبلتنا على الباب فلاحة عجوز كأنها دجاجة هَرِمة منسولةُ الريش ، ولكنها على الرغم من علوّ سنها كانت تبدو عليها مخايلُ النشاط ، وما كادت « الدادة شيرين» تراها حتى مَدَّت إليها يدَها فى مظهر من التعاظم قائلة :

كيف حالك يا « أم نجم » ؟

فأسرعت المرأة تقبل يدها وهى تقول :

أطال الله عمرك يا ست « دادة »

والتفتت إلينا « الدادة شيرين » وقالت : هذه « أم نجم » العجّانة ستعمل لكما الفطير « المشلتت » ، وتطبخ لكما الفريك الفاخر !

وتقدمت منا الدجاجة الهرمة والبِشر يسطع على وجهها ، وصافحتنا وهى تقول : سأعمل لكما كل ما تطلبانه منى . أنا خادمتكما .

ووقفت تتأملنا وهى تقول : ماشاء الله ، ماشاء الله ... زادكما الله حُسناً وبارك فيكما . عروسان ، ما أملحَكُما !

فقالت « الدادة شيرين » على الأثر :

تقدّمينا إلى الحجرة ، ولا تُكثرى من الكلام ...

فأذعنَت المرأة للأمر وتقدمَتْنا لتُرِيَنا حجرَ المنزل،فدخلناها واحدة إثرَ الأخرى ، فإذا هى متشابهة فى أثاثها الساذَج القديم ، ونظامها الريفىّ الراتب ، إلا حجرة واحدة كانت تمتاز عن الأخريات

بأريكة فسيحة ، وصوَان عريض للملابس عليه مَسحة من الوجاهة .
وقد اخبرتنا « أم نجم » أن هذه حجرة « الباشا » وأنها له خاصة .

ولبثت « الدادة شيرين » تناقش «أم نجم» فى شأن الحُجَر، وأيّها أطيب هواء وأكثر تعرضاً للشمس . وقد أطالت تطوافها وواصلت حديثها حتى بلغ منها الإعياء كل مبلغ . فتهالكت على مقعد ، وهى تلق بأوامرها إلى العجانة مبهورة الأنفاس ... وخرجتُ أنا و « سنية » إلى الحديقة فإذا بها ساذجة مهوّشة لا نظام فيها ولا ترتيب ؛ تحسَب شجرها الكثيف المتلاقى بعضه ببعض قدنما على الفطرة ، وكانت سابغة الظلال ، يتدفّق الماء فى قنواتها . وقد أثقلت أشجارها ثمار المانجو والبرقوق ، وتدلت من عرائشها عناقيدُ العنب . فانطلقْنا نعدو لا نعرف أين نقصد ، وقد نقطِف الثمر من أغصان الشجر فنأ كله . وقد نتراشق بالقشور والنوَى ، وقد نرتمى على الحشائش الرطبة الندِيَة ونحن نتضاحك متصايحتين ، ونشرب من القنوات ثم نتقاذف بالماء ونستأنف العدْوَ فى مِراح .

وأدركنا التعب ، ونحن نعدو ، فاستلقيْنا معاً على الأرض بجوار أقرب شجرة منا ، وحانت منى نظرةٌ إلى أعلى الشجرة ، فألفيتُ نفسى أطيل التأمل فيها ، فقالت « سنية » : ليس فيها ثمرة واحدة !

— ليس من العجَب أن تكون خالية من الثمر .

— لمــاذا ؟

— ألا تعرفين لماذا ؟ إنها شجرة برتقال ، وقد انتهى موسمُه .

— وكيف عرفتِ أنها شجرة برتقال ؟

فابتسمتُ وأنا أتلاعب بعود فى يدى ، ولم أجِبها بشىء ، فقالت :

لماذا تبتسمين !

— لأن شجرة البرتقال هذه أذكرتنى أمرا .

— أىّ أمر ؟

فلم أجب ، ومضيت أنكثُ الأرض بالعود ، فقالت : أسر هو ؟

— ليست أسرارى محجوبةً عنك ... تذكرين ما أخبرتك به مرة من أن « حمدى » دعانى إلى زيارته ، وأنى قصدت منزله بجوار « الهرم » ؟

— نعم ، وأذكر أنكما شربتما الشاى فى أحد الأندية ، وأنك دخنت لفافة تبغ !

فأرسلتُ ضحكة طويلة ، وقلت : ما أحدّ ذاكرتك !

واقتربتْ « سنية » منى وهمست فى أذنى : وأنه قبلك !

فنحيتها عنى فى دعابة وأنا أقول :

لا أذكر أنى قلت لك شيئاً من هذا !

— أنادمةٌ أنت على أنك أفضيت إلىّ بهذا الخبر ؟

— كلا ، ولكن اصدُقينى : ماذا قلت لكِ فى شأن القبلة ... ألأخبرتك بأنها قبلة واحدة أم قبلات ؟

— أثمة قبلات أخرى غير قبلة النادى ؟

فخفضت من بصرى ، وتمتمتُ : تحت شجرة البرتقال فى حديقة منزله !

فصاحت « سنية » : لم تخبرينى بهذا . أنت صديقة غير مخلصة ...

فأمسكتُ بيدها وقلت : وكانت الشجرة ما زال عالقاً بها بعضُ الثمر اليانع ... كانت قبلةً عذْبة جميلة معطرة بأريج البرتقال ... !

وأدنتْ « سنية » وجهها من وجهى وقالت : إنه يحبك !

فلاطفت خدها وأنا أبتسم وقلت : يجوز !

ــ لا تسخرى منى ... وإنك لتحبينه أيضا !

ــ هذه مسألة أخرى يا عزيزتى !

ــ كيف ؟

ــ ليس الحب بالأمر السهل ... فلنخض فى حديث آخر .

ــ إذن أنتِ لا تحبينه ؟

ــ وهل قلتُ ذلك ؟

ــ إنى لا أفهم ما تبغين !

فتضاحكت طويلا ، وطرق سمعَنا فى هــذه اللحظة صوت « الدادة شيرين » وهى تأمرنا بالعودة ، فقمت وأنا ممسكة بيــد « سنية » وقلت : يجب أن نهربَ !

وجَرينا نطلب مَهرباً ، ونداء « الدادة شيرين » يقتفى أثرنا ونحن نستخفى . وأخيراً اعتزمْنا العودةَ إلى المنزل، فدخلناه والعرق يتصبب من جبيننا ، فاستقبلتنا « الدادة » بقولها : أنا لا أحب العبث ... إن سيدى « الباشا » رغب إلى فى أن أراقبكما مراقبة شديدة . يجب أن...

فهجمنا عليها ، وانطلقنا ندغدغها ونقبلها وهى تتضاحك مرة وتنهرنا أخرى !

وتناولنا الطعام فى ركن من أركان البهو . وكنا نأكل فى شهيّة بالغة ، وأطريْنا صنيع « أم نجم » . العجانة إطراءً أطربَها وأبهجها ، فأقبلتْ تعدّد لنا الألوان التى اعتزمت أن تعِـدّها لنا كل يوم، ونقول:

إنها ألوان يستحيل على أمهر طاه أن يجاريَنى فى طهوها !

وما إن حان العصر حتى تركنا الدار مع الدادة « شيرين » ، وقــد اختمرت بخمار أبيض ، وانتعلت خفاً أحمر . وكان يرافقنا

« مصطفى أفندى » الناظر ، يتبعه على بعد خطوات أحد الخفراء سائراً بهامته المرفوعة وقامته المديدة الصُّلبة ، وشاربيه الغليظين المتراقصين على فمه ، وهو يحمل بندقيته ويسعل بين فترة وأخرى ، كأنه يشعرنا بوجوده ، وبأنه لا خوف علينا ما دمنا فى حماه ! ... وكانت طائفة من الأطفال يقتفون أثرنا من بعيـــد ، وهم يهرولون فى ثياب رَثّة مهلهلة ، وينظرون إلينا بعيونهم التى تشبه عيون القططة ، ثم يقبل بعضهم على بعض يتهامسون ، فالتفتتْ إليهم « الدادة شيرين » وقالت فى صيحة منكرة : تنحَّوْا ... فلاحون ! ... أأعجوبة نحن ؟ ... لماذا تنظرون إلينا على هذا النحو ؟

وما أسرعَ أن انتهرهم الناظر ، وأشرَعَ إليهم الخفير بندقيته تخويفاً ، فتفرقوا هاربين ، ولكنهم جمعوا جموعهم بعد حين ، وعادوا يتأثروننا لا يبالون !

ذهبنا إلى البيدر فقضينا فيه وقتاً نتفرّج ، وكان منظر الثيران وهى تجر النوارج فى حلقات القمح منظراً جميلا فيه تسلية . ولكننى لاحظت أن هذه الثيران تسير محنيّة الرأس تدفع بخطاها دفعاً ، وعلى جسمها يسبح العرق . ورأيت أحدها ـ حينما مرّ فى دورته بالقرب منا ـ يرفع رأسه إلىّ وينظر بعينيه المحمرّتين . وكان بائن الهزَال ، بارزَ عظام الظهر ، أصلم الأذن . فتأثرت له ، وأدركتنى الشفقة عليه ، فقلت على الفور للناظر : من أىّ وقت دار هذا الثور ؟

— منذ الصباح .

— ألم يسترح فترة ؟

— إنه ينال من فترات الراحة ما فيه الكفاية .

ــ ولكن يجب أن يأكل ... ألا تراه شديد الهزال ؟

فضحك الناظر وهو يقول :

ومن ذا الذى يمنعه من الأكل يا « ست هانم » ؟ إن الحبوب أمامه يصيب منها ما يشاء !

وسمعت « الدادة شيرين » تقول :

لا أسمح لكما بركوب النوارج ... لا أسمح مطلقاً ... !

ولم نكن قد أبدينا أيّة رغبة ما ركوبها ، فلم نجبها بكلمة ...

ولما أردنا العودة سيراً على الأقدام كما جئنا لاحظ الناظر أن « الدادة » بدأت قواها تخور ، فأمر لها بدابّة . فامتنعت عن ركوبها فى شدة وجدّ ، وأبت إلا أن تمشى كما نمشى ...

وما إن خطت خطوتين حتى كادت تنكفىء على وجهها ، فأسرع الناظر والخفير إليها يحميانها من السقوط ، ثم احتملاها إلى الدابّة « وأركباها إياها ، وهى ما فتئت تتمنع وتتأبى !

نمت — في ليلتي الأولى التي قضيتها في الضيعة — براحة لم أتذوقها من زمن بعيد ، لقد نمت نوماً عميقاً صافياً لم يشبه شيء حتى طائف الأحلام . فلما استيقظت في رونق الضحى سمعت سعلة أثارت دهشتي ، فأرهفت السمع ، ولم يطل انتظاري ، فقد طرق أذني صوتٌ عرفت صاحبه على الأثر ، فقفزتُ من سريري ، وقصدتُ على الفور فراشَ « سنية » فألفيتها تتمطّى ، فقلت لها : ألم تسمعي ؟

— ماذا ؟

— إن « الباشا » هنا !

— هنا ؟ مستحيل ! أراك نائمة تحلمين !

فصحت بها قائلة : إنك أنت النائمة الحالمة ... لقد سمعته يسعل .

— إنه الخفير !

ودخلت « الدادة شيرين » فبادرتنا بقولها :

صه ! لاتتصايحا . إن « الباشا » في البهو يتناول فطوره .

فحملقت فيها «سنية» ثم تركت الفراش عجلى ، وخرجتْ إلى البهو أما أنا فلم أشأ أن أخرج قبل أن أستكمل زينتي ...

وبعد حين تركت حجرتي ، فوجدت « الباشا يترشف قهوته ، وهو يلاطف « سنية » ويداعبها . فما إن رآني حتى ابتسم قائلا :

ما أرى حياة الريف إلا مدعاةً للكسل ... ماهذا يا « سلوى » ؟ ألا تستيقظين إلا الآن وقد بلغت الساعة العاشرة ؟

ـــ أهى العاشرة الآن يا عمى ؟

ـــ انظرى !

وحيانى فى تطاف وهو يشير إلى ساعته . ثم قال : إنى قد مت لبعض أعمالى العاجلة ، وصلت إلى الضيعة فى قطار الليل وسأبرحها هذا المساء.

فصاحت « سنية » : هذا المساء ؟ ولماذا ؟

فنظر إلىّ قائلا : إنى لا أريد أن أضايقكما !

فقلت : تضايقنا ... معاذ الله يا عمى !

وأرتنى « سنية » علبتين كبيرتين ، وفتحتهما أمامى وهى تقول : علبة فطائر من « جروبى » ، وعلبة حلوى مختلفة الأشكال .

وقال « الباشا » مبتسما : إن « سنية » لا تفتأ تفكر فيك ... وقد أوصتنى بأن أحضر لك هاتين العلبتين .

فرفعت بصرى إليه ، ثم حرفته إلى « سنية » وأنا أقول : شكراً ... شكراً ...

وقال « الباشا » : إنكما لم تتناولا فطوركما بعد ... هيّا إذن . ألا تعرفان أنكما ستوزّعان الثياب على صبية الفلاحين ؟

ـــ نوزّع الثياب ؟

ـــ انظرى ...

فالتفت حيث أشار ، فألفيت لفيفة كبيرة بها قطع من المنسوجات ذات الألوان الزاهية . وصاحت « سنية » تقول :

سوف يبلغ بهم السرور كل مبلغ . إن ملابسهم رثة مهلهلة .

وسمعنا « الدادة شيرين » تغمغم وهى تهيّء لنا مائدة الفطور : إنكم تعوّدونهم الترف والترفّه . لماذا لا تطهون لهم الديوك الرومية

أيضاً وترسلونها إليهم ليَطعموها ؟ !

وتناولنا الفطور و «الباشا» يفاكِهُنا بحديثه الرقيق. ثم خرجنا بعد ذلك إلى إدارة الضيعة . فألفيناها تزخر بالموظفين ، وعلى رأسهم « مصطفى أفندى » الناظر ، وقد ارتدى فى ذلك اليوم حُلةً إفرنجية . وأمال على رأسه طربوشاً زاهى الحمرة ، وأحكم فتل شاربه الأشيب . فكان فى منظره أشبه بالديك المنتفش الريش المزهوّ بعُرفه الأحمر البراق ! ... ولمحت على البعد ركناً تكدست فيه لمّة من الأطفال. يحيط بها بعض الخفراء .

وما إن شعر الموظفون بقدومنا حتى أقبلوا سراعا على « الباشا » وعلينا يصافحوننا، فشهدت منظراً رائعاً تجلى فيه الخشوع والإكبار . وكنتُ — كلما انحنى أحدهم على يدى يقبّلها — أشعر بهزّة تنتظم جسدى كله !

طال بنا وقتُ المصافحة والتحية ، ثم أخذنا مقاعدنا . ولبث الموظفون وقوفا خلفنا، وقد وضعوا أمامنا قطع المنسوجات، ثم أذنوا للأطفال أن يتقدموا منا، فهرعوا إلينا يتصايحون والخفراء من حولهم يحاولون المحافظة على النظام ، وجعل « الباشا » يتناول الثياب قطعة قطعة فيناولنى واحدة ويناول « سنية » أخرى ، فيعطى كلٌّ منا القطعة لمن يتقدم من الصبية . فكان كل طفل لا يكاد يأخذ نصيبه حتى يجرى نحو البوابة وهو يثبُ فرحا وابتهاجا . وارتجت الساحة بأغاريد النسوة وأدعيتهن ، وهن ينتظرن أطفالهن خارج « الدوّار » .

ولما أتممنا توزيع الثياب ، رجعنا إلى الدار و « الباشا » ينظر إلينا مبتسما وهو يقول : إن قدومكما الضيعة عيدٌ لهؤلاء الفلاحين .

لقد أمرت إكراما لكما بأن يقيموا لهم جميعاً مأدبةَ حافلة يمدّون فيها جفان الثريد مكلّلة باللحوم .

وقصد « الباشا » إلى الحديقة ، فقضى وقتاً مع « مصطفى أفندى » الناظر يدبّر معه شئون الضيعة . ولما حان وقت الغداء أقبل علينا وقد جلسنا إلى الخوان ننتظر مقدمه .

وجاءت الصّحاف ، فإذا هى وليمة عظيمة تعدّدت فيها الألوان ، فبدت على وجهى الدّهشة ، فقال « الباشا » موجّها حديثه إلىّ :

هذه تحية صغيرة لضيفتنا « ساوى » . . . إن « سنية » تنتهز دائماً الفرصة لتؤكد لكِ تكريمها لصحبتك !

فتبادلت أنا و « سنية » النظرات ، ولاح على ثغرينا ابتسام .

وبعد أن فرغنا من الطعام اقترح « الباشا » أن نلعب بالورق ، فراقنا الاقتراح ، وكان « الباشا » فى لعبه ظريفاً غايةَ الظّرف ، يلاطفنا بأشتات النوادر والملح ، ويختلس إلى أوراقنا النظر ، وقد يستلّ بعضها منا فى خفة وخفية ، فإذا فطنّا إلى مايصنع وصحنا به ، أعاد ما استله فى مهارة وسرعة ، وانبرى يبرىء نفسه فى رقة وبشاشة !

وذهبنا أصيلا إلى البيدر تصحبنا « الدادة شيرين » و « مصطفى أفندى » وقد كنا استأذنا « الباشا » فى ركوب النوارج ، فأذن لنا فى يسر ، ومن ثم ضربنا صفحاً عما تبديه « الدادة شيرين » من ممانعة واعتراض ، واعتلينا هذه المركبات الخشبية الصغيرة التى تجرّها الثيران ، وقد شملتنا البهجة والإيناس ، ورأينا « الدادة شيرين » تعرض رغبتها فى مشاركتنا الركوب بدعوى المحافظة علينا . وما كادت المركبة تتحرك بنا حتى رأينا « الدادة » تصفق بيديها كالأطفال ، وأشداقها المهدّلة تختلج مرحا .

وأمضينا وقتاً طيباً فى البيدر نلهو ونلعب ، وامتطينا ظهورَ الحمر نجول جولة صغيرة فى حقول القطن . ثم رجعنا إلى الدار حين جَنحت الشمس للمَغيب .

وبعد العشاء عدنا إلى اللعب بالورق ، وتوالت دُعابات «الباشا» فلم ينقطعْ لنا ضجيج وصياح . وسمعنا « الدادة شيرين » - وهى تجمع الصِّحاف وترتِّب أثاث البهو - تجمجم قائلة :

ما هذا الصياح ؟ شيئاً من الرزانة والعقل ... إن الصَّخب لا يجمل بغير الأطفال !

وبعد حين أدرك « سنية » الفتور والرخاوة ، وخمد نشاطها كله ، واستبدّ بها التثاؤب ، فوقفنا اللعب بالورق ، وقامت «سنية» إلى أبيها فقبلته وقبلها ، وقصدتْ إلى حجرتنا على الفور .

أما أنا فلما أردتُ أن أصافح « الباشا » أوَدِّعه ، أطبق يده على يدى ، وأخذ يتوسَّمنى طويلا ، ثم انحنى علىّ فطبع قبلةً على جبينى ، وأحسستُ به يُدنينى إليه ويطيل التقبيل . ثم قال وهو يربّت ظهرى فى صوت مخفوض :

ثقى أن إعزازى لك لا يقلّ عن إعزازى «لسنية» ... أنت ابنتى مثلها سواء بسواء !

وتركتُه وهذه الجملة تدوِّى فى أذنى . ومضيتُ أفكر فيها ، وأستوضح الأسبابَ التى تدعو « الباشا » إلى أن يعطفَ علىّ هذا العطفَ البالغ ، فيجعلنى أشارك « سنية » فى مكانها من قلبه !

٢٥

قضى « الباشا » معظم وقته معنا فى اليوم التالى ، فذهبنا جميعاً إلى الحقل ، وطُفنا ببيارد القمح ، وقصدْنا إلى المخازن حيث تكدَّس الحبوب تلالا عالية .

وكان « الباشا » فكهاً مهذاراً شديد الملاطفة ، وعجبت من نفسى كيف كنت فيا سلف من أيامى يتملكنى الخوف حين أراه .

وأراد « الباشا » فى الليل — بعد العشاء — أن يلعب معنا بالورق فأبدت « سنية » معذرتها من ترك اللعب . فقد كانت تشعر بصداع وترغب فى أن تنام ، فمضت إلى الحجرة على الفور ، وأردت أن ألحق بها ، فأمسك بى « الباشا » وهو يقول : اجلسى قليلا ! ...

فأطعت ... وأشعل « الباشا » لفافة تبغ ، وجعل يرسل دخانها على نحو أخاذ بديع . وطال بيننا الصمت . بيدأن « الباشا » كان يُوالينى بنظراته وابتساماته ، فلم أجد مناصا من مبادلته الابتسام .

وأخيراً قال : لقد أخبرونى بأن نعجة البستانىّ أنتجت الليلة حَمَلا .

— حملا ؟ ... أين ؟

— فى مسكن البستانى ، هناك فى الحديقة .

— وهل يسكن البستانىّ الحديقة ؟

— إن له كوخا غير بعيد .

— لم أره ، مع أنى جُبت الحديقة طولا وعرضاً ، أنا و «سنية»

— إنه كوخ مستور بين الأشجار .

— والجمـــل ؟

— يقال إنه جميل جداً !

— وددتُ لو رأيتـه ..

— إذا أردت ذهبنا الساعة إليه لنتفرج .

— الساعة ! ؟

— ولم لا ؟

— نحن فى الليل يا عمى !

— أتخافين وأنت معى ؟

— ولـكن ...

— لقد بزغ الهلال ، وهو على صغره يُضفى على الحديقة نوراً غير ضئيل ... تعالى ... لا تـكونى كسولا !

وجذبنى من يدى بلطف ، فنهضت معه ، وقصدنا إلى الحديقة ، وكان نور الهلال حقاً يرسل أشعتهالرقيقة فيبددشيئاً من ظلام الطريق . وأحس « الباشا » أحد الخفراء يتبعنا ، فأمره أن ينصرف لشأنه ...

وسار بى « الباشا » ويده دائماً مطبقة على يدى ... ومضى يروى نادرة وقعت له منذ الصِّبا فى هذه الحديقة نفسها ، إذ هرب من البيت ليلا ، واختبأ بين الأشجار لينشر الذعر فى أسرته ، ويملأ قلوبهمرعبا.

فبادرته بقولى : إذن لقد كنت شجاعا وأنت صغير .

— إن الشجاعة تلازمنى منذ عهد طفولتى .

ووقف عن السير ، ونظر إلىّ قائلا : أتحبين الشجاع ؟

فأجبت مبتسمة : إن الشجاع دائماً محبوب !

فضغط يدى ولاطفها ، ثم تابعنا سيرنا ...

وبلغنا كوخ البستانى ، وكان فى أقصى الحديقة من جهة الغرب . ولم أكن قد كشفت هذا الموضع من الحديقة حين جُلت فيها أنا وسنية .

وألفينا البستانىّ وزوجه بباب الكوخ . فما إن رأيانا وعرفانا حتى هرعا إلينا يحيّيانِنا فى تهلل واحترام .

فأسرع « الباشا » بقوله : لقد رغبت « سلوى هانم » فى مشاهدة الحمل الذى نُتِجَ الليلة ... أين هو ؟

فأدخلانا الكوخ ، ولم يكن فيه من الضوء إلاّ ما يبعثه ذلك المصباح العتيق الكدر من واهن الشعاع . وشممنا على الفور رائحة غريبة كظيمة ، هى مزاجٌ من رائحة البهائم والسماد والخبيز .

وكان الكوخ يحوى حجرتين يفصلهما حاجز قصير من البوص .

وكنا نحنى هاماتنا ونحن نسير ، خشية أن يصدمَها السقف . وكانت إحدى الحجرتين خاصة بسكنى الأسرة ، والأخرى للدوابّ والدّواجن ، ولكن لم يكن ثمة فارق بين الحجرتين !

وصاحت زوج البستانى تنادى ابنتها وتأمرها بإحضار الحمل ، وكانت وهى تصيح تجاهد فى التنقّب بخمارها ، تخفى وجهها إلا عينيها ، فيخرج الصوت حبيساً غير واضح .

وما إن تقدمنا خطوتين فى كِنّ الدواجن حتى واجهتنا ابنة البستانى وبين يديها الحمل . وكان ثغرها يفترّ عن ابتسامة لطيفة تبيناها على الضوء الخابى المنبعثِ من ذلك المصباح المغبرّ .

أما الحمل نفسه فكان تحفة من التحف ، له بشرة وردية يكسوها شعر رقيق كالديباج ، وهو ينظر إلينا على تخوّف بعينين سوداوين ناصعتين . وقد ازداد وَجَله حين هبت أسراب الدجاج ثائرة فى حماقة ،

تدفّ بأجنحتها وتتصايح . وكانت النعجة لا يفتر لها ثُغاء ، تلاحقُ ابنة البستانىّ ، وتنقّل بصرها فينا ، كأنها تسائلنا : ماذا نحن فاعلون بوليدها ؟

ولم أتمالك أن قبّلت الحمل بين عينيه، ومسحتُ على جسده الأملس وأنا أدلّله ...

ولما هممنا بالخروج ناولنى « الباشا » خفية قطعة من النقود، وهمس فى أذنى أن أمنحَ الفتاة إياها ، فاهتزت الأسرة اغتباطا بى وشكراً لى.

زايلنا الكوخ . وكان الهلال قد أشرف على الأفول .

فقال لى « الباشا » : هل أعجبك الحمل ؟

— أعجبنى جداً ...

— يمكن أن نشتريه .

ففكرتُ برهة ، ثم قلت : ولكن أمه ستلتاع لفراقه .

— إذن نشتريه هو وأمه !

فصحت : كلا ... كلا ... لا نحرم هذه الأسرة نعمتها !

فسكت وقتا ، ثم قال : فلندع الحمل إذن حتى تفطمه أمّه .

— خيرا نفعل ...

وسرنا و « الباشا » مطبقٌ بيده على يدى .

ثم وقف هنيهة وهو صامت ... فقلت : ماذا ؟

— يقولون إن الذى ينظر إلى القمر فى مستهله ، ثم ينظر فى وجه جميل ، يقضى شهرا سعيدا ... فهل تسمحين لى أن أفعلَ ذلك ؟

فابتسمت وقلت : ولكن أخشى أن يكون طالعى غير حسن !

فأخذ وجهى بين يديه ، وقال :

أيحمل هذا الوجه الصبيح غير طالع السعد والهناءة ؟ !

ونظر إلى القمر ثم حدّق فى وجهى طويلا ، فوجدتنى أرخى جفنى ، وأحسست « الباشا » يلف ذراعيه حولى ويهوى بغتةً بفمه على فمى ، ثم اندفع يحتضننى ويقبّلنى فى جموح ثائر ، وهو يهمهم بكلمات لم أستبنْ منها شيئا ... ولست أدرى : كيف تركته يصنع ما صنع ؟ وما الذى منعنى أن أردّه عنى حتى لا يتمادى ؟

وتلاقت نظراتنا . فطالعنى على الفور وجه « كبير اللصوص البحريين » بعينيه النفاذتين وحاجبيه الغليظين ، فانتظمتنى قشعريرة شديدة ، فاستخلصت جسدى من بين يديه ، وأنا أصيح قائلة :

لا ... لا ...

وما كدت أفلت حتى همت على وجهى فى مسالك الحديقة لا أعرف لى وجهة ولا قصداً . وغاب الهلال فاحلولك الليل ، ولم أستطع فى لجّة الظلماء أن أستبينَ طريقى . ولكننى كنت أجرى ، ولا أفتأ أجرى ، و « الباشا » يتبعنى قائلا : انتظرى . انتظرى . ما بكِ ؟ !

ولكننى واصلت عَدوى وأنا أرتجف ، وعرانى شىء من الذهول ، فاختلط علىّ الأمر ، وتمثل لى أن من يتبعنى ليس إلا كبير اللصوص البحريين نفسه . كبيرَ اللصوص الذى شاهدته فى الصورة يأسر العذارى بلا رحمة ولا إشفاق ! ...

وعثرت قدمى بشىء ، فانكفأت على وجهى ، وأخذت أصيح وأبكى ، وما هى إلا أن شعرت بـ « الباشا » إلى جانبى يحاول إجلاسى على العشب ، وهو يقول فى صوت متقطع الأنفاس :

ما هذا يا « سلوى » ؟ أطفلة أنت ؟

— دعنى ... بربك دعنى !

أأدعُك فى هذا الظلام ؟ لم كلّ هذا ؟... أخشى أن يكون قد أصابك مكروه .

— لا . لم يصبنى شىء .

— الحمد الله .

ثم صاح ينادى الخفير ، فجاء على عجل . فبادره بقوله :

علينا بالنور ... أسرع .

وهرول الخفير ، فقال علىّ « الباشا » يقول : حقا لم اكن أتوقع منك هذا يا « سلوى » . لقد برهنتِ على أنك مازلت طفلة !

وعاد الخفير بفانوس أو قدَتْ فيه شمعة ، فجعلت أنفض ثيابى مما علق بها من التراب . وبسطتَ منديلى أمسح به يدى ، ومضينا يتقدمنا الخفير بفانوسه ، وكان « الباشا » يسير معى جنبا إلى جنب ، ولكنه لا يلمسنى ... وسمعته يقول : أواثقة أنت أنك لم تجرحى ؟

ولم ينتظر جوابى ، وإنما أمر الخفير أن يدنى الفانوس من وجهى . وتفحصنى هنيهة ، ثم قال : الحمد لله ، لا أرى أىّ جرح !

ثم واصلنا سيرنا ، وقطعنا بقية الطريق صامتين . ولما دخلنا المنزل وجدنا « الدادة شيرين » فى البهو جالسة على مقعد ، يترنح رأسها ترنح الثمل ، فما إن أحست بنا حتى قامت إلينا وهى تمسح عينيها وتتحامل على نفسها ... فقال لها « الباشا » :

أعدى لـ « سلوى » كوبا من شراب الليمون !

فقلت له على الأثر : لماذا ؟ ... لا حاجةَ لى به .

— لتهدئى من روعك ... إنك مازلتِ مضطربة !

— كلا ...

وقالت « الدادة شيرين » تسأل الباشا : أتكون قد خافت من الظلام ؟

ــ نعم ، خافت من الظلام !

ــ إن البوم والخفافيش تعشش فى الحديقة .

والتفت إلىّ « الباشا » وهو يقول فى ابتسامة يلوح عليها الارتباك :

والآن ... أما زلت مضطربة ؟

ــ كلا ...

ــ اصدقينى !

ــ أؤكد لك ذلك .

فوقف صامتا فترة ، وهو يداعب حبات سبحته ، ثم قال :

أنت عصبية جدا « ياسلوى » ! ... يظهر أنى أخطأت فى الخروج بك من المنزل ليلا ... والآن أرجو لك نوما هانئاً .

وربّت ظهرى بيده ، ثم تركنى ومضى ، فمشيت قاصدة حجرتى مع « الداة شيرين » ، وسمعتها تقول :

إن من فى رأسه مسكة من عقل لا يخرج للنزهة فى الظلام الحالك

ــ أردت رؤية الحمل الصغير ؟!

ــ الحمل الصغير ؟!

وجعلت تتفحصنى هنيهة ، ثم صاحت : لقد توحّل ثوبك !

ــ توحّل ؟

ــ أجل ، لقد تناثر عليه الطين .

ــ زلت قدمى فسقطت !

ــ سقطت ؟ ... سبحان الله ! ... كل هذا من أجل الحمل ؟!

وتابعنا سيرنا و « الدادة » تغمغم : أصحاب العقول فى راحة ...!

٣٦

أمضيتُ ليلة قلِقة لم أذق فيها النوم إلا غِراراً . كنت أقلب المسألة على شتى الوجوه ، فتتنازعنى مختلف الإحساسات . وبالرغم مما أصابنى من أرق استيقظت مبكرة ، وقد أزمعت أمراً حزمت عليه رأيى وبنيْت عزمى ، وكانت «سنية» قد سبقتنى بالنهوض من الفراش ، فما إن وقع بصرى عليها حتى بادرتها بقولى : اسمعى يا « سنية » .

فهرعت إلىّ باسمة مشرقة المحيا ، فقلت لها على الأثر :

يجب أن أعود اليوم إلى « القاهرة » .

فغمغمت : تعودين إلى « القاهرة » اليوم ؟

— نعم يجب أن أعود !

وأمسكت يدها أضغطها ضغطاً عصبياً ، فقالت : ولكن لماذا ؟

— لأنى ... لأنى رأيت حلماً مفزعاً ... وأخشى أن يكون قد أصاب أمى مكروه !

ودخلت « الدادة شيرين » تدعونا إلى الفطور ، فأسرعتْ إليها « سنية » تقول : اسمعى يا «دادة » ... إن سلوى تريد أن تعودَ اليومَ إلى « القاهرة » لأنها رأت حلماً مفزّعا .

فقالت « الدادة » وهى تحدجنى ببصرها : أى حلم ؟

فقلت : أخشى أن تكونَ أمى قد أصابها مكروه !

— قلت لك أىّ حلم ؟

— حلم مفزع ... فيه قتل وشنْق وعذاب .

— مثل هذا الحلم يدل على الخير ... لا تنزعجى ، اطمئنى . أمك فى عافية وأمان .

فصاحت « سنية » : أمك فى عافية وأمان ... انتهى الأمر !

فقلت : كلا . كلا ... يجب أن أعود اليوم إلى « القاهرة » .

فصاحت « الدادة شيرين » :

ألا تثقين بما أقول ؟ إن تفسيرى للأحلام لا يكذب أبداً .

— إنى واثقة بما تقولين ... ولكنى أريد أن أرى أمى ... لابد أن أعود إلى « القاهرة » .

وخرجنا إلى البهو ، فوجدنا «الباشا» يدخن ويحتسى القهوة . وقد احتجب وجهه بصحيفة يطالعها ، فما إن أحس وجودَنا حتى أزاح الصحيفة عن وجهه وابتسم يحيّينا . ولاحظت على الفور أن ابتسامته تحمل طابعاً آخر غيرَ الطابع الذى ألفته منه .

وأقبلت عليه « سنية » تقول : إنها تريد أن تعودَ إلى « القاهرة »!

فنظر إلىّ «الباشا» متسائلا وقد غاضت ابتسامته على الأثر ، ثم قال لابنته : تريد أن تعود إلى « القاهرة » ! ؟

— لأنها رأت حلما مفزعا ...

ودنوت من « الباشا » وقد خفضت بصرى وقلت :

أخشى أن تكون أمى قد أصابها مكروه !

فصمتَ لحظة ، وهو يداعب حبات سبحته ، ثم قال :

أهذا الحلم يجعلك تحسبين أن أمك قد أصابها مكروه ؟

فجعلت أتأمل يدى هنيهة ، ثم قلت وأنا مازلت خافضةً بصرى :

لقد تركتها متوعكة ، ليست صحتها على ما يرام .

ثم رفعت عيني إليه أقول: وقد طلبت مني ألا أغيب أكثر من يومين.

فصاحت « سنية » : لم تخبريني بهذا ...

— أقسم لك إنها أمرتني بألا أغيب أكثر من يومين ، وشددت علي في هذا الأمر كل التشديد .

فنهض « الباشا » وطفق يروح ويجيء صامتاً . ثم وقف قبالتي ، وقال في رقة ولطف : وإذا رجوت أنا منك أن تغيري من عزمك ؟

فلم أجب ، وقد تملكتني الحيرة ، ووجدتني بعد لحظة أقول :

يؤسفني ياعمي ألا أستجيب لهذا الرجاء . إني ...

فقاطعني بقوله : بل أنت مستجيبة لرجائي .

— كان بودي أن أفعل ، ولكني لا أستطيع .

واقتربت « سنية » منا وهي تقول :

وأنا أيضاً أرجو منك ألا تصري على السفر اليوم .

فقلت لها وأنا أدعك يدي بشدة :

لا أستطيع ... لا أستطيع ... إن أمي مريضة !

فاستأنف « الباشا » جيئته وذهوبه في البهو لا يتكلم ، ونأت عني « سنية » ، قاصدة إلى صينية الفطور ، وأخذت تتلاعب بملعقة بها . أما أنا فمكثت في مكاني وقد اشتد بي الكرب ورجع « الباشا » إلى مقعده يقول لـ « سنية » : إذا كانت « سلوى » مصرة على السفر فعلينا ألا نضايقها . فإن مقصدنا أن نبهج نفسها وأن نهيء لها متعة طيبة ، ولكن يبدو أننا أخفقنا فيما قصدنا إليه .

فبادرت بقولي : أؤكد لك يا عمي أني مغتبطة بالإقامة في الضيعة كل الاغتباط ، وأني أشكر لك أجزل الشكر ما لقيت من كرم وعطف،

ولكن موقفي يتطلب .

— أعلم ... أعلم ... !

ثم التفت إلى ابنته قائلا : اذهبي فأبلغي السائق أن يعدّ السيارة للسفر ... أظنك سترافقين « سلوى » !

فقالت : طبعاً ... لا أستطيع أن أمكث هنا وحدي .

— حسناً ... اطلبي إلى « الدادة شيرين » أن تهيء الحقائب للسفر بعد الفطور !

— وأنت معنا ؟

— كلا ... إن عملي بالضيعة يضطرُّني أن أقيم وقتاً آخر . سأعود بالقطار

وخرجت « سنية » ، ونهض «الباشا» يمشيء بطيء الخطا ، واقترب مني وهو يحاول الابتسام . فخذلته شفتاه . فتابع سيره قليلا ، ثم عاد إليّ ووقف قبالتي في صمت . وبعد هنيهة قال في صوت خافت عليه مسحة الألم : أمازلت حاقدة عليّ ؟

— كلا . كلا ، أؤكد لك ياعمي أني ...

وحمي صدري بغتة بعاطفة مبهمة محتبسة ، وطفرت الدموع من عيني ، فأخفيت وجهي في يدي ، فأخذ يربت ظهري ، ثم سمعته يقول:

كل تصرفاتك تثبت لي أنك مازلت طفلة ... هدّئي من روعك. ثقي بي ... واعلمي أني حريص دائماً على إسعادك .

فكفكفت دمعي ، ثم قصدت على الفور إلى حجرتي ...

... كانت رحلتنا في السيارة من الضيعة إلى « القاهرة » طويلة شاقة، لا أنس فيها ولا مسرة . فقد قطعنا معظم المسافة في صمت لا يشوبه إلا

غمغمة « الدادة شيرين » وصياحهما بضع مرات بالسائق دون أن ندرك لصياحها سببا . أما « سنية » فكانت منزوية في ركنها تستبين الكآبة في محياها . وكانت تخالسني في الفينة بعد الفينة نظرات عابسة .

وضاقت « الدادة شيرين » بما يغشانا من صمت ، فقالت دون أن تتجه بنظرها إليّ : لم هذه العجلة في الأوبة ؟ ألم يكن يحسُن بك أن تنتظرى حتى ترى « سنية » الحمل الصغير ؟

فقالت « سنية » : الحمل الصغير ؟

فقلت : لقد نتجت نعجة البستانى حملا .

وواصلت « الدادة شيرين » حديثها :

لم تنتظر « سلوى » مطلع الصبح لتراه ، بل خرجت ليلا إلى كوخ البستانىّ في الحديقة ، والظلام دامس !

فقالت « سنية » لى : وحدك ؟ !

— ... كلا ... بل ذهبت مع « الباشا »

وقالت « الدادة شيرين » : وانقضت عليها الخفافيش والبوم فسقطت على الأرض وانزلقت في الطين !

فقالت « سنية » :

خفافيش ... بوم ... طين ... لا علم لى بشىء من ذلك !

فقالت « الدادة شيرين » موجهة حديثها إلى « سنية » :

أنت فتاة عاقلة ، تدخلين الفراش في الوقت المناسب ، ولا تخاطرين بنفسك ليلا من أجل حمل لا يستأهل كلّ هذا العناء !

فقلت في شىء من الحدّة : لقد حدث أن ذهبت، وأنا التى انزلقت في الطين لا أنت « يادادة » !

فنظرت إلىّ بوجهها اللامع ذى الأشداق المهدّلة ، وقالت :
ولكننى أنا التى غسلت ثوبكِ وكويته !
— لم يطلب منكِ أحد أن تغسليه وتكويه !
فحدّقت « الدادة » فىّ برهة وهى صامتة ، ثم صاحت بالسائق :
سق جيداً وانتبه ... إنى لا أطيق هذه السرعة ... أقسم بالله إنى سأترك لك السيارة فى أثناء الطريق إن لم تسر على مهل .
وعاد الصمت يضرب علينا رواقه ...
ومضت السيارة فى طريقها حتى ألفيتها أمام منزلى ، وكان ذلك قبيل الظهر ، وأطلق « الأسطى جميل » نفيرَه يعلن قدومى ، ورأيت بعد قليل « أم يونس » تهرول فى خفة للقائى ، فما كدت أترك السيارة حتى احتضنتنى طويلا فى حنان بالغ ، وهى تغرق فى الترحيب بى .
وسمعت « الدادة شيرين » تقول : لقد كانت أياما ثلاثة ، ثلاثة فقط يا « أم يونس » ... فماذا تفعلين لو كانت أعواما ثلاثة ؟ !
فقالت « أم يونس » وهى تحدق فى وجهى والبشر يغمر محياها :
عجباً لك ... أنسيت أنها ابنتى « سلوى » ! ...
فانحنيت عليها أقبلها فى تودد وحنان ، ثم عدت إلى السيارة ثانية أودع « سنية » و « الدادة شيرين » ... فقالت لى « سنية » وهى تطل من نافذة السيارة : متى تحضرين لزيارتى ؟
فأجبت فى ابتسامة سانحة : ألم تضيقى بى ؟
— أنا ؟ ... ما هذا الكلام ... ستحضرين غداً ؟
— غداً ؟ ... كيف يكون هذا ؟
— بعد غد .

ــ أعدُكِ أني لن أغيب عنك طويلا ... إلى اللقاءِ يا سنية ، ».
أجزل شكر على ضيافتك الكريمة ...

وصافحتُ « الدادة شيرين » أو دّعها ، فحيّتني وهى صامتة ، لم يفارق العُبوس وجهها .

دخلتُ المنزل و « أم يونس » خلفى تحمل الحقيبة ، ولسانُها لا يكف عن الثرثرة ، فقلت لها : أين أمى ؟

ــ فى حجرتها !

ــ أمريضة هى ؟

ــ كلا . ولكنها كسلانة !

ــ لعلها أطالت نومها اليوم ...

فأشاحت بوجهها عنى وهى تقول : حر هذه الأيام لا يُطاق ! وربما باتت لياتها مؤرقة ، لم تنم إلا خَطفا !

وانتهى الحديث فى هذا الموضوع دون إطالة . فإن « أم يونس » انهالت علىّ تسألنى عن الضيعة وما شهدتُه فيها .

واستقبلتنى أمى فى الردهة العليا ، إذ أعلمها نفيرُ السيارة بقدومى . وبعد أن تبادلْنا القبلات ، أخذت بى إلى المتكإ لجلسنا .

ثم قالت : أعُدْتَ وحدك ؟

ــ بل عادت معى « سنية » و « الدادة شيرين » .

ــ هيه . هل أعجبتك الضيعة ؟

ــ لا بأس بها !

ــ لا بأس بها ؟ كيف ؟ ألم يرقك المنزل ؟ أكان الطعام رديئا ؟!

ــ كلا ، لقد كانت الحياة هناك غاية فى الدعة . المنزل مريح ،

و « أم نجم » العجانة كانت تطهو لنا طعاما شهيا . وقد تنزهنا فى الحديقة ، وطفنا فى الحقل ، ولعبنا فى بيادر القمح .

— إذن لماذا لم يسرّك المقام هناك ؟

— وهل قلت لك إنى لم أكن مسرورة ؟

تحدّقت أمى هنيهة فى وجهى ، ثم ضحكت وهى تقول :

أحدثّ بينك وبين « سنية » أمر ؟ !

لا ... لا ...

— ولكن « سنية » كانت معتزمة أن تقيم أسبوعا .

— لقد فضلت أن تعود معى .

— ولماذا لم تمكثى معها بقية الأسبوع ؟

— ألم تطلبى إلىّ أن أعود بعد يومين ؟

— أذلك ما حفزكِ على أن تعودى ؟

فسكتّ ، وطأطأت رأسى ...

وسمعت أمى تقول بعد لحظة : أخبرينى ماذا جَرى ؟

— ماذا جرى ؟ ... لم يجر شىء !

— اسردى لى كل شىء ... كل شىء .

فتوقفت عن الكلام هنيهة ، ثم قلت : لقد قضيت الأيام الثلاثة على أحسن حال ، لم يكدرها إلا ما كان من صنيع « الباشا » معى البارحة .

— « الباشا » ؟ ... البارحة ؟ ! ... وهل كان « الباشا » هناك ؟

— قضى معنا يومين كاملين ...

— وماذا كان منه معك ؟

— أساء الأدب قليلا ...

ـــ أوضحى ...

ـــ ولكننى ألزمته حده. لقد رفعت يدى فى وجهه وكدت أصفعه !

ـــ تصفعينه ... لماذا ؟

ـــ لأنه حاول تقبيلى .

ـــ حاول تقبيلك ؟ ... هو ؟ ... ويحه من وغد ! كان علىّ أن أحذّرك من كل هذا ... ولكن أنىّ لى أن أعلم ؟ !

ـــ لا عليك من شىء ، فقد عرّفته ماذا يجب أن يكون موقفه منى ، فأصبح الآن كالقط الذليل !

ـــ ولكن كيف تم ذلك؟

ـــ كنا نتنزه فى الحديقة ليلا، فانطلق يُشيد بمحاسنى ، وأنا أحاول قطعَ حديثه ، وبغتة طوّق خصرى ، وهم أن يقبّلنى ، فدفعته عنى فسقط على الأرض . فقصدت المنزل متمهلة لا أبالى .

ـــ وهو ... ماذا فعل بعد ذلك ؟

ـــ لقد اعتذر لى من هذه الفعلة ، وأقسم إنه لن يعود لمثلها . ثم جعل يترضانى ويتوسل إلىّ أن أعفو عنه

فصمتت أمى ، وقد انسرحت تفكر ، ثم غمغمت : حسنا فعلتِ !

وقامت تسير الهوينَى إلى حجرتها .. وما كادت تصل إلى الباب حتى عادت أدراجها إلىّ تقول : خذى من هؤلاء الناس حذرك ، ولا تغترى بما يبدون من زائف الود ... إن « الباشا » يحبك كما يحب السيد تابعه ... إن أمثاله يعدوننا دونهم مقاماً وكرامة . وإنهم ليسمحون لأنفسهم أن يراودونا على كل شىء تشره إليه شهواتهم ، لا يقيمون لشرفنا وزنا ... حسنا فعلت !

صحوتُ من نومى صباحَ غد ، وما لبثتُ أن رأيت «أمّ يونس» تدخل علىّ فى حجرتى ، ووجهها يفيض بشراً وهشاشة ، فأعلمتْنى بأن هدايا ثمينة وصلت إلىّ من ضيعة «الزهيرى باشا » فقلت لها على الأثر : أيّة هدايا ؟ ...

ــ هدايا فخمة ... أربع صفائح سمن ، وأربع من الجبن والعسل ، وعشرون زوجا من الدجاج ... أتسمعين ؟ ... لابد أن أدبر على وجه السرعة كنّاً لهذا الدجاج فى ركن من السطح

فغمغمتُ ، وشعرت بقلبى يتابع خفوقه : ما معنى هذا ؟

ــ حقاً إنك غريبة الأطوار يا « سلوى » ! ... أتعجبين من وصول هدايا أرسلها والد حبيبتك «سنية» ؟!

ــ وهل أعلمت والدتى ؟

ــ لقد تركتها تعدّ الدجاج ...

وخرجت من فورى فألفيت أمى فى المطهى معنية بهذه الهدايا . فما إن رأتنى حتى ابتسمت لى وهى تقول : مباركٌ !

ــ مباركٌ ... لماذا ؟

ــ ألا ترين هدايا « الزهيرى باشا » ؟

ــ يجب أن نردّها إليه .

فقالت فى هدوء ، وهى تشير إلى واحدة من الدجاج :

انظرى إلى هذه الدجاجة ... لم أرَ فى حياتى أسمنَ منها !

ثم مالت عليّ تقول : إنه يريدُ أن يترضّانا !

ـــ قلتُ لك يا أمى يجب أن نَرُدّ إليه هداياه

ـــ يريد المغفل أن يترضّانا...

ثم أطلقت ضحكةً عالية ، وأتمت قولها :

ولكننا لسنا متخاصمين ... أخاصمته أنت يا « سلوى» ؟ !

ـــ وفيم هذا الكلام يا أمى ؟ سأذهبُ إلى « سنية » أخبرها بأننا لسنا فى حاجة إلى هذا السمن والدجاج وما إليه .

ـــ اتركى هذا الأمر أتصرّف أنا فيه بحكمتى .

ـــ وماذا أنت صانعة ؟ .

ـــ سأقبلُ الهدايا.

ـــ وماذا بعدُ؟

ـــ لا شىء ... إذا لقيته فأحسنى لقياه ... ابتسامة لطيفة ... كلمة ظريفة ... أهلا وسهلا بسعادة «الباشا» !

ـــ ماذا تقصدين ؟

ـــ أقصُد أن نلهو به ياغبيّة . . فنستفيد منه دون ان ينال منا منالا ، فشرفنا مصون لا يمسّ !

ـــ هذا يقتضى أن أكون ذات وجهين .

ـــ أرجو منك ألا تتفلسفى يا « سلوى» ...

ـــ لا أستطيعُ أن أقوم بتلك المهمة البغيضة !

ـــ إنه يريد أن يخدعك ، فلماذا لا تسبقينه أنت فيكون هو المخدوع ؟ أتنكِرين أنه متيم بك ، متدلّه بحبك ؟!

ـــ أمى ...ما هذا القول ؟

ـــ لست صغيرة يا «سلوى» ... إنك تفهمين ما أعنى ... « الباشا» يرضى أن يبذلَ فى سبيلك أثمن ما عنده ، وهو لا يؤثر على مرْضاتِـك أى شىء ... فلماذا تدعين الفرصة تُفلتُ منك ؟ إنك لن تخسرى شيئاًمعه حتى قلامة ظفر . يجب أن أن تفهمى الرجال كما هم يا «سلوى» إنهم خداعون أشرار ، ولـكنهم مع ذلك مغفلون بُله .

واندفعتْ تضحك ، وجاءت « أم يونس » ، فأمرتْها والدتى أن تتولى وضع الهدايا فى أماكنها .

وفى المساء وردتنى رسالة من « إنجلترا » تسلمتها بيدى من ساعى البريد ، فذهبتُ على الفور أختلى بها فى حجرتى ، وشرعت أقرأ :

« عزيزتى سلوى » ...

هل تسمحين لى بأن أدعوكِ « عزيزتى » ؟ إنها جُرأةٌ منى فأستميحك قبولَ المعذرة ... »

ووضعت الرسالة جانباً ، واندفعت أضحك، ثم عدت إليها أستأنف القراءة : « إنى اليوم جدّ سعيد . سعيد بحياتى الجـديدة . أنظر إلى المستقبل ، فيتراءى لى باسماً يتألّق . ولم تُطوّعْ لى نفسى أن أحبس هذه السعادة بين ضلوعى أستأثر بها ، فأردت أن أكتب إليك لتشاركينى إياها . إننى أعيش الآن فى إحدى ضواحى « لندن » : بلدة خلوية ، تـكتنفها الحدائق من كلّ جانب ، حدائق كأنها بساط سندسىّ ممدود لا يدرك له آخر . أما المنـازل فموفورة الحظ من حسن الذوْق والأناقة والراحة ، لكل منزل حديقة بديعة يتولى أمرها سكان المنزل أنفسهم ، فهم البستانيون، وقد انضممت إلى أسرة فى أحد هذه المنازل ، أقضى وقت فراغى فى الحديقة أفلح الأرض وأغرس الأزاهير وأمارس

تلك الرياضة المحبّبة... أما الأسرة التي أسا كنُها فتتألف من أب وأمّ وابنتهما الوحيدة ، وهي فتاة خطبها لنفسه طالبٌ في جامعة « لندن » يتحلى بمكارم الأخلاق ... وإن تلك الأسرة لتمثّل الأسر الإنجليزية الصميمة المتحفظة التي لاتنسيها مسايرتها لروح العصر الحديث أن تستمسك بتقاليد الجدود وطابع الماضي ... »

ودخلت « أم يونس » في هذه اللحظة ، ودنتْ مني تقول :

أراهنُ على أن رسالة وردتك من بلاد الإنجليز !

— لم يخطيء حدْسك !

— ولكن كيف لم أتسلمها من ساعي البريد ؟ لقد شدّدتُ عليه في أن ...

فقاطعتها قائلة : لقد أرحتك من هذه المشقة !

فأطالت النظر فيّ ، ثم قالت مغمغمة :

وماذا يقول « الدكتور » في رسالته ؟

— لقد بدأ الرسالة بقوله : « عزيزتي » .

— هذه جرأة .

فضحكت وأنا أقول :

إنه يعترف بأنها جرأة ، ويستميحني أن أقبل معذرته .

— حسناً فعل .

ثم التفتّ إلى الرسالة ، وجعلت أعبر بعيني ما بقي فيها من سطور يصف بها الطريق من «لندن» إلى الضاحية ، ثم اختتم رسالته بقوله :

« والآن هل لي أن أسألكِ عن حالك . كيف تعيشين ؟ وماذا تعملين ؟ اكتبي لي كل شيء ؛ وبوحي لي بمكنون نفسك . شدَّ ما كنت

أود أن أكون بجانبك .

تقبّلي من أعماق قلبي أطيب تمنياتي ؟ المخلص

داود فهيم

حاشية : تجدين عنوانى فى أعلى الرسالة » .

وجعلت « أم يونس » تكرر على مسمعى قولها :

ماذا يقول ؟ ... ماذا يقول ؟

فجعلتُ أهزّ الرسالة فى يدى وقلت :

أما فى الختام فهو يبعث إلىّ بأطيب التمنيات !

وانطلقتُ أضحك ، فقالت أم « يونس » .

وماذا كنت تريدين أن يبعث إليك ؟

— إن «شريف» يبعث إلى « سنية » ما هو أرقّ من التمنيات !

— ماذا تعنين ؟ ... لعلك تقصدين أنه يبعث إليها بالأشواق الحارة والقبلات العطشى !

— لم أقصد شيئاً ...

— إنه خاطبها ... وله أن يبعث إليها مايشاء .

— حقا لم أكن أعلمُ أنك متضلعة هذا التضلع فى أدب الرسائل، ومايليقُ منها لكل مقام !

— مهما يكن من أمر فإنى أرى « الدكتور فهيم » رجلا متعقلا رزينا يزن مايقول ، ولا يتعدّى مايجب .

— حقا ... ومن العقل والرزانة أن يخبرنى بأنه يفلح الأرض ويغرس الأزاهير فى حديقة منزله الجديد !

— يفلح الأرض ويغرس الأزاهير ؟

ــ وأن من بين أفراد الأسرة التي يساكنها فتاة في ريعان الشباب!
ــ يظهر أنك اليومَ مهتاجة الأعصاب يا « سلوى » !
ــ أنا ؟ أنا مهتاجة الأعصاب ؟ !

وانطلقت أتضاحك ، وخرجتْ « أم يونس » تجرّ نفسها متثاقلة .

ولما جنّ الليل رجعت إلى رسالة « الدكتور فهيم » أبسطها أمامي على الخوان ، وأعيد تلاوتها ، ثم أخرجت ورقاً واعتزمت الكتابة إليه . وبعد أن روّيت في الأمر طويلا مضيت أكتب :

« عزيزي الدكتور فهيم »

ولكني ما كدت أفرغ من هذه الجملة حتى شطبت عنها فأجريت عليها خطاً ، وسرعان ما مزّقت الورقة وأنا أغمغم : بأيّ حق أدعوه « عزيزي » ؟

وكتبت في ورقة أخرى : « حضرة الدكتور داود فهيم » .

ولم ترقني هذه العبارة ، فألحقت هذه الورقة بأختها الأولى ، وأسرعت أكتب في ورقة ثالثة : « حضرة المحترم الدكتور داود فهيم » .

وحدّقت برهة في الجملة ثم غمغمت : كأني أكتب التماسا لرئيس محكمة!
فجعلت أمزق الورقة شر ممزق ، وألفيتني أكتب في ورقة جديدة :

« عزيزي الدكتور داود فهيم » .

لقد دعاني بقوله « عزيزتي » ، فمن الأدب اللائق أن أدعوه بمثل ما دعاني به . واطمأننت إلى هذا الرأي ، وأخذت أسطّر الرسالة ، وكانت أفكاري مهوشة ، وعباراتي غير طلّية ، فلم أجدْ بدّاً من تمزيق الورقة ، وألقيت بالقلم جانبا ... سيضحك بلا شكّ من أسلوبي العربي الركيك وخطّي السقيم ، وسيعثر على أغلاط لا حصر لها في الإملاء ...
لماذا يريد مني أن أكتب له ؟ ! ... كان يجمل به أن يصطفي لمودّته

ومراسلته آلية تحسن الكتابة ...

وقمت من فورى إلى النافذة أتطلع إلى عنان السماء وقد تحجبتْ بأستار الدجى ، وبدت نجومها شاحبة النور ... أعلىّ أن أستعين شخصاً آخر يدبّج لى رسائلى ؟ ... إنه يريدنى أن أصف له بإسهاب أسلوب حياتى . أيريدنى أن أقص عليه ما كان من أمر « الزهيرى باشا » معى ؟ أية فائدة فى أن أحكى له ما جرى ؟

ولبثت حيناً أحدق فى عرْض الأفق ، ثم شعرت أخيراً بدمعة ترفضّ من عينى ، وتنحدر على خدّى ، فأسرعت أكفكفها .

وفى مستهلّ الصبح أعلمتنى « أم يونس » بأن « حمدى » قد حضر . فنزلت على الفور أستقبله وأنا أعجب لهذه الزيارة المبكرة . وكانتْ أمى لم تصح من نومها بعد .

ووقعتْ عليه عينى فى حجرة الزوّار يذرعها مضطرب الخطا ، وما إن رآنى حتى أقبل علىّ متهلل الوجه ، وقال :

باركى لى يا « سلوى » ... باركى لى ...

— مباركٌ يا « حمدى » ... ماذا وراءك ؟

لقد عيِّنت فى وزارة المعارف بمرتب قدره عشرة جنيهات . عُهد إلىّ فى تدريب الفرق الموسيقية والإشراف على حفلاتها . إن العناية الإلهية ترعانى .

— مبارك ألف مرة !

وشددت على يده أهنئه ...

وراح يمسح وجهه المتفصِّد عرقاً . وقال : عشرة جنيهات ... عشرة جنيهات فى الشهر . وهذه فوق الخمسة الأخرى التى أتقاضاها مما ألقيه

من الدروس الخاصة. إن دخلى الآن يبلغ خمسة عشر جنيهاً. ما رأيك؟!

— دخل طيب !

— إنه ييسر لى أن أحيا حياة هادئة ... ولا تنسى أن صديقى الذى كان له الفضل فى إلحاقى بهذه الوظيفة قد وعدنى بالعمل على زيادة مرتبى ... ما رأيك ؟ ... ما رأيك ؟

واندفع يدعك يديه فقلت له : كل هذا حسن يبشر بمستقبل مزهر.

— أليس كذلك ؟ ... إن مستقبلى مأمون ... ولكن أمراً واحداً يضايقنى ... تعلمين أنى وحيد أعيش عيشة مملة ، فأنا أهفو إلى أن تكون لى أسرة !

وكسر من عينيه ، وجعل يدعك يديه بشدة .

فقلت له ، وقد لاحظت أننا كنا نتحدث واقفين : ألا تجلس ؟

فجلس صامتاً ، ثم استأنف يقول : لقد جئت لأنهى إليك نبأ تعيينى فى الوزارة ، لأنى أعلم أنه نبأ يسرك كل السرور !

— ليس فى ذلك من شك ...

— ما كان لى وقد أتيحت لى هذه المسرة أن أستأثر بها وحدى ، وألا تكونى شريكتى فيما أحس من بهجة .

— حسناً فعلت .

وابتسمت على الأثر ، وقد تذكرت جملة كتبها « الدكتور فهيم » فى رسالته تماثل هذه الجملة . وسمعت « حمدى » يقول : سأعنى بشأن الدار التى أسكنها ... أطلى حجرها بطلاء جميل ، وأجلب لها أثاثا منتقى ... سأجددها حتى تكون مقاما طيباً لأسرة هانئة !

وأمسك بيدى يضغطها قائلا : ألست فى هذا القول على صواب ؟

— على أتمّ صواب ...

— أهذا كل ماعندك من جواب ؟

— وماذا تريد منى أن أزيد ؟

— أنت تفهمين بغيتى. تفهمينها حقّ الفهم. ولكنك لاتصارحين .

— ماذا تقصد ؟

— أنت تعذبيننى يا « سلوى » ... شدّ ما أنت قاسية !

— لاتكن عجولا يا « حمدى » .

— إذاً أنت ترفضين .

— لا أملك الرفض ولا القبول ... إن أمى ...

فقاطعنى بقوله :

أتظنين أن أمّك تأبى أن تزوّجك إياى ؟

— هذا مالا أستطيع الجزمَ به ...

— ولكن عواطفك ... عواطفك أنت !

— أو تجهل عواطفى نحوك ؟

— إن قلبى يؤكد لى أن عواطفنا متلاقية ... شكراً لك ...
شكراً لك ...

واندفع يقبل يدى ، ثم نهض قائلا :

اتركى هذا الأمر لى. سأدبر له خطة موفقة تبلغ بنا الهدف المنشود!

وحيانى متهللا ، وانصرف حثيث الخطا .

وأحضرت « أم يونس » القهوة ، وهى تقول :

إن موقد « الغاز » متعطل ، فاضطررت أن أستعير موقد « الست فتحية » ... هل تأخرت طويلا ؟

— لا بأس . أعطيني القدح لأشربه أنا . لقد خرج « حمدى » .

وتناولت قدح القهوة ، وجعلت أحتسيه على مهل ، ثم قلت لـ « أم يونس » :

أتقدرين أن خمسة عشر جنيها تكفل الحياة السعيدة لأسرة ؟

فتأملتنى المرأة هنيهة ، ثم قالت :

إن « بهجت أفندى » الموظف الذى يسكن غير بعيد منا يتقاضى مثل هذا المرتب ، وهو يحيا به حياة طيبة .

فناولتها قدح القهوة ، وقلت مبتسمة :

أظن أن هذه الجنيهات الخمسة عشر لا تكفى يا « أم يونس » لأن تشترى بها الزوجة التى تكرم نفسها معطفاً لائقاً !

٣٨

تقضّت أيام ، وجلست يوما فى الظهيرة إلى المائدة أتناول الغداء مع أمى . وما إن فرغنا من الأكل حتى هممت بالعودة إلى حجرتى ، فقالت لى : انتظرى قليلا ... أريد أن أسرّ إليك نبأ ...

ــ أىّ نبأ ؟

ــ يقولون إن « الباشا » سيزورنا عصر اليوم !

حدقت فيها وأنا أغمغم : « الباشا » يزورنا !

ــ إنه لحادث عظيم ... يحقّ لك أن تدهشى له ... ألم تكونى على علم به ؟ !

ــ ومن أين لى أن أعلم؟! ... ولكن أخبرينى: فيم هذه الزيارة؟

ــ إنه على أية حال لايقصدنى بزيارته .

ــ إذاً من يقصد ؟

ــ هدئى من صوتك شيئا .

ــ أنا هادئة الصوت ... ألا يحق لى أن أسأل : لمن تكون هذه الزيارة ؟

ــ ألم تزوريه فى منزله ؟ . . . وفى ضيعته ؟ . . . إنه يرد إليك زيارتك . أفى هذا غرابة ؟

ــ لقد كنت أزور ابنته .

ــ وإنه يحضر نائبا عن ابنته لرد الزيارة !

ــ أمى . . . أضرع إليك !

ــ أنا التى أضرع إليك أن تكونى هادئة .

فصحت قائلة : إنى هادئة . هادئة . لقد أكدت لك ذلك ... ولكنى لن ألقى « الباشا » .

ــ شخصٌ له مقام ملحوظ ، يرسل لنا هدايا ثمينة ، ويتفضل علينا بزيارتنا ، أفنأبىَ أن نلقاه ؟

ــ أنت صاحبة البيت يا أمى ، فعليك أن تلقيه أنت !

فأشعلت أمى لفافة تبغ ، وجعلت تنفث دخانها لحظات فى صمت ، ثم أقبلت علىّ تقول : أهذا رأيك الأخير ؟

ــ نعم !

ــ إذاً سألقاه وحدى .

ــ لا بأس .

ــ يجب يا « سلوى » أن يجدَ فى المنزل من يرحب به ، ويشكر له ما خصّنا به من هدايا !

فتضاحكت قائلة : هدايا ... ألم أروِ لك ما وقع منه ؟ !

ــ شىء لا يستحقّ الذكر ، كل الرجال تقع منهم أمثال هذه الهفوات . ولقد أسلفت لك وجهةَ نظرى فيما جرى ، فلماذا تعاودين الكلام فى هذا الموضوع ؟

ــ ووجهة نظرى أنا ؟

ــ أنت ما زلت صغيرة تفتقرين إلى من يهديك السبيل !

ونهضت أريد الانصراف ، فقالت :

لا عليك من شىء ... سألقاه أنا وحدى .

ووقفت أمى تترك المائدة ، فصعدت توًّا إلى حجرتى .

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر جاءتنى أمى ، وكانت مرتدية أبهى أثوابها ، متخذة أتم زينتها ، يضوع العطر منها . فلم تنظر إلىّ بل قصدت إلى المرآة تديم التحديق فيها وتلملم شعرها . وما سمعتها تنبس ببنت شفة . وما هى إلا أن دقّ جرس الباب ، فهرولت أمى من فورها إلى النافذة وأطلت منها ، ثم عادت عجلى إلى المرآة لتلقى على خيالها آخر نظرة ، وقالت لى دون أن تواجهنى :

مرى « أم يونس » أن تحسن عمل القهوة ، وأن تتخير الأقداح الجديدة ... وأن تعنى بنظافة الأشياء كل عناية ...

وخرجت تسرع الخطا ... وظللت لحظة أنظر إليها حتى غيبها الدرج ، ثم قصدت إلى « أم يونس » ، وأنهيت إليها ما كلفتنى أمى إياه وعدت إلى حجرتى ، وألفيتنى بعد هنيهة أقوم إلى صوان ملابسى وأنتق منه ثوبا ، وسرعان ما ارتديته ، وجعلت أزين نفسى وأصفّف شعرى متعجلة ، ووجدتنى أهبط الدرج إلى بهو الطبقة الأولى ، وكنت معتزمة أن أضبط نفسى ، وألا يبدو منى شىء يغاير المظهر الطبيعىّ ، ولكنى على الرغم منى شعرت باضطراب يفاجئنى ، وأحسست قلبى دائب الخفقان .

ودخلت الحجرة ، فألفيت « الباشا » ينهض من فوره يستقبلنى بوجه تكسوه البشاشة ، وعلى فمه ابتسامة رقيقة ، وفى عينيه لمعة هادئة ، ومدّ يده إلىّ مصافحاً ، فمددت له يدى أبتسم ، واتخذت مقعدى بجوار أمى ، وعاد هو إلى مكانه عن كثب من أمى فى الناحية الأخرى ، وقال موجهاً حديثه إلىّ : قدمت لأطمئن عليك وعلى صحة والدتك ...

فقالت أمى : صحتى ؟

فقال « الباشا » :

كانت « سلوى » قلقة من أجلك ، فلقد رأت حلما أزعجها .

والتفت إلىّ قائلا : كنتِ مسرفة فى ظنونك ... أليس كذلك ؟

فقالت أمى : إن « سلوى » كثيرة الهواجس ، وهى شديدة التعلق بى

فقال « الباشا » : إنها تحبك أقصى الحب .

فقالت أمى فى صوت رقيق النبرات : وأنا أيضاً أحبها .

— إنها لهذا الحب أهل .

فابتسمت أمى قائلة : « سلوى » فتاة لا بأس بها ...

— لا بأس بها ؟ ... أذلك كل ما تصفينها به ؟ إنها مثل كريم الأخلاق العالية . أقسم لك إننا لو فتشنا « مصر » كلها لما وجدنا من يعادلها أدباً وخلقاً وجمالا

فنظرت إلىّ أمى ، ثم قالت « للباشا » : أشكر لك يا « باشا » . إن لشهادتك عندى أكبر شأن . إنها خير مكافأة لى على ما قمت به نحوها من واجب الأمومة .

— لم أقل إلا الحقّ ... وإنى أهنئك بهذه الدُّرَّة !

والتفت « الباشا » إلىّ ، وقال مخاطباً أمى :

إنها لا تجاذبنا أطراف الحديث .

— ربما كان ذلك حياء وخجلا مما تسبغه عليها من كرم بالغ ، وعطف موفور .

— أخشى ألا أكون قد أدّيت ما يجب لها حين شرفتنا بزيارة الضيعة

— لقد أخبرتنى بأنها لقيت من الرعاية والإكرام ما يفوق الوصف .

وفى هذه اللحظة دخلت « أم يونس » بالقهوة . وأخذ « الباشا » قدحه ، وجعل يترشّف منه جرعات ، ثم قال : كنت أمس فى محل «الكوكب» الخاص ببيع أجهزة «الرّاديو» فأرانى صاحب المحل جهازين من طراز «النجوم الثلاثة» وأكدلى لى أنه لانظير لهما فى «مصر» كلها . وأطراهما كلّ الإطراء ، فابتعتهما منه ، وقد قدمت واحداً لـ «سنية» . أما الآخر فيسرّنى أن أقدمه لـ «سلوى» !

فقلت على الأثر: جهاز «رَدْيو» ؟ !

وأسرعت والدتى تقول :

هذا كرم عظيم يا «باشا» ... لاندرى بأى لسان نشكره لسعادتك ؟

— لا شكرَ على الواجب يا « هانم » ... إن لـ « سلوى» فى قلبى مثلَ مكانة ابنتى .

وكانت « أم يونس » تحمل صينية القهوة ، وتقف بها عند الباب ، فالتفت إليها «الباشا» قائلا :

اذهبى إلى « الأسطى جميل » فاطلبى منه أن يأتى بـ « الرّاديو » .

فانصرفت « أم يونس» لهذا الغرض ، ووجّه إلىّ «الباشا» قوله :

لقد جربته فألفيت صوته واضحاً ، تستطيعين به أن تسمعى كل مراكز الإذاعة فى العالم ... لقد ظلت « سنية » بجانبه هزيعاً من الليل تستمع إليه ولا تريد أن تتركه .

فقالت أمى على الفور:

ألم يكن عند «سنية هانم » جهاز «رَدْيو» من قبل ؟

فتلكأ « الباشا » قليلا ثم قال : لديها جهاز آخر ، ولكنها أظهرت من الحفاوة بذلك الجهاز الجديد ما لم تكن تظهره بالجهاز القديم ...

لقد أصبح « الراديو » من حاجات العصر الحديث التى لاغنية لأحد عنها، أليس كذلك يا « سلوى » ؟

وكان لسانى لايطاوعنى على الكلام ، ولكننى غالبت نفسى وقلت: دون شك .

وجاء « الأسطى جميل » بـ « الراديو » وأخذ يخرجه من صندوقه فإذا به أفخم جهاز وقعت عليه عينى ، فقلت مغمغمة : ما أجمله !

وسمعت « الباشا » يقول : يسرنى أن يكون قد أعجبك ...

فقالت أمى :

كيف لا يعجبها؟... إنه تحفة رائعة ... ألف شكر يا « باشا » .

فقال الرجل :

سأرسل لكم غداً مهندس «الراديو» ليضع السارية ويتخذ مايلزم.

وخرج « الأسطى جميل ». أما « أم يونس » فقد وضعت الصينية جانباً ، وأقبلت على « الراديو » تتفحصه بعين ملؤها التطلع والدهشة ، فقال «الباشا» لى وهو يضحك : يجب أن تسمعيها الأغانى التى تروقها !

فابتسمت وقلت: سأفعل ... !

وقام « الباشا » مستأذناً فى الانصراف ، فشيعناه حتى الباب .

وهناك أمسك يدى قائلا .

إن « سنية » دائمة السؤال عنك . لماذا أبطأت فى زيارتها ؟

فقلت : سأفعل ...

— قريبا ؟ ...

— أرجو أن يكون ذلك قريباً .

وحيّا « الباشا » والدتى تحيــــة بالغة الرقة ، وانطلق مبسوط

(١٤)

القامة ، فقىّ الخطوات ...

وأغلقتْ والدتى الباب ، ثم دنت منى تقول :

ماذا ترَيْن ؟ إنه آية فى الظـّرف والأدب !

فقلت فى غير تكلف:

لا اعتراض لى على ما ترَيْن .

وفى ضحوةِ غـد جاء مهندس « الرديو » لينصب السارية َويضع الأسلاك ، فأخبرَته أمى بأن الجهاز سيكون فى حجرتها ...

وسمعتها تغمغم أمام « أم يونس » قائلة :

إن مثلَ هذا الجهاز لايترك فى أيدى من لايقدّره ، ولايعرف كيف يدبّره ! ...

٢٩

تواصلت أيام أسبوع لم يقع فيها شيء يستحق الذكر . وكانت أمي قد استحوذت على «الرديو» واحتكرته لنفسها . ولم تدعنى إلا مرة واحدة للاستماع إليه ، ولكننى كنت أغتنم فرصة خروجها فأذهب إلى حجرتها مع « أم يونس » ، نزجى الوقت بجوار «الرديو» نستمع إلى مختلف الأغانى والأحاديث . وحمل إلىّ يوماً « الأسطى جميل » رقعة من « سنية » تقول لى فيها :

«ما كنت أتوقع منك أن تهملينى إلى هذا الحد . أنا مريضة منذ أيام. هل لك فى أن تحضرى لنقضى اليوم معاً ؟ السيارة رهن إشارتك » .

ورأيت من اللائق أن ألبّى دعوتها ، فأخبرت «أم يونس» بالأمر لتنهيه إلى والدتى حين تحضر ، وغادرت المنزل على الفور .

أقلتنى السيارة إلى منزل «الزهيرى باشا» فصعدت تواً إلى حجرة « سنية » فألفيتها فى فراشها ، وعلى مقربة منها أبوها يجلس على طرف السرير ، فدنوت منه وحيّيته بأدب ، واتجهت نحو « سنية » فألفيتها ممتقعة بادية الهزال ... ومدّت إلىّ يدها فى شغف تمسك بيدى ، ثم مسحت عينيها النديتين ، فاحتضنتها وقبلتها ، وسمعت «الباشا» يغمغم :

إنها ثائرة الأعصاب... ثائرة الأعصاب !

ونهض «الباشا» تاركاً لى مكانه على السرير ، وجلس على مقعد غير بعيد ، وقلت لـ «سنية» وأنا ألاطف يدها : لم أكن أعلم أنك مريضة.

فقال «الباشا» :

لقد لزمتُ الفراش منذ صباح اليوم الذى زرتك فيه .

وقالت «سنية» وقد لمعت عيناها سروراً : هل أعجبك «الراديو»؟

— كل الإعجاب .

فقال « الباشا » :

هل سمعت الإذاعات الأوربية : (لندن) .. (باريس)...(روما)؟.

— سمعت بعضها ...

وقالت « سنية » : أليس الصوت واضحاً ؟

— كل الوضوح ...

- إنه تسليتى فى مرضى . أتريدين أن أديره لك ؟

ولم أفطن إلى أن جهاز « الراديو » فى الحجرة ، فالتفتُّ حيث أشارت « سنية » ، فوجدته عن كثب من النافذة ، فقلت لـ «سنية» : لنستمع إليه معاً .

وقام « الباشا » يعالج مفاتيحه ، وبعد قليل انطلقت الموسيقى تعزف ، فأصغيت إليها ، وما لبثتْ « سنية » أن صاحت :

إن هذا اللحن مزعج ... مزعج جداً ...

فأدار « الباشا » أحد المفاتيح ، فسكت الجهاز ، وقالت «سنية» :

خير لنا أن نلعب بالورق ... أليس كذلك ؟

فقلت : كما تشائين .

وأخرجت « سنية » ورق اللعب من تحت وسادتها وبدأت تقلبه وتقدم « الباشا » من السرير قائلا : ألستما محتاجين إلى شريك ؟

فقالت « سنية » : تعال يا أبى ...

وأدنى مقعده منا ، وأخذنا نلعب ، ورأيت « مدموازيل شانتل ».

تدخُل وفى يدها صحفة حساء ، فما إن وقع بصر « سنية » عليها حتى صاحت : كلا . كلا . لا أريد .

وزَهرتْ عينا «مدموازيل شانتل» دون أن تفوهَ بكلمة واحدة، ودنت من السرير تبسُط الفوطة وتقرّب صحفة الحساء من « سنية » فدفعتها «سنية» دفعة كادت تلقى بالصحفة على السرير ، لولا أن تمالكت « المدموازيل » وضبطتْ الصحفة بيديها ...

وكانت « سنية» لا تفتأ تصيح بقولها : لاأريد الحساء . لاأريده .

فأخذت « المدموازيل » تبرطم ، والشرر يتطاير من عينيها قائلة: هذه أعمال أطفال ... يجب أن تشربى الحساء .

ووضع « الباشا»ورق اللعب جانباً ، وقام مكفهرّ الوجه،فأمسكت بيده « سنية » وجعلت تكرّر :

لا أريد أن أشربَ هذا الحساء يا أبى ... إن طعمه كريه .

— ولكن يجب يا « سنية » أن تشربيه ... إن الطبيب يحتم ذلك عليك ...

فقالت « سنية » وهى مازالت تستعطف أباها وتتضرّع إليه : سأشربه فى وقت آخر . لا أشربه الآن يا أبى . بحقك يا أبى !

فقالت « المدموازيل » : هـــذا شىء لايطاق ... سأذهب عنك ، وسأبعث إليك بالحساء مع « الدادة شيرين » ... إنها ...

وقاطعها«الباشا» بإشارة من يده ، فخرجت تدمدم ، ونظرت إلينا « سنية » وقد اشتدّ امتقاعها ، وتعصفر وجهها . وقالت :

أريد أن أستريحَ ... أريد أن أبقى وحدى .

فغمغم « الباشا » : لا بأسَ... استريحى .

وأخذ « الباشا » ينادى « الدادة شيرين» فأقبلت مهرولة ، فأوصاها أن تلازمَ سرير ابنته ، ورأينـــا « سنية » تسبل جفنيها ، فخرجنا فى خطوات ساكنة ، ونزلنا إلى البهو ، وأشعل « الباشا » لفافة تبغ وهو يَزفِر قائلا : إن حالتها لا تسرّ .

— أىّ مرض تشكو ؟

— إنها مصابة بفقردم شديد مصحوب بشىء من ارتفاع الحرارة.

— هـذا أمر هيّن .

— أرجو أن يكون كذلك ... ولـكنه على كل حال مرض قد يطول أَمَده ... إنه يتطلب صبراً وعناية ، وعلاجـــه الوحيد هو التغذية الصحية كما أمر الطبيب . وقـــد شاهدتِ بعينيكِ كيف تأبى الغذاء ؟ !

وخيّم الصمت فترة كان «الباشا» يدخن أثناءها ، ثم التفت إلىّ يقول: وأنت ؟ كيف حالك ؟

— بخير .

فقال وقد عبرتْ فمه ابتسامةٌ سانحة : لستِ ثائرة الأعصاب ؟

فقلت فى هدوء : ثائرة الأعصاب ؟ لماذا ؟

فأرسل قهقهة خفيفة ، وقال : الحمد لله !

— أظن أنه قد آن لى أن أستأذن فى العودة .

فنظر إلىّ طويلا وهو يبتسم فى ملاطفة ، ثم قال : تعودينَ الساعة؟ لقد أثبتّ الآن أنكِ مازلتِ ثائرة الأعصاب ! ...

— لا أدرى لماذا تريد أن تقنعنى بأنى ثائرة الأعصاب ؟

— لقد اتفقنا على أنك ستقضينَ اليومَ كله عندنا ... فلماذا

تنقضين الاتفاق ؟

— ولكن « سنية » محتاجة إلى الراحة .

— بل إنها فى حاجة إليك .

وسمعنا فى هذه اللحظة « الدادة شيرين » تنادينى ، فقال « الباشا »:
أترين ؟ لابدّ أن « سنية » تطلبك !

— سأذهب إليها .

وصعدت إليها على عجل ، فألفيتها جالسة فى السرير مهتاجة .

فما إن رأتنى حتى قالت : إنهم مازالوا مصرّين على أن أشرب الحساء ، ولكننى لن أشربه أبداً ...

ووجدت «الدادة شيرين» على مقربة من السرير ، ممسكة بالصينية عليها صحفة الحساء ، وفى يدها ملعقة تنظر إليها فى اكتئاب وحيرة .

فدنوت من « سنية » ولاطفتها ، وأنا أقول : أتحبّينى ؟

— نعم ، أحبك حبّاً لا مزيد عليه .

— إذاً ستتناولين ملعقة واحدة من أجلى .

— إنه حساء كريه لاصبر لى عليه .

— أتسمحين لى بمذاقه ؟

— افعلى ما تريدين !

وتناولت ملعقة من الحساء . وكان فى الحق طعاماً فاخراً ، فصحت:
أيجوز أن تحكمى على شىء دون أن تختبريه ؟ أقسم بالله إنى لم أشرب فى حياتى مثل هذا الحساء !

فصاحت « الدادة شيرين » قائلة : ألم أقل لك ذلك يا « سنية » ؟
وقربت صحفة الحساء من « سنية » ، وملأت الملعقة وأدنيتها من فمها ،

وأنا أقول : ملعقة واحدة ، جبراً لخاطرى !

فتناولت « سنية » الملعقة وهى ممتعضة ، ثم قالت :

من أجل خاطرك أنتِ وحدك !

فقلت : وخاطر « الدادة شيرين » أيضاً ... يسوءها ألا يكون لخاطرها عندكِ مقام !

فضحكت « سنية » قائلة :

إن رافها أن تستاء فلتفعل ... لايهمنى أن تغضب أو ترضى !

فصاحت « الدادة شيرين » قائلة :

لايهمك غضبى أو رضاى ؟ !... سأترك لك الحجرة .

وتهيأت للخروج غضبى ، فنادتها « سنية » فقالت « الدادة » :

لن أعود إلا إذا شربت ملعقة حساء من أجل خاطرى !

فوجدت « سنية » تملأ الملعقة وتصبها فى فمها وجلست على حافة السرير ، وصحفة الحساء فى يدى ، ومازلت بـ «سنية» أروضها على أن تشرب حتى قبلت ذلك بشرط أن أشاركها ، ففعلت ، وأحضرت لنا «الدادة شيرين» بقية ألوان الغداء ، فأخذنا نأكل ونتحدث ، ورأيت « سنية » تقبل على الطعام فى شهية ...

ودخل « الباشا فى اللحظة التى كنا نتناول فيها الفاكهة المطبوخة ، ودار بعينيه فى الصينية فوجد الصحاف فارغة ، فقال :

ما شاء الله ... لقد أتيتما على الطعام كله ... ولم تتركا لى شيئاً ... !

فقلت على الأثر : لم نكن نعلم أنك لم تتناول غداءك بعد يا عمى .

فقال ووجهه يكسوه البِشر :

إنى مسامحكما على أية حال ... هذه أول مرة تتناول فيها « سنية »

وجبتها من الطعام كاملة . ولا ريب أن الفضل فى ذلك لـ « سلوى » ...

فأجابته « الدادة شيرين » على الفور : لولا وجودى لما تناولت « سنية هانم » شيئاً ! .. إنها ما زالت تخشى غضبى !

فصاحت « سنية » تنكر دعواها ، وقهقه « الباشا » طويلا ، والتفت إلىّ قائلا : ولكن ماذا جنيت أنتِ حتى يكون غداؤك هذا الطعام ؟ إن طعامَنا ينتظرنا فى حجرة المائدة .

فقلت : أؤكد لك يا عمى أنى أفضّل هذه الألوان من الأطعمة .

ـــ ولكننا سنحتاج إليك لإطعام هذه الفتاة العنيدةِ فى كل وجبة من وَجبات الأكل .

ـــ لا أتأخر عنها كلما كان ذلك فى مستطاعى .

ـــ ألف شكر لك يا « سلوى » . ألف شكر !

لم أغادر حجرة « سنية » طول الوقت ، وقد مضينا نلعب بالورق ونتلهى بأشتات الأحاديث ونستمع إلى « الراديو » ونداعب « الدادة شيرين » ، ومكث « الباشا » معنا فترة ، ثم اضطر أن يتركنا ليستقبل بعض الزوّار .

ولما قفلت إلى المنزل بادرتنى أمى بقولها : كيف قضيتِ اليوم ؟

ـــ على أحسن حال .

ـــ وما حال « سنية » ؟

ـــ مريضة بفقر الدم ، وإن علاجها يستغرق زمنا .

ـــ لا ريب أنه يستغرق زمنا طويلا ... إن فقر الدم مرض قد لا تحمد عقباه .

ـــ أحقاً يا أماه ؟ أنتِ تبالغين !

— الحق ما قلت ، ولكننا نرجو من الله أن يمن على صديقتك بالشفاء ... و « الباشا » ؟

— إنه مهموم من أجل ابنته .

— أظنه لم يفارق حجرتها !

— لقد أمضى معنا فترة .

— فترة ؟ !

— أعنى فترة كافية لاحظ فيها ابنته وأشرف على تغذيتها ... إنها عنيدة تتمنّع على الطعام ، مع أن التغذية الصحية هي علاجها الوحيد .

— هذا صحيح ، لقد كانت لى من زمن قديم صديقة مريضة بهذا الداء ، وقد توفيت لأنها لم تكن تتناول ما تتطلبه الحال من الغذاء .

— أوه يا أمي ... ما هذا الكلام ؟ ولكن ما رأيك فى أننى أفلحت فى حمل « سنية » على تناول وجبة الغداء بأكملها !

— حسن ... حسن ... إنها خدمة جليلة تسدينها إلى صديقتك فى مرضها .

— ولما علم «الباشا» بالأمر بالغ فى شكره لى وقال : إننا سنحتاج إليك لإطعام هذه الفتاة العنيدة فى كلّ وجبة من وجبات الأكل ...

— وبماذا أجبته ؟

— قلت له : إننى لا أتأخر كلما استطعت إلى ذلك سبيلا .

— خيراً فعلت ... إن جوابك مهذب رقيق !

— وهل كنت تظنين أنى سأجيب بغير هذا .

— لا أدرى ... كنت أخشى أن ينزلق لسانك إلى قول لا يليق بمخاطبة «الباشا» .

ـــ أنا لست سيئةَ الأدب ... !

ـــ ولكن أعصابك تبدو ثائرة فى بعض الأحيان .

ـــ لا تثور أعصابى إلا على من يسىء إلىّ ... و « الباشا » لم يصدر منه اليومَ ما أنكره .

ـــ الحمد لله !

ـــ إنى لا أجحد حقّ أحد ... لقد كان « الباشا » اليوم بالغ الأدب ، رائع الظرف .

ـــ هذا هو رأيى فيه ...

فابتسمت وقلت :

يظهر أن الدرسَ الذى ألقيته عليه فى الضيعة أفاده !

ـــ مازلت تذكرين أشياء هى الآن فى وادى النسيان ... ما أفرغ بالك لهذه التوافه !

وابتسمت لى وهى تلاطف خدّى .

وفى صبيحة غد لم تكد تصحو أمى من رقادها ، حتى استدعتنى وبادرتنى بقولها : ماذا اعتزمت اليوم أن تفعلى ؟

ـــ لا شىء !

ـــ لا تفعلين شيئاً ؟ .. و « سنية » ؟ .

ـــ لقد كنت عندها أمس !

ـــ الواجب يقضى يابنية أن تعوديها اليوم أيضاً .

ـــ اليوم أيضاً ؟ !

ـــ لقد جلوت لك رأيى ... على أن هـــذا أمر يخصك ... يجمل بالصديق أن يكون لصديقه وفيا ، وأن يكون فى وقت الشـدة

إلى جانبه جهد إمكانه .

فأمسكت عن الكلام هنيهة ، فواصلت أمى قولها :

لقد حدثتك أمس فى شأن صديقتى التى كانت مريضة بذلك المرض الذى تعانيه « سنية » ... وأزيدك الآن أنى ما كنت أفارقها ، وقد لزمت فراشها ليلَ نهار .

ــ ليل نهار .

ــ هذا ما فعلته أنا ... وأنت وشأنك ، ليس عليك أن تحذى حذوى !

ونهضت تخطو بضع خطوات .

ثم نادت « أم يونس » تطلب إليها إحضار الفطور .

لم يمض طويل وقت على حديث أمي معي ، حتى سمعت صوت بوق السيارة يدعوني إلى زيارة صديقتي ، وكنت آنذاك في حجرتي أرتب أشيائي ، فلم أعبأ بصوت البوق ، وتابعت عملي ، وجاءتني «أم يونس» بعد هنيهة تقول : لقد أرسلت إليك « سنية » الست ...

فقاطعتها وأنا أعلـّق ثوباً على المشجب : السيارة ... أعلم ذلك لم أكن صمّاء حينما رنّ البوق يعلن قدومها .

فخرجت المرأة وهي تغمغم : يظهر أنك اليوم ثائرة الأعصاب !

فأجبتها بضحكة طويلة ، ورأيتني أتباطأ في ترتيب أشيائي بلا مسوغ وأتمهل في ارتداء ثيابي كل التمهل . ودخلت عليّ أمي وهي تقول :

ما هـذا يا « سلوى » ! ليس من الذوق أن تدعى السيارة واقفة تنتظر هذا الوقت الطويل !

فأجبتها في إهمال : لديّ عمل مهم ... عليّ أن أنجزه قبل خروجي.

— عمل ؟!

وتمصمصت شفتيها ، وتركتني .

ولبثت السيارة بباب المنزل نحو ساعة، ثم نزلت أركبها ، فراحت تنهب بي الطريق إلى دار «سنية» ، فلما بلغتها قصدت على التوّ حجرة صديقتي، فألفيت الجميع ينتظرونني بفارغ صبر ، فهشّـوا لمقدمي. وكان في الحجرة « سنية » و «الباشا» و« الدادة شيرين» . فكان أول ما عملته أن قصدت « الباشا » أحييه في أدب ، ثم هرعت إلى «سنية» فتعانقنا ،

وسمعت «الباشا» يقول لابنته: أظن أنه قد آن لك أن تتناولى فطورك.

فقلت لـ «سنية»: ألم تفطرى بعد ؟ .

وقالت «الدادة شيرين» مغمغمة:

لو خلى بينى وبينها لما تأخرت لحظة عن تناول الفطور !

وجاءت بصينية الطعام.

فبدأت «سنية» تطعم مبتسمة تبادلنى النظرات.

وقضيت الوقت بجانب صديقتى، يختلف إلينا «الباشا» فى الفينة بعد الفينة. وكان جم الأدب بالغ اللطف. وفى العصر رأيته يدخل علينا فى صحبته الطبيب، فخرجت من الحجرة وانتظرت فى البهو حتى ينهى الطبيب مهمته، وبعد برهة وجدته يغادر الحجرة وهو يتحدث إلى «الباشا» مشرق المحيا، وألفيتهما يقصدان مكانى، وتقدم منى الطبيب يقول فى تظرف: أيهمك أن تنال صديقتك الشفاء !.

— يهمنى جداً يا «دكتور» !

— إذن يجب أن تعلمى أن الأمر فى يدك !

— كيف !

— إن العقاقير يا آنسة ليست وحدها هى الدواء الناجع ... هنالك الحالة النفسية، إن لها أعظم الأثر فى مغالبة المرض.

— هذا صحيح ...

— إن «سنية» تأنس بك غاية الأنس، فلزومك إياها كفيل أن يعجل لها الشفاء ... أستطيع أن أقول إنه أنجح دواء.

— سأكون معها يا «دكتور».

وقال «الباشا» مبتسما: اتفقنا.

وربت «الدكتور» خدى، وانطلق مع «الباشا» يستأنفان الحديث.

وقبيل مغيب الشمس وأنا فى حجرة «سنية» أتأهب للقفول إلى منزلى. دخل «الباشا» يقول:

لقد أمرت أن يعد لك كل شىء. فلتكونى مطمئنة هادئة البال.

— ماذا؟.

— طلبت إلى «شيرين» أن تهىء لك حجرة نومك، وأن توفر لك فيها كل ما تحتاجين إليه من الثياب ونحوها.

فقلت له وأنا دهشة متعجبة: ولكن يا عمى ...

— ماذا! ألم تسمعى ما قاله «الدكتور»!

— إنه لم يقل ...

فقاطعنى بقوله: لقد أوضح لى كل شىء.

نخفضت من بصرى وغمغمت: لا ... لا أستطيع.

— لقد أرسلت فى طلب الإذن من والدتك، فلم تبد امتناعاً.

— ولكن ...

فالتفت «الباشا» إلى «سنية» قائلا:

إن صديقتك تأبى أن تمضى معك بضعة أيام.

فأمسكت «سنية» يدى وشدت عليها وهى تنظر إلىّ فى ضراعة.

وخرج «الباشا» وهو يقهقه فى تؤدة قهقهته المألوفة.

... ومرت أيام ثلاثة وأنا بمنزل «سنية» ألقى من أهل الدار أجمعين تكريماً وحفاوة ولاسيما «الباشا»، فقد كان متلطفاً فى أقصى تلطف وكثيراً ما استبقانى معه بعد الطعام يفاكهنى بنوادره وطرائفه.

وفى أمسية اليوم الثالث، وأنا على أهبة الرواح إلى حجرتى

لأستريح وأنام ، رأيت « الباشا » يتقدم منى وفى يده علبـة كبيرة ، وقال لى وهو يفك وثاقها :

إن « سنية » تفـكر فى تسليتك . . . انظرى ، لقـد أوصتنى بأن أحضر لك « رديو » صغيراً يتنقل معك حيث تكونين .

وكشف لى عن هذا «الرديو» فإذا به تحفة جميلة .

وسمعت «الباشا» يقول : تستطيعين أن تستمعى إليه فى كل مكان ، دون أن تتخذى له سارية أو تمدّى له أسلاكا .

وأخذ يشرح لى طريقة استخدامه فى إطالة واهتمام ، ثم أداره أمامى ، فأسمعنى إذاعات من مراكز شتى . . . وأخيراً قال لى هامساً :

إنه يغنيك عن « الرديو » الكبير الذى فى حجرة والدتك .

فنظرت إليـه دهشة ، فأرسل قهقهة خفيفة ، وأخذ يربت كتفى ، وقال فى هدوء : لقد سألت مهندس « الرديو » عن كل شىء . لا تظنى يا صغيرتى أنى مهمل شأنك ، غير متتبع دقائق حياتك !

ودنا منى يواصل قوله :

ما زلت أكرّر على مسمعك أنى أتوخى دائمـاً سعادتك...

ولاطف يدى ، ثم قال لى : طاب مساؤك يا «سلوى» !

فقلت مغمغمة وقد خفضت من بصرى : طاب مساؤك يا عمى !

وانقضى يومان آخران و « الباشا » يغمرنى بهداياه من الحلوى والفطائر المنوّعة . وكان يقول لى وهو يقدمها إلى : قد لا يروقك ما تجدين من طعام المنزل ، فتستعيضين عنه بهذه الحلوى والفطائر .

وفى مساء اليوم الخامس بعد أن تناولنا العشاء ، جلست إلى « الباشا » أباسطه فى الحديث ، وإذا بى أشعر بارتفاع الكلفة بينى وبينه ، وطالت

جلستنا من حيث لا أ شعر .وعندما أردتُ الاستئذانَ منه فى الرواح إلى حجرتى ، أخرج من جيب صداره علبة صغيرة فيها خاتم جميل قدَّمه إلىّ ، وهو يقول وعلى فمه ابتسامة حائرة : هذا لك يا «سلوى» !

وتأملتُ الخاتم وقلبى يهفو إليه ، وغمغمتُ :

لا ... لا ياعمى ... هذا كثير !

فمد يده إلىّ بالخاتم، ثم مضى يضعه فى إصبعى ويقول : خذيه على أنه هدية من «سنية» إن كنت لا ترغبين فى قبول شىء منى ... !

— لا أقصد ذلك ... إنما ...

— إنما يجب أن تحتفظى به تذكاراً لجميلك الذى أسديته لصديقتك ... إنها مَدينة لك بحياتها .

— لم أقمْ إلا بالواجب ياعمى .

وأمسك بيدى هنيهة ، ثم قال وهو يرفعها إلى فمه : أتسمحين ؟ !

فأطرقت فى سكينة ، وتركت يدى فى يده فقبلها قبلة طويلة ، وألفيته يهمّ بقبلة أخرى ، فجذبت يدى فى لطف ، وأنا أقول :

مساء الخير يا عمى ... أشكر لك ! ...

ورأيت شفتيْه تختلجان دون كلام . وقصدت إلى حجرتى ورأسى يموج بمختلف الأفكار . ووقفت بجوار النافذة، وجعلت أحرك الخاتم فى إصبعى وأنا أطيل النظر إليه . ثم وقع بصرى على «الراديو» غير بعيد منى ، فذهبت إليه على مهل . وأدرته ، فانطلقت منه رقائق الأنغام ، فأصغيت لها مغتبطة .وعينى لا تنحرف عن الخاتم فى إصبعى . ومرّ ببالى فى هذا الوقت موقف وقفته من الأستاذ « رجائى » حين قدم إلىّ خاتماً فأبيته فى استنكار ، فرفت على فمى ابتسامة ، وذهبت

إلى سريرى أتمدد عليه ... وقضيت وقتاً وأنا على هـذه الحال ، يبعث «الرديو» إلىّ بشدوه الطروب ... ووجدتنى أردد قول أمى :

لماذا لا نتلهى بهؤلاء الرجال دون أن ينالوا منا منالا ؟ !

... وفى غد قبيل الظهر ، علمت أن أمى قدمت تزور « الباشا » وأنهـا معه فى حجرة الزوار ، فى الطبقة الأولى ، فنزلت على عجل ، وأردت أن أدخل الحجرة حيث يجلسان ، ولـكنى ما كدت أقترب من الباب حتى تراجعت خطاى ... أليس ممـــا يجافى الذوق أن أقتحم الحجرة بلا استئذان ؟ ... ولكن لم حضرت والدتى ؟ ... إنها مفاجأة غريبة ... ربمـا كانت قد حضرت لتسأل عنى ... إنى أطلت غيبتى عنها ومكوثى فى هـذا المنزل ... ووقفت بجوار الباب أتسمع ، فعلمت أن الزيارة أوشكت أن تنتهى ، وسمعت والدتى تقول : لا أدرى كيف أشكر لك يا سعادة « الباشـا » ما تفضلت به علىّ . لن أنسى جميلك معى . . . سأرد إليك النقود حين يصل إلىّ دخلى من الوقف . . . ولولا أنى ضويقت بأمر الحجز وهـدّدنى المحضر مرات متوالية لمـا طوعت لى نفسى أن أجاهر بهذا المطلب .

فأجاب « الباشا» فى صوته الهادىء الرزين : أنا مستعد لأية خدمة يا «هانم» . لا كلفة بيننا ... يجب أن تعدّينى صديقاً مخلصاً للأسرة .

ـــ أشكر لك يا « باشا » هـذا الفضل . . . وهيهات أن أنسى ذلك الجميل !

وصمتت برهة ، ثم واصلت قولها :

أرجو أن تسمح لى بورقة وقلم لأكتب لك سنداً .

ـــ سنداً !

ـــ سنداً بالنقود يا « باشا » !

ـــ ولم العجلة ؟ أهكذا يكون الشأن بين الأصدقاء ؟

ـــ مهما يكن من أمر يا « باشا » فالصداقة لا دخل لها فى المعاملات الرسمية .

ـــ هذا صحيح ... ولكن بيننا ثقة متبادلة .

ـــ أريد كتابة السند ، فإن لم يرقك هـــذا فإنى آسفة إذ أرد إليك النقود .

ولمحت شبح أمى وهى تمد يدها بشىء إلى «الباشا» فردها عنه يقول : لا بأس . . . لا بأس . . . إذا أصررت فإنى أرسل إليك السند غداً لإمضائه . . . إن الكاتب غائبٌ عن المنزل الآن ، وما دام الأمر كما تقولين يدخل فى نطاق المعاملات الرسمية ، فيجب أن يأخذ طريقه الرسمى . . .

فسمعت والدتى تقول :

إذن سأنتظر الكاتب يأتى إلىّ بالسَّند غداً . . .

ـــ ذلك ماسيكون !

ونهضت أمى ، وهى تكرر شكرها ، وحيت « الزهيرى باشا » فأخليت مكانى وتواريت عن العيون . . . وما لبثت أن شعرت بالهموم تتألب علىّ ، وبالضيق يغزو صدرى ، فقضيت وقتى تتنازعنى شتى الأفكار ، وقد حاولت أن أكتم هذه النزعات المتضاربة بين ضلوعى ، وألا يبدو علىّ منها شىء .

وبعد أن تناولنـا الغداء ، استأذنت «سنية» فى الذهاب إلى دارى لأمر مهم ، ووعدتها أن أعود بعد قليل . فأذنت لى بعد طول ممانعة

واعتراض، ودخلتُ المنزل فلم أجد أمى ، وسألت عنها « أم يونس » فأخبرتنى بأنها لم تعد منذ خرجت فى الصباح ، فقلت لها :

وهل أخبرتك أين ذهبت ؟

— لم تتعوّد يا بنتى أن تخبرنى بما تنوى عمله فى يومها ... ولكن مابك ؟ مضطربةٌ أنت !

— وهل تريدين منى أن أكون هادئة ، والمحضر يأتى هنا كل يوم لحجز الأثاث ؟ !

فحملقت فىّ وقتاً ، وقالت مغمغمة : محضر ؟ ... أى محضر... ؟!

— إنه كان على وشك أن يبيع الأثاث بالمزاد العلنى !

— بالمزاد العلنى ؟ ... أبعد الله الشر يا بنتى ... لم يقع شىء من ذلك قط ...

— قلت لك إن المحضر كان يأتى هنا كل يوم لحجز متاعنا وبيعه !

فقالت فى هدوء وثقة وهى ترنو إلىّ : لم يحضر أحد .

— تزعمين أن المحضر لم يأت ؟

فقالت وهى على حالها : وأين كنت أنا ؟ .. إننى لم أفارق البيت ؟

— ألم يأت أحد ... أواثقة أنتِ ؟

— لم يحضُر إلا « حمدى افندى » وقد جلس مع والدتك فترة قصيرة .

— « حمدى » .. متى ؟

— أمس .

— ألا تعرفين لم حضر ؟

فقالت بعد تردد : لم تخبرنى والدتك بشىء .

ـــ ولكنك تعرفين ... أخبريني فيم حضر ؟

ـــ أظنّ ... أظن ...

ـــ تكلمي .

ـــ إنه حدّثها في أمر خطبتك .

ـــ وماذا قالت والدتي ؟

ـــ كان يبدو عليها الامتعاض .

ـــ هل رفضتْ ؟ !

ـــ لم ترفض رفضاً صريحاً ... ولكن ...

ـــ حسناً ... حسناً .

وتركتُ « أم يونس » وقصدت إلى حجرتي . وقضيت الوقت أنتظر عودة أمي ، وفي صدري كربة لا تريم ... وكانت « أم يونس » تتردد عليّ بين حين وحين . تحاول أن تسري عني .

وأوشك الليل أن ينتصفَ قبل أن تعود أمي ، وما إن أحسست أنها تطرق المنزل حتى هرولت إليها على الأثر في ردهة الطبقة الأولى .

وإذ رأتني قالت :

ماذا ؟ ... أنت هنا يا «سلوى» ؟ ... لمَ تركت منزل « الباشا » ؟

ـــ وهل كنت تريدينني أن أقيمَ هناك إلى الأبد ؟

فنظرتْ إليّ متفحصة بعين يبين فيها القلق ، وكان وجهها محتقناً ظاهرَ الذبول تكسوه التجاعيد والغضون ، ثم قالت : ما بِك ؟ ... يظهر أنك غضبى ... هل أساء معاملتك أحدٌ في منزل « الباشا » ؟

ـــ كلا ، كان أهل المنزل جميعاً غايَةً في الرقّة والظرف .

ـــ إذن مَن !

ـــ وهل شكوت إليك أحداً !

ـــ إن كلامك ليبعث على العجب ... أفصحى .

ـــ لا رجعة لى بعد اليوم إلى منزل « الزهيرى باشا » !

ـــ لا ريب أن أحداً أساء معاملتك ... أليس كذلك !

ـــ قلت لك إن أهل المنزل جميعاً كانوا فى غاية الرّقة والظرف ، ولكننى اعتزمت ألا أعود إليهم أبداً .

فجلستْ على المقعد فى إهمال ، وأشعلتْ لفافة ، وقالت :

أحدَث من «الباشا» أمر كالذى كان منه أثناء وجودك فى الضيعة!

فقلت فى صوت متهدّج :

لم يحدث شىء، ولن يحدث من «الباشا» معى أمر يخدش كرامتى.

فنفثت دخان لفافتها ، وابتسمت قائلة :

حسن ... حسن ... لا أرجو شيئاً غير ذلك !

ـــ مهما يبذل « الباشا » من محاولات فإن جهده ضائع ... لن يستطيعَ أن يشترينى بهذه المنحة التى منحك إياها صباح اليوم !

فنظرت إلىّ مدهوشة ، وقالت : منحة ... أية منحة ؟ .

ـــ لقد علمت كل شىء .

فعادت إلى لفافتها تدخنها ، وقالت وهى تشيح عنى بوجهها :

تقصدين مسألة القرض !

ثم واجهتنى بقولها :

أفى ذلك عيب ؟ إنه قرض سأرده إليه فى أقرب فرصة .

ـــ هيه ... قرْض ! .

ـــ أجل ... قرض ... وهل أنا ممن يقترضون ولا يؤدّون

ما عليهم من دين ؟ إن أساسَ معاملاتى كلها الشرف والأمانة .

ــ أثمة سبب يدعوك إلى هذا القرض ؟

ــ المحضر والحجز الذى يتهددنا !

ــ ألا تعفيننى من سماع هذه الأقاويل ؟

ــ أتريدينَ أن يُباعَ متاعُنا بالمزاد ؟ ... أتريدين أن نفتضح أمام الناس ؟ !

ــ هوّنى على نفسك يا أمى ... أنت تبالغين .

ــ أبالغ ؟

ــ أىّ محضر وأىّ حجز ؟... إننى لست من الغفلة بحيث أصدّق ما تدّعين !

فعقدت يديها على صدرها ، وقالت تتحدّانى :

إذن أنا كاذبة ... فلِمَ اقترضت هذا المبلغ فيما تظنينَ ؟

ــ هذا سؤالٌ أوجّهه إليك .

فنهضت إلىّ وعيناها تقدح شرراً ، وقالت :

ألا تستحينَ ؟ من أنتِ حتى تقاضينى ؟ من أنت حتى تناقشينى فى تصرفاتى ؟ إننى حرة فيما آخذَ وما أدَع !

ــ أنا لا أناقشك فى تصرّفاتك الخاصّة ... ولكن إذا كان فى هذه التصرّفات ما يمَسنى ويخدش كرامتى ، فإن من حقى أن أسأل وأن أناقشَ ...

ــ يَمسك ويخدش كرامتك ... هيه ... هيه ... وهل تدركين أنت ياحمقاء من شأنك ومن كرامتك فوق ما أدركه ؟

وحدجتنى بنظرة نكراء ، ثم انصرفت عنى .

فما مضت خطوتين حتى لحقت بها ، وقلت :

سأضع حدّا لكل هذا ... سأتزوّج « حمدى » ... سأتزوجه.

فأمسكت عن السير تبتسم فى سخرية ، وقالت :

اختيار موفق ... يشهد بذوق سليم !

— سليم أو غير سليم ... سأتزوج « حمدى »

— حسناً تفعلين ... لن أمنع هذا الزواج !

وهمّت أن تتابع سيرها ، ولكنها تعمّدتنى بنظرها وهى تقول :

ولكن إذا ندِمْت على ما فعلت فيما بعد ، فلا تلقىِ علىّ لوما ... ذمتى بَرَاء !

نهضتُ من فراشى صباحَ غد أعرض ما كان من حديثى مع أمى في الليل ، فاستبان لى أنى أسرفت فى بعض ما قلت ، وأنى تسرعتُ فيما كان منى إليها ... لقد كان خليقاً بى أن أتناولَ الأمر معها فى هدوء ، وأن أناقشها فى تعقّل . فانتظرتُ حتى استيقظتْ وتناولتْ فطورَها ثم ذهبت إليها أحيّيها تحية الصباح ، وكانت كعادتها على الأريكة تدخن لفافتها ، فاقتربت منها وقلت فى لهجة وادعة :

جئت لأسترشدَ برأيكِ فى شأن « حمدى » .

فلم تنظر إلىّ ، وأجابتنى وهى تتأمّل لفافتها :

لقد قلتُ لك إننى لا أمنع هذا الزواج .

— ولكنك غير راضية عنه !

— حسبُكِ أن تكونى أنت راضية كلّ الرضا !

فأقبلت عليها ، وجلست على طرف الأريكة ، وقلت : إن «حمدى» شابّ مهذّب ، طيب القلب ، يتحلى بصفات كريمة ... ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

— أتظنينَ أنه يُسعد زوجته ؟

— إنه يحبّك وأنت تحبينه ... أليس فى هذا غناء ؟ !

— حقاً فيه غناء ... ولكن مرتّبه ... !

— لقد بلغ خمسة عشر جنيهاً .

— قدرٌ لا بأس به !

— قدرٌ طيب لزوجين قنوعين مثلكما ، ليس لهما فى الحياة مطامع .
وسيزيد هذا المرتب ...

— قال ذلك لى .

— هذا هو المنتظر .

— ألا اعتراض لك على هذا الزواج ؟

— إن كانت هذه الناحية تشغل بالك فاطمئنى ... ليس لدىّ أى اعتراض ، إذا رغبتما فى إجـراءِ العقد فوراً .

— أى عقد ؟

— عقد الزواج !

— أراك تسخرينَ منى .

— لم ؟ مادمتما متحابّين ترغبان فى الزواج ، فلماذا لا تبادران بإجراء العقد ؟

— أجادّة أنتِ فيما تقولين ؟

فنظرت إلىّ نظرةً صلبة ، وقالت :

عجباً لك ... لماذا ترتابين فى قولى ؟

— لأنك اعترضت على هذا الزواج قبلا .

— حقاً ، كنت اعترضت عليه لأسباب وجيهة بدت لى ...
وما دمت أنت مقتنعة بأن هذا الزواج سيوفر لك الهناءة والسعادة ، فلم الممانعة ؟ ... لست أنا التى ستتزوج ... الأمر إليك أنت ... لقد بلغت من السنّ ما يؤهلك لأن تبنى مستقبلك بنفسك .

— أشكر لك هذا يا أمى .

وأمسكت بيدها ملاطفةً ، وقلت لها بعد صمت لم يطل :

أرجو ألا يكون قد ساءكِ ما بدر منى فى الليل .

ــ أنا ؟ ... لمْ يسؤْنى شىء ... إنما خلِقتْ الأمهات لاحتمال أعباء الحياة ... وأنت وإن كنت راجحة العقل ، متقدة الذكاء ، فإن التجربة ما برحتْ تعوزُكِ ... والتجربة يا « سلوى » أهم مقومات الحياة ... إن العيبَ الذى آخذه عليكِ هو سرعة البتّ فى الأمور . أراكِ دائماً مندفعة ، لا أناة ولا رَوِيَّة ، على أن هذا كله من أخلاقِ الشباب ... ولكن أنصح لك أن تتبصرى فى الأمر طويلا قبل أن تبتّى فيه برأيٍ حاسم ... إن العجلة قد تضرّك ، ولكن التأنى فيه الخير والسلامة .

فطأطأت رأسى ، وطفقتْ أعبث بطرفِ ثوبى .

وظللت وقتاً صامتة ، ثم قلت مهمهمة :

قد يكون الحق فيما تقولين يا أمّاه ... أشكر لك نصيحتك !

وتركتُ أمى ، ومضيت إلى حجرتى . ومكثت فترة فى حيرة وقلق ، يتعذر علىّ أن أجمع ما تشعث من أفكارى ، ثم خطوت إلى الدرج أفتحه لآخذ المشط أسرح به شعرى ، فوقع بصرى على الرسالتين اللتين بعث بهما إلىّ « الدكتور داود فهيم » فبسطتهما أمامى ، وجعلت أنقل بصرى بين سطورهما ... ثم ما عتّمت أن وجدتنى أقبل على قراءتهما فى اهتمام ، وما إن فرغت من القراءة حتى اعتزمت أن أكتب للدكتور « فهيم » رداً رقيقاً ... إنه يضمر لى شعوراً كريماً ... ليته الآن فى « مصر » ! ... إنى لشديدة الحاجة إلى شخص مثله ، أستمع إلى قولِه ، وأهتدى بنصائحه ، وأعوّل على رأيه !

وجلست أعدّ العدة لكتابة رسالة إليه ، وما كدت أفعل حتى

أقبلت « أم يونس » تخبرنى بقـــدوم « حمدى » فوضعت القلم جانباً وأنا أزفر ...

وذهبت إلى « حمدى » فاستقبلنى ببشر فيّاض ، ثم انطلقَ من فوره يسألنى عما قرَّ عليه عزمى فى شأن زواجى به ، فلزمت الصمتَ وقتاً ، فبدا عليه القلق ، وأخذ يعبَث بيديه ، وهو ينظر إلىّ خلسة ، فقلت له : لماذا أنتَ عجول ؟

— المسألة يا «سلوى» يتوقف عليها هنائى أو شقائى .

— أفكرتَ فى هنائى أو شقائى أنا يا « حمدى » ؟ .

— ثقى بأنك ستكونين أسعد الزوجات . إن زوجك لن يألو جهداً فى توفير السعادة لك .

— أواثقٌ أنت بما تقول ؟

— كلَّ الثقة ... مرتبى لا بأس به ، وسيزيد ، وأنت فتاة قنوع ، وعواطفنا متلاقية ، ووالدتك لا تعارض ... ماذا تريدين فوق هذا ؟

— حقاً لا شىء !

— إذن لماذا تترددين !

— أعدُك بأنى لن أخيّب رجاءك . ولكن أمهلنى رويْداً .

وأقبلت « أم يونس » تخبرنى بأن « الدادة شيرين » قد أتت ، وأن السيارة بالباب ، لأن « سنية تطلبنى لأمر ذى بال .

فنهض «حمدى » وهو يرنو إلىّ فى استرحام . فنهضت وأنا ابتسم له ثم قلت : كل شىء سينتهى إلى خير .

وخرج وأنا أشيّعه بنظرة إشفاق ، ولكنى لا أدرى كيف شعرت حين تركته براحة واطمئنان ! ...

... أقلتنى السيارة إلى منزل « سنية » فما كادت ترانى حتى هرعت إلىّ تضمنى بين ذراعيها وتقبّلنى ، ثم أخرجت من صدرها برقية بالفرنسية ، ومالت على أذنى مهتاجة تهمس :

من « شريف » . سيحضر بعد أيام !

— مباغتة جميلة !

ورنت إلىّ بنظرة ساذجة ، ثم تشبثت بى وقد أطبقت جفنيها فى غبطة ونشوة ، وأخذت تهمهم : إنى خائفة ... خائفة يا « سلوى » !

فاحتضنتها وأنا أربّت ظهرها فى عطف وتودد ، ولكنى كنت فيما بينى وبين نفسى أستهجن قولها وأتساءل : مم تخاف ؟

وعدت إلى المنزل وأنا أشعر بالتأفف من « سنية » ومن نفسيتها التى تبعث على العجب . ثم قلت لنفسى : هل تستطيع فتاة تبلغ هذا المبلغ من ضعف الشخصية أن تُسعد زوجا مثل « شريف » ؟ !

وما إن دخلت المنزل حتى علمت أن أمى تشكو ألماً فى أمعائها ، فصعدت إليها ، فوجدتها ممددة على الأريكة وقد وضعت على بطنها كيساً ملىء بالماء السخن ، فما إن رأتنى حتى قالت : خيراً إن شاء الله ، ماهو الأمر المهم الذى استدعتك من أجله «سنية» ؟

— إن خاطبها « شريف » أبرق إليها أنه عائد بعد أيام .

فرفعت رأسها قليلا ، وقالت : حقاً إنه خبر مهم .

— خبر مهم لها بلا شك .

وأخذت والدتى تصلح وضع الكيس على بطنها . ثم قالت وهى تتفحصنى : أسعيدة هى بهذا الزواج ؟

— كل السعادة ... حتى إنها لتصدر عنها أعمال صبيانية

غير لائقة .. !

— يحق لها أن تسعد ... أى فتى « كشريف » ؟

— لا ينكر ذلك أحد .

— شاب متعلم ، سليل أسرة عريقة ، ميسور الحال ... ماذا تطلب الفتاة فوق هذه الميزات ؟

— هل تظنين أنها ستكون سعيدة ؟

— بلا شك ...

— وهل تظنين أن الغنى والعلم والأصل العريق يسعد الأزواج ؟

— وماذا يسعد الأزواج فيما ترين ؟

— توافق الأهواء ، وتجانس الميول .

— إن توافق الأهواء وتجانس الميول لا يغنيان فتيلا ، إذا كان مرتب الفتى لا يزيد على خمسة عشر جنيها ! ... أتظنين أن شخصا مثل ...

فقاطعتها قائلة : أخبرتنى «أم يونس» أنك تشكين ألما فى الأمعاء ، فهل أنت الآن أحسن حالا ؟

فحدقت فى لحظة وهى صامتة ، ثم قالت : بل إنى لأشعر بأن الألم فى ازدياد ، على الرغم من هذا الكيس السخن .

— ثقى أنها وعكة خفيفة لا تلبث أن تزول .

وقمت مستأذنة ، فما كدت أخطو خطوتين نحو الباب حتى سمعتها تقول : و « حمدى » ... ماذا قلت له ؟

فأجبتها وأنا فى طريقى : لا جديد ... لم أقل له شيئا .

... وفى الصباح تبين لى أن حالة أمى تزداد سوءاً ؛ فاضطررنا أن ندعو الطبيب ؛ فنصح لنا بنقلها إلى المستشفى ؛ وأعلمنا بأن الحال

قد تقتضى إجراء عمليــــة جراحية ... فاشتد اضطرابى ، وأسقط فى يدى ، وهال والدتى الأمر ، فأخذت تصيح ، وهى تفند رأى الطبيب وتثور عليه ، وأقسمت بأغلظ الأيمان إنهــا لن تذهب إلى المستشفى . ولـكن الطبيب أفهمها فى حزم أن الأمر جدّ ، وأن كل دقيقة تقضيها فى المنزل هنــا تعرّض سلامتها للخطر ، وأن واجبه يحتم عليـه اتخاذ الإجراءات اللازمة لنقلها إلى المستشفى على الفور .

وكان الطبيب يبدو لى فى هيئته وشـــارته كأنه شُرطىّ قوىّ الشكيمة صعب المراس ، لا يعرف إلا إلقاء الأوامر والانقضاض على المجرمين . له نظرات نافذة ، وملامح صلبة ، ولهجة خشنة جافية .

ثم أخذ يجمع أشياءه تأهّباً للانصراف ، فألفيت والدتى قد نهضت تتشبث به ضارعة باكية ، وهى ترجو منه أن يتولى علاجها فى المنزل ، فرمقها الرجل بنظرة شزراء ، وصاح :

يجب أن تلزمى الفراش يا «هانم» يجب ألا تكثرى من الحركة . لا سبيل إلى غير ما أرى ... يجب أن تقصدى إلى المستشفى فى الحال .

وخرج بخطا ثقيلة لا يلوى على شىء ، فعادت أمى إلى اهتياجها تصيح وتقسم إنها لن تذهب إلى المستشفى ، ولن تبارح البيت مهما يكن من أمر !

وما أمسينا حتى كانت أمى فى المستشفى ... وقد قرّر الجراح إجراء عمليـة لاستئصال الزائدة الدودية فى الحال ، ورأيت أمى قد تزايل اهتياجها وحل محله استسلام يائس ، فكانت تدور بعينيها المخضلتين بالدمع حولها كأنها تبحث عن منقذلها . فدنوت من فراشها وقد امتلأ قلبى حزناً وأسى ، وأخذت بيديها ألاطفهما وأقبلهما .

ودعيت لألقى مدير المستشفى ، فقصدت إليه ، وكان الرجل يجلس منتفخاً خلف مكتب فخم فى حجرة رحبة ثمينة الرياش، كأنه غضنفر يطل من عرينه ، ومد إلىّ يده بورقة فى حركة تتجلى فيها السيادة والترفع، وعيناه تعبثان فيما يغطى مكتبه من أوراق . فتناولت الورقة ، ونظرت فيها، فإذا هى أخلاط أرقام وكلمات تاهت نظراتى فى تضاعيفها، فلم أدرك منها شيئاً . وسمعت الرجل يقول فى صوت أجشّ :

هذا المبلغ يجب أداؤه قبل إجراء العملية .

ولم أدر أىّ قدر يطالب ، ولكننى على أية حال لم يكن لدىّ مال أؤديه قل أو كثر .

فقلت على الأثر : سنؤدى ما تطلب ياسيدى ... سنؤديه بلا ريب. ولكنى الآن لا أستطيع أداء شىء ... فأمهلنى إلى غد .

فأخذ المدير يعبث بأقلامه وقد قطب حاجبيه، ثم قال : يؤسفنى جداً يا آنسة أن أقول لك إن هذه تعليمات المستشفى ... لا دخلَ لى فيها .

وكنت أنظر فى الورقة ، فأرى الأرقام تتراقص أمام عينى وتتشابك متزاحمة ، ووقع فى روعى أن المطلوب مال جسيم يبلغ المئات ، فازددت حيرة وارتباكا ... وهممت : وماذا نصنع يا سيدى ؟ !

وفى هذه اللحظة سمعت خفقَ خطوات خلفى ، خطوات متزنة أعرف وقعها حق المعرفة . وقبل أن ألتفت لأتبينّ من القادم ألفيت «الغضنفر» أمامى ينهض نهضة احترام ، وقد انبسطت أسارير وجهه ، وقال :

«سعادة الباشا» ... أهلا وسهلا .

وتقدم «الزهيرى باشا» يحيّى المدير ، ولم ينس أن يلاطف كتفى فى تودّد وهو يبتسم ، ثم تناول الورقة من يدى ، وقال للمدير :

ـــ هذه الأسرة من معارفى ... آمل أن تجد كل عناية ورعاية .

فانطلق المدير يقول، وقد انهال على يديه يدعكهما :

لاشك أننا سنبذل فى سبيل راحتها جهد المستطاع ... المستشفى رهن أمرك يا «سعادة الباشا» .

وهمس «الباشا» فى أذنى : اذهبى أنت الآن ، وسألحق بك عما قليل

فعدت إلى حجرة أمى والهواجس تملأ رأسى ، فما إن دخلتها حتى علمت أن أمى نقلت إلى حجرة العمليات ، فاشتد جزعى ، وقضيت وقتاً مهتاجة الأعصاب ، مضطربة الفكر ... وألفيت «الزهيرى باشا» يدخل ، فهرعت إليه ، وقلت : لقد نقلوها إلى حجرة العمليات ...

فأمسك بيدى يلاطفنى مبتسما وهو يقول : عملية صغيرة ... ستنتهى إلى خير . لا تجزعى . اطمئنى . لقد أمرت بأن يعدوا لك حجرة بجوار حجرة والدتك ، حتى تطمئن إليك وتطمئنى إليها .

وكان يرنو إلىّ فى عطف محبب ، ويدى بين يديه لا يفتأ يلاطفها ، ثم قال فى صوت خفيت : لن تطالبكما إدارة المستشفى بشىء على الإطلاق .

فرفعت إليه بصرى متسائلة ، وأنا أردد : ولكن يا عمى ...

فأجابنى بصوت رقيق : سنسوّى الأمرَ بعد خروج والدتك من المستشفى ... لا يشغل بالك شىء .

فألفيتنى أتلعثم فى الإجابة ...

وبغتة تحدّرتْ عبراتى ، فأخفيت وجهى فى يدى .

فجعل «الزهيرى باشا» يقول ، وهو يربت كتفى :

ماهذا ؟ ألاتريدين أن ترافقينى لأريَك الحجرة التى أعدت لك ؟

٣٢

تمت العملية بنجاح ، وسارت الأمور على ما يرام ، وطابت فى المستشفى إقامتى ، إذ كانت حجرتى نظيفة أنيقة ، والخدم يعنون بشأنى عناية ممتازة ، والممرضات يحطننى بمودتهن ومؤانستهن .

وكان «الزهيرى باشا» يوالينا بزوراته ، حاملا إلينا طاقات الزهر المنتقى وعلب الحلوى الفاخرة ، وقد أمر بتخصيص ممرضتين لوالدتى تتناوبان خدمتها فى الليل والنهار . وعلمت أنه يقوم بأداء نفقات المستشفى على اختلاف أبوابها فى سخاء ملحوظ .

وترادفت الأيام وأنا فى بحبوحة من عيش ناعم هنىّ ، وكان «الباشا» إذا قدم المستشفى توخّى حجرتى أول الأمر . وقضى فترة يناقلنى الحديث فى تلطف ومفاكهة ... وياله من محدّث لبق ، يخلب اللب بطرافة نوادره ودعاباته ... وكان لا ينسى أن يحمل إلىّ تحية ابنته « سنية » ويعتذر عن تخلفها بأنها ما برحت متوعكة لم تستوف بعد راحتها ، ثم يبتسم ابتسامته الرقيقة وهو يقول :

إنهـا تنتظر مقدم « شريف » فهو فى طريقه إلى « مصر » ، وهى حريصة على أن تلقاه موفورة العافية ، قد اكتسبت من البدانة حظاً .

وهنا يصمت برهة وهو يحدق فى ، والابتسامة ما زالت تضىء على فمه ويقول : إليك يرجع كل الفضل فى تقدم صحتها ، هيهات أن ننسى جميلك !

ولا أنكر أنى كنت أرتقب زيارة « الباشا » فى غبطة ، وأعنى عناية خاصة بزينتى وملبسى ، وكنت أطرح معه الكلفة ، حتى إنه كان

حين يُطرى محاسنى أو يُشيد بذوقى فى حسن هندامى و تصفيف شعرى، أتقبّل إطراءه وإشادته بقبول حسن ، وأجيبُه مؤانسةً مداعبة . وكثيراً ماتركتُ له يدى بين يديه يلاطفها ويقبلها ، ويطيل الملاطفة والتقبيل .

وحضر « حمدى » مرةً لزيارتى ، فدخل الحجرة جَهْم المحيَّا ، بادى الشحوب ، وبعد أن حيانى وسألنى عن صحة والدتى هام فى صمت مضطرب ، وكنت آنئذ أمام منضدة الزينة أتعطر . فتيسّر لى أن أراقبه فى المرآة أمامى ، فلاحظت أنه قلقٌ زائغ النظرات ، يريد أن يتكلم ، وكأنه لايدرى كيف يبدأ الكلام ؟! وأخيراً ألفيته ، وقد غالب قلقه وحيرته ، يقول مجهود الصوت ، راعش النبرات :

هل يحضر « الباشا » الآن ؟

فتابعتُ زينتى ، ووضحتْ لى على الفورعلة مايغشاه من ضجر... وقلت متشاغلةً بشأنى : لاأدرى ... ولم هذا السؤال ؟

— لاشيء ... مجرد سؤال !

ثم عاوده صمته المضطرب ، وجعلت أخالسه النظر ، فإذا به يجفف جبينه وقد تفصّد عرقاً ، ثم سمعته يقول بعد حين فى لهجة تشوبُها حدّة:

أنت اليوم تبالغين فى زينتك !

فالتفتُّ إليه فوراً ، وأنا أحدجه بنظراتى ، وقلت :

ألا تفصح ؟ لم هذه المداورة والمراوغة فى الحديث ؟

ففاجأه من قولى مالم يكن يتوقعه ، وقال فى لهجة أخف حدّة من ذى قبل : أنا أداور وأراوغ ؟!

— سَلْ نفسك !

ووجدته قد اندفع يجفف عرق جبينه ، ويروّح وجهه ، ويقول :
ربما كنتِ على حقّ ... يجب أن أصارحك بالحقيقة ، وبخاصة أنى أعدُّك مخطوبةً لى .

ثم انبرى يفرك يديه مهتاجاً ، وقال :
إنى غير مطمئنّ إلى موقف « الباشا » منك .

ـــ غير مطمئن ؟ ... ماذا يزعجك من «الباشا» ياسيد «حمدى» ؟

فحملق فىّ بعينيه الزائغتين ، وجمجم :
أتحسبيننى أجهل قيامه بنفقات المستشفى ؟

فأجبتُ محتدة : هبْه فعل ... فما وجه المؤاخذة فى هذا ؟

ـــ « سلوى » ... لمَ يسرع إليك الغضب ؟ !

ـــ يجب أن تكون أعصابنا من حديد ، لكى نواجه أسئلتك فى رزانة وهدوء ... !

ـــ إن « الباشا » بالغ الاهتمام بك وبوالدتك هذه الأيام !

ـــ إنه صديق الأسرة .

ـــ وهذه النفقات التى يضطلع بها ؟ !

ـــ سنسوى حسابها معه بعد خروج والدتى من المستشفى . أتظن أنى أقبل أن يؤدّى «الباشا» تكاليف العلاج ؟ سنردّ إليه ما أدّى .

فنهض « حمدى » ، وأقبل علىّ فى تحمس يقول :
أجل ... نردّ إليه ما أدى ... سألتمس كل حيلة فى هذا السبيل !

ـــ ولم تجشم نفسك هذا العناء ؟ !

ـــ ألست لى مخطوبة ، وعما قريب سنصبح زوجين ؟

ـــ سنتحدّث فى هذا الأمر ، وأما فيما يتعلق بدين « الباشا » فإن

أمى ستؤديه جميعاً ... أشكر لك شعورك الجميل !

فاقترب منى مضطرب الخطا ، وهو يغمغم : ولكن ... ولكن ...

— ماذا ؟

وتتابعت أنفاسه ، وامتُقع ، وبدا لى أن عظام وجهه تبرز على نحو مفزّع ، وقال متلعثما :

إن عاطفة «الباشا» نحوك معروفة . كلنا نعلم أنه بك شديدالشغف.

— إنه يحبنى كابنته .

— هذا مايتظاهر به ليخفى وراءه غرضه الأصيل ... يجب أن تكونى من ذلك على حذر !

— لست غريرة ولا حمقاء ... قلت لك إنه يعطف علىّ عطفه على « سنية » ...

— وأنت ؟ ... أنت ؟ ... ماهو مبلغ شعورك نحوه ؟ !

فرمقته بنظرة شزْراء ، وقلت : من تظنّنى ياحمدى ؟!

فرنا إلىّ فى ضراعة يشوبها غيظ كظيم ... وقال :

إنه غنىّ واسع الثراء ، وماله قد يبهر عينيك !

فنهضت دفعةً واحدة وقلت فى جفوة :

أنا ذاهبة إلى مخدع والدتى ... لقد طلبتْنى منذ هنيهة .

فنظر إلىّ وفى عينيه تخاذل ورجاء ، وقال :

لايسوؤك قولى ... أتأخذين علىّ شيئاً ؟

.. سل نفسك !

— اغفرى لى .

فقلت فى غلظة : لم تفعل شيئاً حتى أغفر لك ...

ـــ أضرع إليك ...

ـــ لا أحمل لك فى نفسى أىّ ضغن !

وغادرته فى الحجرة ماضية إلى مخدع أمى .

وبعد فترة عدت إلى الحجرة فرأيته قد بارَحها تاركا لى رسالة سقيمة الأفكار مهوشة الخواطر ، فيها حبّ وغيرة ، وفيها عتاب واسترحام ، فلم ألبث أن مزقتها ورميت بها طعمة لسلة المهملات ...!

وما هى إلا أن سمعت نقراً على الباب ، ودخل «الباشا» سمح المحيا فى يده طاقة زهر تتألق ، وحيانى تحيته اللطيفة ، وكان ظاهر الأناقة مفتول الشارب فتلا محكماً ، وقدم لى الطاقة وهو يقول :

لقد سألتُ الطبيب عن والدتك فأخبرنى بأنها أحسن حالا . ولكن قد تطول فترة النقه . لا أخفى عنك أن العملية كانت خطيرة ، ولكن الله سلم !

وتناولت طاقة الزهر ، وأنا أهينم بعبارة الشكر ... ولمحت لفيفة صغيرة بين الورود ... فتناولتها وفضضتها فإذا هى علبة تحوى مشبكاً ذهبياً مرصعاً بالماس الثمين ، فرحت أتأمله فى إعجاب ، وقلت فى صوت خافت : لمن هذا ؟ !

فقال فى ابتسامته الرائعة : لك أنت إذا قبلته هدية متواضعة .

ـــ أهدية متواضعة هذه؟ ماذا تكون الهدية غير المتواضعة إذن ؟!

وتابعت قولى وأنا أقلب العلبة بين أصابعى : ولكن يا عمى ...

فقاطعنى قائلا : ماذا ؟ ... إنه تذكار من عمك الذى يهتمّ بشأنك .

فشددت على يده شاكرة، فدنا منى وقال: دعينى أضعه على صدرك!

فوضعه فى لباقة ... ورحت أتأمل نفسى فى المرآة وأنا مزهوة معجبة ... وسمعت «الباشا» يقول : أنت دائماً حبيسة هذا المستشفى...

مرضى ... أطباء ... ممرضات ... ألا تسرِّين عن نفسك بنزهة ، قليلا من الوقت ؟ ؟

ــ إلى أين تريد أن أذهب ؟

ــ نخرج بالسيارة معاً فنطوف طوفة قصيرة ... تشهدين مناظر مختلفة ووجوهاً جديدة .

ــ كما تبغى .

وصحبته فى السيارة نصف ساعة نتنزه، وكان «الباشا» كثير التظرف معى، متأنقاً فى الحفاوة بى ... ثم أبلغنى باب المستشفى وانصرف بسيارته.

دخلت حجرتى مغتبطة أرى الدنيا تبتسم لى ، وحضرت الممرضة بالعشاء ، فاسترعى نظرها على الفور المشبك المرصع يتلألأ على صدرى فطفقتْ تتأمله ، ثم قالت : رائع ... رائع جداً ...

فوجدتنى أبادر إلى إجابتها بقولى : إنه من خاطبى .

ــ خاطبك ؟ ! أحسبه الشابّ الذى كان هنا منذ ساعة .

ــ أىّ شاب ؟ !

ــ الشاب النحيف الطويل الـ ...

فقاطعتها مسرعة أقول : إنه من « الباشا » ...

ــ « الباشا » خاطبك ؟ !

فأقبلتُ عليها وهمست فى أذنها : إن الخطبة ما زالت سراً مطوياً .

فأخذت تهنئنى ، وتبارك خطبتى .

وتناولت عشائى وحدى ، والأفكار تذهب بى كل مذهب ...

وساءلت نفسى : إذا كان « الباشا » صادق الشعور نبيل العاطفة نحوى ، فلماذا لا يخطبنى ؟ !

وفى رونق الصبح هبط « حمدى » الحجرة ، على أثر فراغى من تناول فطورى ، وارتداء ثيابى ... دخل فى سرعة ، وبعد أن حيّانى بادى الارتباك . قال لى : لقد جئتك بقدر من المال كى تؤدّيه إلى المستشفى ، أو تؤديه إلى « الباشا » قسطاً من القَرْض ... هاهو ذا ...

وأخرج ورقة مالية من فئة خمسة الجنيهات ، فنظرت إليه ، وقد بدا فى مظهر خليق بالرّثاء ، وقلت: أشكر لك حسن شعورك يا «حمدى» ... إنك تكلف نفسك ما لا قبل لك به .

فأقبل علىّ فى اهتمام وهو يمد بالورقة يده وقال : لم أكلف نفسى عناء ... ثق أننى سأستطيع الحصول على قدر آخر فى فرصة قريبة .

فرددت يده فى أدب ولباقة وقلت :

ليس بى شديد حاجة إلى النقود الآن .

— ونفقات المستشفى ؟

فقلت وابتسامة الإشفاق تتراءى على شفتىّ :

كل شىء سيسوَّى بعد مغادرة والدتى المستشفى .

فردّ إليه يده فى تباطؤ وهو يغمغم: أنت تزهدين فى قبول شىء منى .

— إذا احتجت إلى شىء فسأرغب إليك فيه .

ووقع بصر «حمدى» فى هذه اللحظة على المشبَك يتضوأ فى بواكير أشعة الشمس ، وقد بدأت تحيى الحجرة تحية الإشراق ... فجعل يتفحص المشبك زائغ النظرات ، ولبث فترة صامتاً ... ثم قال أجش الصوت: إنه منه ... أليس ذلك ؟ ...

فرمقته بنظرة حادة ، ثم قلت : ماذا تعنى بقولك هذا ؟

واحمرت عيناه وارتعشت شفتاه وانطلق يهمهم :

لقد شرعت تقبَلين هداياه الثمينة .

ـــ لا تثريبَ علىّ فى قبول الهدايا .

ـــ أنتِ لا تدركين ما لذلك من سوء العقبىَ ... يجب أن تعودى إلى صوابك !

فوقفت أمامه شامخة الرأس ، وقلت :

لا أسمح لك أن تخاطبنى بهذه اللهجة ... ليس لك حقّ إرشادى .

ـــ علىّ أن أحافظ عليك ، مادمتِ لا تستطيعين أن تحافظى على نفسك !

ـــ اهتمّ بشأنك أنتَ ، أما أنا فإنى حـرّة فيما أصنع .

وهرعتُ إلى الباب أريد مغادرة الحجرة ، فما إن بلغتُه حتى ألفيتُه « حمدى » يلحق بى ، وهو يقول فى لهجة تذلل :

يبدو لى أنى أسأت إليك ... المعذرة ... المعذرة !

ـــ دعنى أخرج ... إنى تاركة لك الحجرة .

ـــ إن أعصابى ضعيفة يا « سلوى » ... إنى شخص محطم ... أشفِقى علىّ .

فوقفتُ أمامه أنظر إليه . وقد تقلصتْ عضلات وجهه ، وتصبب العرق من جبينه ، وبدت عيناه غائرةً عليها غبرة ... وطالت نظرتى إليه ، فاعتلج فى نفسى شعورٌ غامض لا أدرى : أشعور إشفاق هو ، أم شعور تأفف ؟ !

وألفيته يرتمى على يدىّ ، ويُندّيهما بدمع هتون .

طالت إقامة والدتى بالمستشفى وأنا ملازمة لها ... وقد لاحظت أنها أفادت من البقاء فى هذا المكان ، حيث الراحة مستوفاة والحياة منتظمة ليس فيها ما يعكر صفو البال ... وكانت والدتى تُعنى بزينتها، ولا سيما حين تستقبل الطبيب ... فكان إذا لاحظ ما يبدو عليها من زينة بالغة ، ابتسم لها ابتسامة مجاملة ، ولاطفها فى تكلف .

وكان « الباشا » يزورها فى الفينة بعد الفينة زيارات خاطفة ، لاتخلو من توَدّده المألوف ... وإذا خلت والدتى إلىّ انطلقتْ تسألنى عن جلسات « الباشا » معى ، وتطالبنى بأن أروى لها تفاصيل ما يدور بينى وبينه من حديث ، فكنت أخبرها بما يروقنى أن أفضى به وأكتم ما أرى كتمانه .

أما المشبك فقد أثار دهشتها ... ولقد انتزعته من صدرى وأخذت تتفحصه بعين متفتحة ، فساورنى فى شأنه قلق ، ومددت يدى أستردّه فنظرت إلىّ والدتى فى ابتسامة شاحبة وقالت : لن أسلبك إياه ... !

ووضعتْه على صدرها برهة وهى ما فتئتْ تتأمله ، ثم ردته إلىّ على كرْه ، وهى تقول : شدَّ ما هو مشغوف بك !

فوجدتنى أندفع قائلة : إذا كان هذا حاله ، فلماذا لايتقدم لخطبتى ؟!

فأرسلت ضحكة شوهاء ، وقالت : «الباشا» يخطبك؟ ما أعجب أن يصدرَ هذا القول منك يا « سلوى » !

— ولم لا يخطبنى ؟

ـــ إنى أراه أحكمَ من أن يقدِم على هذا الأمر .

فقلت وقد أحسست بعينىّ تلتمعان : وماذا يبتغى منى إذن ؟

فراحت تعبثُ بشريط حريرىّ معقود برقبتها ، وقالت فى تضاحك ساخر : سَليه !

ثم أردفتْ تقول : إن الرجال على فرط ذكائهم تعزب عنهم بسائط الأمور ... يظنوننا طوع بنانهم يشتروننا بمغريات الهدايا ... ولكن ... علينا أن نضحك منهم كما أسلفت إليك فيما نصحت لك به ، نغنم ما يغدقونه علينا من الهدايا ، دون أن ينالوا منا منالا .

ـــ إن هذا السلوك لا يروقنى بحال !

ـــ شأنك وما تريدين ... ولكن يجب أن تعلمى أن « للباشا » فضلا علينا ليس من المروءة أن نقابله بالجحود ... يجب أن نكون أهلا للجميل !

ولم يطل معها حديثى ، فتركتها عائدة إلى حجرتى ، والأفكار تلتطم فى رأسى .

واعتزمت أن أفاتح « الباشا » فى الأمر ، وأصارحه بما يعتلج فى خاطرى ، ولكننى لم آنس من نفسى جرأة على التكلم . كيف أبدأ معه الحديث ؟ كيف أستدرجه إلى لبّ الموضوع ؟ أخشى أن أتورّط فى مزالقَ من الكلام لا أستطيع منها الخلاص !

وحدث مرة عقب زيارة « حمدى » إياى أن أقبل « الباشا » على حجرتى ... وما إن حيّانى واستقرّ فى مجلسه ، حتى سألنى قائلا :

أليس هذا « حمدى » ؟

ـــ هو عينه !

فتشاغل لحظة بفتل شاربه وقال :

شابٌ مهذب ... حميد الأخلاق ... أيكثر من زيارتك ؟

ـــ كلما واتته الفرص ... !

وأخذ «الباشا» يسألنى عن حاله الآن ، فقصصت عليه بعض شئونه ، وأخفيت عنه ضآلة مرتبة ، ثم انطلقت أطرى شمائله ؛ فقال مبتسما :

ما أسعد حظه ! ... إنك تغمرينه بالعزيز من رضاك !

ـــ هو صديق الطفولة كما تعلم .

ـــ لقد ترامى إلىّ أنه يطمع أن يكون أكثر من صديق !

فطأطأت رأسى ، وهمهمت : هذا صحيح !

ـــ أيرغب فى خطبتك ؟ !

ـــ يلوح لى ذلك .

ـــ حسناً ... ثقى أنى مستعد أن أبحث له عن عمل طيب أكثر دخلا من عمله الذى يزاوله الآن ؛ حتى يستطيع أن يواجه الحياة الزوجية .

وصمت لحظة ، ثم استأنف حديثه قائلا : ما هى حقيقة ميله نحوك؟!

ـــ يقول إنه يحبنى .

فحدّق فىّ قائلا : وأنت ؟!

فحولت عنه بصرى وأجبته : إنى لا أكرهه !

ـــ أنت طيبة القلب ، لا تضمرين لأحد كرهاً .

ووجدت الفرصة سانحة للتوسع فى الحديث ، فقلت :

أرغب فى نصيحة تسديها إلىّ !

ـــ ما هى ؟ !

— إذا تقدم «حمدى» يخطبنى ، فماذا ترى أن يكون جوابى ؟

— ألم تُلقى على نفسك هذا السؤال ؟ !

فضحكت وأنا أردّد : مراراً ... !

— وبماذا أجابتك نفسك؟ أو بعبارة أصرح : ماذا قال لك قلبك ؟

فخطوت إلى المرآة خطوة ، وجعلت أصفف شعرى هنيهة ، ثم قلت وأنا أراقب « الباشا » فى المرآة :

رغبتى إليك فى أن تسدى إلىّ نصحاً ... !

— نصيحتى إليك أن تترك الأمر للزمن ... لا تتعجلى ... ولكن ثقى أنه إذا استقر رأيك على قبول « حمدى » فإنى لا أتوانى كما قلت لك فى أن أعينه على تحسين حاله .

فتركت مكانى من المرآة ، وبنفسى شىء من الضيق ... ثم قلت له وأنا أخطو فى الحجرة على رسل : أشكر لك نصيحتك الغالية .

فسمعت « الباشا » يقول : الأمر يتطلب منك رويّة وأناة . قد يتقدم إليك من هو خير من « حمدى » .

فالتفت إليه مشرقة النظرات وقلت : أتظن ذلك ؟ من يكون ؟

فدنا منى وأخذ يدى بين يديه ، وجعل يلاطفها فترة ، وهو يتوسمنى ، ثم قال فى ابتسامة غامضة :

ما رأيك فى الخروج إلى السيارة نتنزه بها الآن وقتاً ؟

فسللت يدى من يده فى غير عنف ، واستدرت فى وقفتى وأنا أغمغم : لا أحسّ ميلا إلى الخروج .

— كما تشائين .

ومشيت فى الحجرة خطوتين ، فتبعنى ، وأدار إليه وجهى ، وقال :

أبما نـعين فى قبلة من جبينك ؟ قبلة عـمّ مخلص !

وقبل أن أجيبه انتهب القبلة فى حرارة ، وحيانى تحية رقيقة ، وترك الحجرة بقامته الفارعة وظهره العريض ، يسير متزن الخطا ...

ولما استخفى شبحه فى الممرّ ألفيت نفسى واقفة وقتاً بلا حراك وما زالت خطا « الباشا » يرنّ وقعُها فى سمعى، ويتزايل رويداً رويداً

وبقيت لحظة تذهب بى الخواطر كل مذهب ، ويجيش بين ضلوعى اضطراب دفين ...

حقاً إن هذا الرجل لغز يستعصى علىّ فهمه ... إنه بالغ الحنوّ... ولـكنه كذلك بالغ القسوة ... لشد ما يتعبنى ! ...

ليس هو بالرجل التافه على أية حال ... بل إنه لتافه كل التفاهة !

أليس هو رجلا كسائر الرجال ؟ إنه يحسبنى صيداً ميسور المنال!

وأطلقت ضحكة ساخرة ، ووجدت أناملى فى هذه اللحظة تعبث بالحلية الغالية التى أهداها « الباشا » إلىّ ، فانتزعتها ، وجعلت أتأملها هنيهة ... ولقد هممت أن ألقى بها فى عرض الحجرة ... ولـكننى لم ألبث أن ابتسمت ، وأخذت ألهو بها ، أدفعها فى الهواء وألقفها مرة بعد مرة وإذا بى أتضاحك !

ما كان أحكم أمى حين نصحت لى بأن نعبث بالرجال دون أن ننيلهم وطرا ...

ولاح فى خاطرى طيف « حمدى » متضرعاً متخاذلا فى بؤسه وهزاله ، نخيم على وجهى عبوس وجهامة ...

وألفيتنى أطبق يدى على الحلية ، كأنما أخشى أن يغتصبها منى أحد !

رحلنا عن المستشفى أنا ووالدتى ، واستأنفنا حياة المنزل ، تلك الحياة الراتبة بأسلوبها العابس المملول ... وكان أهمّ حادث وقع فى هذه الأثناء هو إياب « شريف » من « فرنسا » فقد تلقيتُ من « سنية » دعوة إلى مأدبة غداء أقامتها احتفاء بعودته . وقد لبيتُ الدعوة ، فلقيتنى « سنية » أشد ما تكون اهتياجا : حركاتها ظاهرة الشذوذ ، وحديثها مفكك لا انسجام فيه . على أن ثوبها كان بالغاً من الروعة كل مبلغ ، حريرى النسج هفهاف ، فُصِّل على أحدث طراز وأطرفه ، ولكن خُيِّل إلىّ أن هذا الثوب قد فقد كثيراً من بهائه على قوام « سنية » الناحل ، ووجهها الممتقع المهزول .

وبينما كنت أنا و « سنية » — واقفتين فى الردهة نتحدث ، إذ دخل « شريف » فى صحبة « الباشا » ، وعلى بعد خطوات منهما ظهر « حمدى » محنى الهامة ، متخاذل المشية ، وبدا لى من أول نظرة ألقيتها على « شريف » أنه اكتسب مسحة من الرجولة الحقة ، وراقتنى خطواته المتزنة التى تفصح عن اعتداد بنفسه ، واقتدار على أمره ، وإشاراته التى تنم عن عزة وترفع ، وكان يرتدى حلة رمادية أنيقة ، متقنة التفصيل ، جيدة النسج ، ولم يكن متخذاً صداراً ، إذ ترك لقميصه الحريرى أن يكشف عن أناقته ... وخطرت ببالى على الفور صورة « الدكتور داود فهيم » برزانته والتماع عينيه ذكاء وحيوية ... ولكن سرعان ما توارت هذه الصورة عن مخيلتى !

وتقدم « شريف » من « سنية » فقبل يدها فى رشاقة ، ثم ألقى نظرة

عليّ ، والتفتَ إلى « الباشا » قائلا : من ؟ ... أتـكون «سلوى» ؟

فقال « الباشا » ضاحكا : كلا ، هى صديقة جديدة لـ « سنية » ...

فأطلق « شريف » ضحكة رائعة فيها شىء من التكلف غير البغيض .

وقال : بل إنها هى ... هى بعينها «سلوى» .

وأخذ بيدى يهزّها قائلا : كيف حالك ؟

— بخير ...

والتفت «شريف» إلى « الباشا » وقال : شدّ ما تغيرت !

فألفيتنى على الفور أعاجله بقولى : وأنت ... ألم تتغير ؟

— الحق أننا جميعاً تغيرنا، حتى «سنية» . انظروا .. لقد ازدادت وسامة إلى وسامة ... !

فتضرّج وجه « سنية » وأطرقت على الأثر ... وواصل «شريف» قوله : حتى «حمدى» تغير ... بعد أن ظننا أنه سيبقى على حاله .

وتلفتَ قائلا : أين أنت يا «حمدى» ؟

وتابع « شريف » قوله وهو ناظر إليه : إنه استطال ... استطال كثيراً ... أخشى إذا استمر فى طوله ونحافته أن يبلغ السقف !

فقهقه «الباشا» يقول :

سنضطره أن يقف استطالته قبل أن يمس رأسه سقف المنزل !

وأبصرت « حمدى » فى هـذه اللحظة وهو صامت مرتبك شاحب الوجه زرى الملبس ، فبدا لى كأنه صعلوك، يتطفل على مجالس الأمراء !

وجلسنا فى الردهة نتحدث ، وسرعان ما امتلك « شريف » زمام الحديث فى لباقة ولطف ، فجعل يتنقل من موضوع إلى موضوع ،

يروى لنا طرائف من حياته فى « فرنسا » ويصف لون العيش بين ربوعها فى الأندية والمطاعم والمسارح ومعاهد الدرس .

أما « حمدى » فقد ران عليه صمته وانكماشه ، وخيل إلى أن وجهه قد ازداد استطالة . وأن عينيه قد غارتا أكثر من ذى قبل ، ولم يكن له من عمل فى هـــذه الفترة إلا تجفيف عرقه المتقاطر فى حركات مضطربة . وكان يختلس إلى النظرات ، فكنت أحييه على البعد بابتسامات عابرة أجامله بها . أما « سنية » فكانت من غبطتها فى غمرة ، تنظر إلى خاطبها نظرات مسحور ، وتلتهم حديثه فى شغف ملحوظ !

وقدم لنا غداء فاخر ، ولم تضم المائدة أحداً غيرنا ، وقد استأثرت « سنية » بعناية شريف ، يبادر إلى وضع الطعام فى صحفتها ، ويتفقد حاجتها إلى مختلف الألوان والمشهيات ، وعلى فمه دائماً بسمات إيناس ، وكلمات ظرف ومداعبة ... فأما أنا و « حمدى » فقد أولانا « الباشا » رعايته ، وقد أراد أن يخرج « حمدى » من صمته . فاضطره إلى الكلام ، فطفق يقص علينا فى مشقة نتفاً من شئون حياته وعمله ..

وكنت أجاور « الباشا » على المائدة ، وطالما أحسست يده تلامس يدى . ولا أدرى أكان هذا محض اتفاق أم كان وليد عمد ؟ !

وبعد انتهاء الغداء أدير « الراديو » فانبعث منه لحن راقص . فقام « شريف » يخاصر « سنية » ، ويرقص معها رقصة رشيقة ! .. وبعد انتهاء الرقصة عادت صديقتى إلى مجلسها مضرجة الخدين مشرقة العينين فاترة الأوصال .. وكان سلوك « سنية » على وجه الإجمال لا يروقنى ، فلم تكن بقادرة على ضبط عواطفها الثائرة . يتجلى فى كل إشـــارتها وحركاتها تكلف وتميع وجهالة ، فكأنها طفلة بلهاء ...

شد ما كرهت من صديقتى هذه الخصال ، وشد ما رثيت لها ! ...

٣٥

أعلنت خطبة « سنية » إلى « شريف » ، وأسند إلى « شريف » منصب حكومى مرموق . وأخذت الأسرة تعد لـ « سنية » جهازها ، وتتأهب لزفافها فى أقرب وقت ، ولذلك اتفق العروسان على أن يسكنا جناحاً فى بيت والد « سنية » حتى يتسنى لهما فى روية ومهل أن ينشئا مغنى خاصاً بهما للسكنى .

وكنت كلما ذهبت إلى « سنية » راحت ترينى طرائف الجهاز من ملابس وفرش ورياش . وكان « الباشا » يباغتنا بزياراته . ويتحدث إلينا فى لهجته المحببة . وكنت حين أرجع إلى بيتى فى المساء بعد هذه الزيارات أجد فى كثير من الأحيان هدايا تنتظرنى فى حجرتى بعث بها « الباشا » إلىّ ، وأغلبها مما كنت أرى مثله فى جهاز « سنية » : فرش مزركشة ، ثياب موشاة ، غلائل ، مجموعة كاملة من آنية الشاى . إلى شكول من الطرائف والتحف .

حقاً ما أكرم هذا الرجل ! وما أرقّ قلبه ! ... ووجدتنى أنهض إلى المرآة أتملى محاسنى، يختلج بين جوانحى شعور زهو ومباهاة !

وكثيراً ما دعتنى « سنية » إلى أن أصحبها مع خاطبها « شريف » فى بعض النزهات أو مشاهدة « السينما » أو ارتياد المراقص . فقليلا ما كنت ألبى هذه الدعوات ، حرصاً على أن أترك العروسين يهنآن بخلوتهما . فهما يرفلان فى سعادة وغبطة لا مزيد عليهما .

أما « حمدى » فلم أكن أراه إلا لماما . وكان يتلق فى بعض

الأحيان مثل هذه الدعوات من «شريف»، ولكنه لا يفتأ يعتذر. وبين وقت ووقت كانت تردنى منه رسائل يقول فيها إنه يعمل جاهداً لينمى دخله ويوفر به سعادتى!

وقد لاحظت أننى كلما زرت صديقتى «سنية» عمد «الباشا» إلى تهيئة فرصة يخلو بها مجلسى معه. ومرة بينما كان يقص علىّ بعض نوادر ماضيه، وأحداث شبابه، وجدتنى أقول له على الفور:

أكانت فى حياتك مغامرات حب؟!

فنظر إلىّ متعجباً من جرأتى وقال: إن قلبى لم يهدأ عن الحب لحظة.

فتطلعت إليه ملياً فى صمت. وقلت:

وما هو آخر حب كان لك؟!

فابتسم ابتسامة رحيبة وقال: ألا تعفيننى من الإجابة؟

فقلت له: بل أصرّ على أن تجيب.

— إنى الآن فى غمرة هذا الحب!

— ومن هى تلك التى تحبها؟

— هذا سر بينى وبينها.

— وهى؟... أتبادلك حباً بحب؟

— من يدرى؟

— ألا تحبك؟

— أحسبها لا تكرهنى.

ورأيتنى أندفع قائلة: ولم لا تتزوّجها؟

فاسترسلت ضحكته هينة رقيقة. وهو يقول: أتزوجها؟ أنا؟

فلم أملك إلا أن أكون جادة فى قولى له: أجل... لم لا تتزوجها

مادمت أنت تحبها ، وما دامت هى ليست لك بكارهة ؟ !

فأرسل فى عُرض الفضاء نظراته ، وهمهم :

لقد أدبرَ عنى عهدُ الزواج .

فصمتُّ خافضة البصر ، وواصل حديثَه يقول :

كيف أجنى على فتاة غضَّة فى ريِّق الصبا ، فأريدها على الزواج برجل فى أوْج الكهولة ؟ !

فهمهمت قائلة : بل أنت فى جدَّةِ الرجولة !

فأقبل علىّ يلاطف يدى مبتسما ، وهو يقول :

إنى على وشك أن أستقبل عهد الشيخوخة ... أما هى فتستقبل عهودَ نضارة وتفتح ونضج ... ثِقى أنى لستُ للزواج بصالح .

— وماذا تبتغى إذن بهذا الحب ؟

— الصداقة ... الألفة اللطيفة ... إن مِثلى وقد بلغ تلك السن يأنس إلى ذلك اللون من الصداقة ينعَم فيها بحسن العشرة ، فتضفى على بقايا أيامه طمأنينةً وبهجة .

وشاع بيننا الصمت هنيهة .

ونهضت :فوقف أمامى ،ورنا إلىّ فى عطف، ثم أخذ يدى يلاطفها، وقال : ثقى أنى لك صـــديق صفى . وأنى أكِـن لك فى نفسى مكانة لايعزّ معها أىّ مطلب تريدينه . إنى فى حاجة إلى رضاك !

وقبَّل يدى قبلة مديدة .

... وترادفت الأيام على هذا اللقاء، فلم أغادر منزلى ، واكتنفتنى حيرة وقلق ، وكنت أحيانا أحس إشراقا فى نفسى كلما استعاد سمعى حديث « الباشا » الذى يفيض عذوبة » وأرانى قد تبين لى وجه الحق

فيما صار حتى به ، وأحيانا أخرى تضيق بحديثه نفسى ، وتنكر شخصه عيناى ، وأمتلئ غضبا عليه ، وتتمثل لى صورة « كبير اللصوص البحريين » بحواجبه الغزار وملامحه القاسية الصلبة !

وكانت « أم يونس » تدرك ما ينتابنى من قلق ، وتلاحظ ما يتحفنى به « الباشا » من غوالى الهدايا والطرف ، فأقبلت على ذات مساء ، وكنت فى حيرتى غارقة أفكر ، فابتدرتنى بسؤالها :

الشاب الذى اسمه « حمدى » لم يزرنا منذ وقت طويل ... ماحاله ياترى ؟

— أحسبه مريضاً .

— شفاه الله .. شاب طيب ... على ماذا استقر رأيك فى شأنه ؟

— أى شأن ؟

— شأن الزواج .

فأمسكت برهة وأنا محدقة فى وجه « أم يونس » ثم قات :

وما رأيك أنت فى هذا الزواج ؟

— وهل يروقك رأيى ؟

— إن مكانتك عندى كمكانة والدتى ، ولرأيك فى نفسى كبير مقام .

فأخذت « أم يونس » بيدى وحملقت فى بجد ، وقالت :

رأيى أن تقبلى الزواج به سريعاً .

— ولم السرعة يا « أم يونس » ؟

— ما أوجب الإسراع بالزواج لمن هى فى سنك ! . . . وهذا شاب تتجلى فيه الطيبة ، فضلا عن أنه يحبك .

— لا أرى للسرعة من داع .

فترهجت عينا « أم يونس » ، وقالت :

أما أنا فأرى للسرعة ألف داع ... !

— ماذا تقصدين بما تقولين ؟

— الأجدر بك يا « سلوى » أن تنشئي لك بيتاً ، ولتنفضي يدك من بيت « الباشا » . إنهم أناس لسنا منهم وليسوا منا . ليتركوك وشأنك ! ... لو كان جدك على قيد الحياة لزوّجك « حمدى » وانتهى الأمر ... تزوّجيه .. تزوجيه يابنتى ... واخلصى نفسك من المتاعب.

ثم ربتت كتفى فى حنوّ وجعلت تردد :

تزوجيه ... تزوجيه يا بنيتى .. ودعيك من المظاهر التى لاطائل تحتها ، ولا تؤمن عاقبتها ! ...

ثم قبلت جبينى وانصرفت .

فجعلت أرقب شبحها الضئيل الأعجف يتزايل أمامى رويداً فى لجة الظلام ...

تم عقدُ قرانِ « سنية » فى حفل عائلى كان أكثر من فيه جنس الرجال ، وقد ضمّ بعض الشخصيات البارزة من أقارب العروسين. وكان « حمدى » بين المدعوّين ، وكنت أنا وأمى بين المدعوّات القلائل ، وقد خصصت ردهةُ الطبقة الأولى من المنزل لحفل الرجال ، فلبثتُ أنا و « سنية » ننظر إليهم بين آن وآن ، طلباً للفرجة ، وكان الحفل رائعاً يملأ النفس إعجاباً وبهجة ، ولقد كنت أنظر إلى النُّدُل وهم يختلفون إلى المدعوّين فى حللهم المزركشة وسراويلهم المقصبة حاملين أكواب الأشربة وصوانى الحلوى ، فيخيَّلُ إلىّ أنهم سقاة على موائد الملوك فى أبهى القصور .

وكان « شريف » فاتنَ المظهــر فى حلّته السوداء ورباط رقبته الأبيض ، وهذا القفاز الناصع الذى يخلعه ويلبسه فى المناسبات فى أناقة ومهارة .

أما « سنية » فكانت بادية الاهتياج ، وقد أمضّتنى بترداد قولها : أنا خائفة ؟ !

وكدت أصيح قائلة : مم تخافين ؟ أ إلى غول تزفّين ؟ !

وكانت تحتضننى وتقبلنى بعنف ، وشذا العطور التى نضحتْ بها ثيابها يفغم أنفى ويكاد يسلمُ رأسى إلى دُوَار .

ورأيت « حمدى » وقد حشروه فى زمرة المدعوين ذوى الأبهة والمهابة ، فبدا بينهم غريباً تقتحمه العيون ، ومما زاده غرابة ذلك الزىّ

الذى بدا به ملفقاً من حلل وثياب مختلفة ، فغدا كأنه فى حفل من حفلات التنكر يرتدى لبوسا واضح الشذوذ ... وهذا المنديل المسكين الذى لا يبرح يده ، إنه ليشده تارة ويروح به وجهه أخرى فى حركات تتجلى فيها ثورة الأعصاب .

أما « الزهيرى باشا » فكان عظيم المظهر بين السراة من رفاقه وأخدانه ، يعجبنى منه روعة طريقته وهو يشعل لفافته أو ينفث دخانها أو ينفض رمادها بين حين وحين

وكانت والدتى معنا فى الردهة العليا ، ولكنها كانت فى معزل عنا ، ولم يكن فى سلوكها على وجه عام ما تلام عليه . أما زينتها فلم تكن لتروقنى ، وقد أقلت من الكلام واحتفظت بأرستقراطية مصنوعة وتحفظ متكلف ، ولما مرت بها « مدموازيل شانتل » جاذبتها أطراف حديث قصير بفرنسية عرجاء .

وكانت « مدموازيل شانتل » كالديك الثائر : وجه محتقن نافر العروق ، ينبىء عن اهتياج كمين ، وهى تغدو وتروح فى عجلة دون حاجة داعية ، ومنظارها ذو المقبض الطويل يعلو ويهبط فى يدها دون انقطاع ، وأحسب أنها ألقت إلى بتحية عابرة ، ونثرت على ابتسامة سانحة .

وبعد أن انقضت مراسم الحفل ، صعد « الباشا ومعه « شريف » قاصدين مكان « سنية » فدنا منها « شريف » وقبل جبينها قبلة عذبة . وانحرف « الباشا » نحوى ، وكنت قد انتحيت الركن الذى انتحته والدتى ، فقدم إلينا علبتين من علب الحلوى الفاخرة ، ونزلنا جميعاً إلى ردهة الطبقة الأولى يتقدمنا « شريف » متأبطاً ذراع « سنية » ، فضيا إلى الباب حيث كانت تنتظرهما السيارة الجديدة التى جعلها « شريف »

هدية العرس إلى « سنية » ، فتبعناهما نودّعهما .

وصعد العروسان فى السيارة ، فاسترعت انتباهى على الفور فخامتها وأبّهة مظهرها ، وهى تتألق كأنها جوهرة صافية اللألاء . وما أظن أن نظرى قد وقع على سيارة تضارعها من قبل . وكان الموقف مشرقاً بهيجاً تنشرح له النفس ، ولكن « سنية » انخرطت فى البكاء دفعة واحدة على نحو زَرِىّ ، فعكرت صفو الموقف ، وطمست بهاءه وإشراقه . على أن السيارة مالبثتْ أن تحركت بين التحيات والتلويحات نبعث بها تباعا ...

والتفت « الباشا » إلىّ قائلا : أترين ذوقى حسناً ؟

— فى أى شىء يا عمى ؟

— أنا الذى اخترت السيارة ... لقد كنت مع « شريف » حين ابتاعها .

— إنها حقاً لرائعة .

— ستقلهما إلى « الاسكندرية »

— رحلة جميلة ... لاريب أنها أكثر راحة وأوفر متعة من السفر بالقطار .

فابتسم لى وقال : إذن أنت تُطْرِينَ ذوقى ؟

فخرجتْ أمى عن صمتها المتكلف ، وقالت: إنها تطرى ذوقك دائماً وأطلقت ضحكة صارخة مفزّعة اهتزت لها أوصالى سخطاً ومضضا . لقد أضاعت والدتى بهذه الضحكة كل ما كسبتْه من كرامة بتحفظها وأرستقراطيتها المصنوعة أثناء الحفلة ... وتشاغل « الباشا » لحظة بإصلاح رباط رقبته ، كأنه يتغاضى عما وقع ، ويتظاهر بأنه لم يشعر به

ثم ألفيناه يصيح بسائق سيارته ، فأقبل بالسيارة على عجل، فطلب إلينا « الباشا » أن نركبها لتبلغ بنا المنزل ، فأبدينا الاعتذار ، فأصر على أن نركب .

وبينما نحن فى بعض الطريق تمضى بنا السيارة ، إذ قالت لى أمى : هل تعلمين كم جنيهاً دفع « شريف » مهراً ؟

— لا أعلم ...

— سمعت أنه دفع ألفين !

— ألفين ؟ ! ... مهر كبير .

— هذا فضلا عن السيارة وغيرها من الهدايا والطُّرف .

فقلت : « سنية » تستحق أكثر من هذا .

وغشينا الصمت فترة .

وعادت أمى تقول : أشهدت صاحبك « حمدى » ؟

— لمحته من بعيد .

— لو كنتُ مكانه لرحمتُ نفسى من الحضور ... !

— لِمَ ؟

— ألم تشاهدى حلته العجيبة التى بدا فيها كأنه ألعبان ؟ !

— يظهر أنه لم يدَّخر ملبَسا لمثل هذه الحفل . كل امرىء وما عنده !

— مادام المرء لا يجد لديه ما يليق فليحفظ كرامته ، وليعتذر ترفعاً بنفسه عن أن يكون أضحوكة بين الناس .

وكانت أمى تُـلقى بهذه الكلمات جزافا ، غافلة عما هى عليه من رداء ملفَّق ، وزينة بدت فيها كأنها إحدى المهرجات فى دور اللهو الرخيصة والمسارح المبتذلة !

٣٧

في صبح غد جاء «حمدي» يزورني ، وما كاد يفرغ من التحية حتى قدّم لي ظرفا وهو يقول : ألم أخبرك بأني أعد لك مفاجأة ؟

ـــ أية مفاجأة يا «حمدي» ؟ !

فقال وعينه ينبعث منها وميض ابتهاج وفرح :

خذي الظرف فانظري مافيه ...

ففضضت الظرفَ فألفيت ورقتين من فئة عشرة الجنيهات ، فقلت له وأنا أقلبهما بين يدي : كيف حصلتَ على هذا القدر ؟

ـــ لاتسأليني كيف حصلت عليه ... ثقي أنه من خالص كسبي ... تقيدت بدروس أعطيها ، وهذا مقدَّم الأجر

ـــ أخشى أن تكون قد تورطت .

ـــ لاتورَط في الأمر

وأقبلتْ أمي في هذه اللحظة ، فحيّتْ «حمدي» على البعد تحيةً في ترّفع وهمهمت : أخشى أن أكون ضايقتكما بحضوري ... على أية حال لا أريد أن أكون فضولية أكشف سرّكما . ولكن ماهو وجه التورط الذي كنتما تتحدثان في شأنه ؟ !

فقال «حمدي» في تأتأة وقد انهال على يديه يفرك إحداهما بالأخرى: لقد جئت لـ «سلوى» بقدر من النقود تؤديانه إلى «الباشا» من حساب القرض .

ووقعت عين والدتي على الورقتين الماليتين في يدي ، فشمختْ

بأنفها ، وقالت فى ازدراء :

إن حساب « الباشا » معى ، وأنا عنه مسئولة . لاتجهدْ نفسكَ فى هذا الشأن ... سأؤدى لـ « الباشا » كل ماعلينا حتى لا يبقى له شىء .

فأجاب « حمدى » وهو يمسح وجهه بمنديله الملوّن الرخيص :

أعلم ذلك ... ولكنى أقدم هذه النقود يحدونى ما بيننا من صداقة ووداد . وقد واعدتُ «سلوى» أن أشترك بنصيب فى أداء هذا الدين .

فقالت والدتى وهى على حالها من التنفخ والتشامخ :

شكراً ... شكراً ... ولكن هل تعرف مقدار الدين الذى يجب أن نردّه إلى « الباشا » ؟

— لا أعلم على وجه التحقيق ... ولكن أعد بتقديم قدر آخر فى فرصة آتية .

وازداد وجهه احتقانا ، وسبَح على جبينه العرق ، وبدت يداه كأنما قد صبّ عليهما ماء غزير . وأشاحت والدتى عنه ببصرها وهى تقول :

وعدنى وكيل أعمالى أن يحضر لى قدراً وافراً من دَخْلى . وسأؤدى إلى « الباشا » دينه دفعة واحدة ... إذا احتجنا إلى شىء أخبرناك . نشكر لك . لا تتعب نفسك !

وتناولتْ من يدى الظرفَ بما حوى ، وقدمته إلى « حمدى » ثم حيَّته فى كبرياء ، وانصرفت منتفشة تتهادى ... أما « حمدى » فقد تناول الظرف ، وجعل يفركه بين كفيه . فأقبلتُ عليه ، وقد آلمنى مابدا فيه من حال يُرثى لها ، وقلت :

لماذا لا تبقى هذا القدر عندك لشئون الزواج ؟ . أمامك تكاليف كثيرة تقتضيك إنفاقا .

فغمغم يقول مطأطىء الرأس :

أىّ زواج تعنين ؟

— ألستَ مزمعاً للزواج ؟

— كل الإزماع .

— إذن أبقِ النقود لهذا الغرض ... إننا فى حاجة إليها !

فرفع بصره بغتة وعيناه تلمعان تطلعاً وحيرة ، وقال مردداً :

إننا ؟ ... إننا ؟ ... أجادّة فى قولك أنتِ ؟

— كل الجدّ .

— إذن أنتِ راضية ؟

— لم أرفض مطلبك يوماً !

فنظر إلىّ فى غمرة من الدهشة والذهول ، وبقى على ذلك هنيهة ، ثم أسرع هابطاً على يدى يغمرهما بقبلات مضطربة جيّاشة . . .

فى أصيل اليوم التالى ، وأنا فى حجرتى مقبلة على ثوب أرتق فيه بعض الفتوق ، بلغ مسمعى بوق سيارة يتردد صوته عالياً كأنه يشعرنا بقدوم زائر . وكان صوت البوق غريباً على ، وماهى إلا لحظة حتى أقبلت والدتى فى أتم زينة وزخرف ، وابتدرتنى فى اهتمام بقولها:

« الباشا » ... حضر « الباشا » لزيارتنا ... سأنزل إليه فاتبعينى

ومضت مسرعة ، فعجبت لهذه الزيارة ، وقر فى ذهنى من قرائن الأحوال الساعة أن والدتى كانت تتوقع قدوم الزائر ، أو أن الموعد كان مدبراً بينها وبينه !

فطويت مابين يدى ، ونهضت أرتدى ملبساً آخر متأهبة لاستقبال الضيف ، ثم هبطت إلى ردهة الطبقة الأولى ، فبدا لى أن « الباشا » ووالدتى مشغولان بأمر ذى بال يخوضان فى حديثه . وماإن رآيانى حتى أمسك كلاهما عن الكلام .

وإذا بـ « الباشا » ينهض للقائى باسم المحيا ، فلما تصافحنا أسرع بتقبيل يدى ، وتطارحنا أحاديث مألوفة فى شأن « سنية » وعرسها ثم التفتت إلى والدتى تقول :

« الباشا » يدعونا اليوم الى الشاى فى « مينا هاوس » فبادر « الباشا » بقوله : أتقبلين دعوتى ؟

— لا أستطيع أن أرفض ... الأمر إليك .

— إذن هيا .

وخرجنا . فألفيت أمام المنزل سيارةً ذات أربعة مقاعد تتمثل فيها الفخامة والجمال ، وهى من نوع السيارة التى أهداها «شريف» إلى عروسه ، فقلت على الفور : إنها سيارة جديدة .

فابتسم « الباشا » وأخذ بيدى يدور بى حول السيارة ، وهو يقول :

وهل كنتِ تحسَبين أنى أقدم لك سيارة مستعملة ؟

فوقفت مبهوتة أنظر إليه وأنا أهمهم : تقدّم لى ؟ ...

وتدانت أمى منا قائلة :

إن كرم « الباشا » قد جاوز الحد ... هذه السيارة هدية منه إليك

— هدية إلىّ ؟ ... ولكن ياعمى ..

فقاطعنى « الباشا » قائلا : أتعجبك السيارة أم لا تعجبك ؟

فقالت أمى متضاحكة : هلما ... خشية أن يضيعَ الوقت .

وقال « الباشا » موجهاً حديثه إلىّ : إن السائق سيكون فى خدمتك ، وقد وجدنا مأوى للسيارة قريباً من المنزل .

وجعلت أحدق فى السيارة لا أكاد أتمالك من الدهشة والذهول .

ولما تقدمت أركب سارع «الباشا» إلىّ يساعدنى آخذا بذراعى فى رشاقة وحِذق ... حقا ما أرق هذا الرجل وما أظرفه ... !

وتحركت بنا السيارة إلى «ميناهاوس» وانطلق «الباشا» فى حديثه البهيج ، وأنا أردد النظر حولى فى غبطة فائقة .

ولما بلغنا « مينا هاوس » ألفينا المكان عامراً بالوُرّاد ، وسبقتنا والدتى فى مشيتها الأرستقراطية المصنوعة ، و « الباشا » آخذ بيدى خلفها ... وتخيرنا منضدة بين الخمائل ، ولما قدم أحد الندل مال عليه « الباشا » وأوضح له ما يريد ، ثم التفت إلىّ قائلا :

لقد تطفلت عليكما ، فأذنت لنفسى فى أن أختار لكما الطلبات . فهل أخطأت ؟

— معاذ الله ياعمى ... ذوقك مقبول !

وبعد هنيهة قدم أحد النُّدُل بـ«الشمبانيا» . وتولى «الباشا» إتراع الكئوس . ولما قدم لى كأسى تمتمت قائلة : لا أستطيع ... اعذرنى .

فقال «الباشا» من فوره : لماذا لاتستطيعين ؟

والتفتُّ إلى أمى بنظرة خاطفة ، فقالت لى :

يجب يا ابنتى أن نساير المجتمع الذى نعيش فيه ... لكلّ زمان حال ! ... أتريدين أن يضحك منا الناس ؟

وخطر ببالى موقف والدتى منى قبل أشهر مضت ، حينما كان معنا الأستاذ «رجائى» . فأصرت على أن تطلبَ لى شراب الليمون ...

وسمعت «الباشا» يقول : أتظنين أنى أقدّم لك شيئاً لايناسب ؟

— عفواً ياعمى ، ليس هذا قصدى ... إنما ...

فقال «الباشا» وهو يُدنى الكأس من يدى :

اشربى . اشربى ... كلنا سنشرب .

وأخذ هو وأمى يكرعان من «الشمبانيا» ، فلم أجد بدًّا من تناول كأسى . وأحسست أن مذاقَ الشرابِ ليس بالكريه . ولكنى شعرت بحرارة تسرى فى أوصالى . واندفع «الباشا» يبسط أحاديثه العذاب . وتابعنا الشراب جرعة بعد جرعة ، وعزفت الموسيقى ، فنهض الراقصون إلى مَدار الرقص . فرأيت «الباشا» يأخذ بيدَىْ والدتى فيراقصها فى دور قصير . ثم عاد بها وتقدَّمَ إلىَّ من فوره ، فأخذنى إلى الحلقة . فجعل يراقصنى دوراً كان فيه بالغ الرقة والأدب . وعدنا إلى

المنضدة ، فاستأنف «الباشا» أحاديثه اللطاف مَرِح الرّوح ، جذّاب الفكاهة ، سريعَ النكتة . وجعلنا نجرَع من كئوس « الشمبانيا » والموسيقى تصدح بأنغامها لا تهدأ ... وأحسست بوجهى يلتهب ، وبالحرارة تشيع فى جسدى كله ، وآنست من نفسى جرأة على التبسط فى الكلام ومطارحة النكات . وقام « الباشا » يراقصنى مرة ثانية ، فشعرت بوجهه يكاد يلمس خدّى ، وبذراعه تلتفّ على خاصرتى وتضمنى إليه ضمة اشتياق ... فلم أجد فيما يصنع غضاضة . فهكذا الناس حولى يراقص بعضهم بعضاً فى مؤانسة وملاطفة ، وقد طرحوا عن كواهلهم شيئاً من قيود التحفظ والكلفة ... وألفيتنى أزداد غبطة وابتهاجا ، فانطلقت أتضاحك مسترسلة فى بحبوحة من المرح .

وفى الدور الثالث من الرقص سمعت « الباشا » يهمس فى أذنى :

شدّ ما أنت جذابة يا « سلوى » !

فراقنى ما يطربنى به ، وقلت : أتَرانى كذلك حقاً ؟ !

— أنت فوق ما أصف ... بديعة أنت ... درّة هذا الحفل .

وكان المرقص يَزخَر بالغيد الملاح ، فلت على « الباشا » أداعبه ، وأتحدث إليه فى تدلل ، وعدنا إلى المنضدة ، فألفيت أمى تفرغ فى فمها جرعة وافية من الكأس ، فصحت بها :

ألا تخشين على نفسك أن تثمَلى ؟

فأجابتنى متضاحكة :

يالك من غريرة ... أنا أثمل ؟ لو شربت نهر النيل « شمبانيا » ما ثملت .

ووجدتنى أواصل الضحكات ، و « الباشا » مبتهج بى جذلان . ولاحظت أنه يبادل أمى نظرات تنطوى على شىء ، فقالت على الأثر :

لقد كانَ « الباشا » ظريفاً فى دعوته إيانا اليوم... إننا نطمع أن يتفضل بقبول دعوتنا إياه إلى تناول الغداء بعد غد .

فأجاب « الباشا » :

إنى أقدر عواطفك الكريمةوعواطف « سلوى » أيضاً ... ولكن لم هذه الكلفة ؟

فقلت له : أيّ كلفة ؟ أنتَ منا ، بيتنا بيتك !

— سأحضر نزولا على هذه الرغبة .

ومال عليّ يقول : أيّ ألوان من الطعام تختارين لى ؟

— ما تريده يا عمى !

— لابد أن تتولى أنت نفسك إعداد لون من ألوان الطعام...

— ولكنى أخشى أن أفسدَ عليك الغداء بهذا اللونِ الذى أعدّه .

— لن يعجبنى لونٌ سواه ... ذلك ما أؤكده ...!

— أنت المسئول إذن .

وصحت متضاحكة ، وصاح « الباشا » وأمى يتضاحكان ...

وقضينا وقتاً نقصف ونسمر ونرقص ، وكان حقــاً من أطيب الأوقات ، وأحفلها بالبهجة والإمتاع .

وقفلنا بالسيارة إلى المنزل ، فما إن وافيناه حتى قال لى « الباشا » : أتسمحين لى بأن تقلنى سيارتك إلى منزلى ؟

فقلت له مبتسمة والنشوة تهزّنى : لا ... لا أسمح لك !

فانثنى على يدى يقبلها فى حرارة ، وقال :

يَسعنى فى سبيل إنفاذِ أوامرِك أن أمشىَ راجلا ليلة كاملة !

فقالت أمى وهى تنظر إلى «الباشا» مشعثة الشعر ، محتقنة الوجه ، تحاول أن تسوى من هندامها :

اركب ... اركب ... لو تركتكما تتحدثان على هـذا النحو لبقينا أمام الباب حتى الصباح !

ثم التفتت إلى السائق ، وصاحت بلهجة الآمر :

لا تنس أن تحضر فى التاسعة صباحاً ... التاسعة بالضبط ... لا تبطىء ...

وما كادت حجرتى تحتوينى حتى أحسست تثاقلا يقعدنى .

فرميت على السرير جسدى ، لم أخلع شيئاً من ملابسى ...

وسرعان ما أخذ الـكرى بمعاقد أجفانى .

٣٩

لم أصح من نومي صباحاً إلا بعد العاشرة ، وما كدت أستيقظ حتى هرعت إلى النافذة أتبين : أجاءت السيارة ؟ فلمحتها بالباب .

وخرجتْ بها أمي قبيل الظهر ، ولم تعد إلا في منتصف الليل .

وقد ضايقني ذلك منها كل المضايقة ، كيف سمحت لنفسها أن تستخدم سيارتي على هذا النحو ؟ !

وفي صبح اليوم التالي ، يوم غداء « الباشا » ، قلت لأمي :

ماذا أعددت لضيفنا من طعام ؟

— أعددت ألواناً كثيرة ... لا عليك من هذا !

— ولكن ليس لدينا أدوات المائدة ... الصحاف معظمها لا يليق .

— لا تلق لذلك بالا ... لقد أعددت كل شيء .

— ومن الذي يطهو الطعام ؟

— طلبت الألوان من «جروبي» . سيكون غداء فاخراً ، اطمئن . والآن عليّ أن أخرج لأتفقدَ ما سيحضِره « جروبي » ... سأعود قبل الموعد .

— وأين « أم يونس » ... إني لم أرها اليوم ؟

— خرجت تزور ضريح « الست أم هاشم » ! ...

— لم تخبرني بذلك .

— لقد أخبرتني أنا ، وقد أذنتُ لها في الذهاب .

وتدانت منى وهمست قائلة : يجب ألا تظهر هذه الشوهاء المهدمة فى دعوة كهذه . إنها تفضحنا بلا ريب . لقد طلبت خادماً لا ئقاً من « جروبى »

وارتديت ثوباً أنيقاً ، واتخذت زينتى مهتمة أشد اهتمام ...

ثم لبثت أنتظر .

وساورتنى الحيرة والقلق حين دقت الساعة الثانية عشرة ، ولم يجىء من « جروبى » شىء ، ولم تكد تدق الساعة دقة انتصاف الواحدة حتى أقبلت على باب المنزل سيارة ، وإذا بـ « الباشا » ينزل منها ، فدخل البهو وخلفه خادم حسن البزة يحمل عدة لفائف .

وقال « الباشا » وهو يحيينى : لقد أعطتنى والدتك هذه اللفائف ، وطلبت إلىّ أن أسبقها إلى المنزل ...

وأمر الخادم بأن يعدّ مائدة الطعام فى حجرة الزوّار ، وأخذنا نحن الثلاثة نفضّ اللفائف ، ونرتب محتوياتها فى الصحون والصحّاف ...

وكانت حقاً مائدة حافلة بشتى الألوان الطريفة المغرية ...

وقاربت الساعة منتصف الثانية ، فالتفتّ إلى « الباشا » أقول :

لم تحضر والدتى بعد . إنى متأسفة .

فلاطف ذقنى ، وقال :

ننتظر ربع ساعة فقط ، وإلا فليس لغائب نصيب . ما رأيك ؟!

وانطلق يدور حول المائدة ، وهو ينتقى لى ولنفسه بعض المشهيات ، ويقول : يمكننا أن نتسلى بهذه الطرائف .

ووجدت الخادم يصف قنانىّ « الشمبانيا » ، فملأ « الباشا » قدحا وقدمه إلىّ ، فلم أرفضه ...

وجلسنا إلى المائدة ، وشرعنا نتناول من الطعام ومن الشراب .

وأشار « الباشا » إلى الخادم ، فانصرف عنا دون رجعة . وانقضى ربع الساعة دون أن يظهر لوالدتى من أثر ، فقلت :

ياعجباً ... ماذا أبطأ بها ؟

فصاح « الباشا » قائلا : عقابها ألا ننتظرَها !

ثم ربت يدى ، وقال فى صوت لـيّن المـكاسر :

هيه يا « سلوى » ... ألا تأنسين بوجودى ؟

وكنا قد أصبنا من الطعام نصيباً غير قليل ، وبدأ الشراب ينعشنى ، ويبعث فىّ نزعة المرح والتبسط ، وقلت :

إذا تأخرت والدتى فلن تجدَ شيئاً تأ كله ... كذلك أرادت لنفسها .

فأغرق « الباشا » فى الضحك وهو يقول :

لن نبقىَ لها شيئاً ... هيهات ... !

وأخذ يمتلخ من صدر الديك الرومى قطعة بعد قطعة ، وهو يقدمها إلىّ قائلا : كلى ... لا تبقى لها شيئاً .

وقام إلى المذياع فأدار مفتاحه ، فانطلقتْ أنغامه شجية تبعث الطرب والإيناس ، وما هى إلا أن أخذ « الباشا » يراقصنى ، فاستجبت له ...

وامتدّ بنا الوقت نطعم تارةً ، ونشربُ تارة ، ونرقص أخرى .

وأخذت أحس بما للشراب من نشوة ، وكدت لا أعـى ما أصنع ، ولـكنى أذكر أنى كنت شديدة الابتهاج ، أكثر من الضحك ، وأفسح المجال لـ « لباشا » يداعبنى مداعبات لاتخلو من جرأة ، حتى إنه حين انتهبَ قبلةً حافلة من فمى لم أجدْنى بقادرةٍ على التمنع ...

وأحسست بأنى أفقد السيطرة على مشاعرى .

عسير عليّ أن أتعرف شعورى نحو « الباشا » وأن أتبينه على وجه الدقة . لقد انقضى الآن نحو شهر وأنا أحيا حياة غريبة ، حياة تبدو جديدة ، كأنها طفرة من حال إلى حال . أتراها حقاً طفرة ، أم هى فى الواقع نتيجة محتومة لملابسات مرت بى شيئاً بعد شىء ؟ ... وعلى الرغم من أن علاقتى بـ « الباشا » قد توثقت جوانبها وتوضحت معالمها، وأضحى الأمر بينى وبينه لا غموض فيه ولا خفاء ، فإنى كنت أحس بأنى أضرب فى عباب جياش يجذبنى تياره قسراً إلى حيث لا أدرى ... أحس بأن ضباباً يكتنف حياتى فلا أستطيع أن أرى وسط هذا الضباب المتراكم إلا اليوم الذى أعيش فيه . أما الغد فليس إلى استشفافه أو التفكير فيه من سبيل .. وأيقنت أن ثمة حافزاً خفيا يدفعنى إلى أن أمضى قُدُماً فى هذه الحياة الجديدة لا حيلة لى فى تغيير أو تبديل ...

إنه قَدَر مكتوب على الجبين !

وأكاد أقرر أن عواطفى قد صبغتها مسحة من التبلد ، وكأنى أعيش متأثرة بمخدر لا إفاقة منه ، فما كنت أحس فى حياتى الجديدة تذمراً أو استنكاراً يثير فىّ روح المقاومة . ولم أكن لأضيق إلا بما تبديه « أم يونس » نحوى ... فقد كانت كلما رأتنى رمقتنى فى صمت مفزع ، ووجهها مربد عبوس ، ولم تكن تطارحنى الحديث إلا حين تدعو الحاجة القصوى ... فكنت أحرص دائماً على تجنب مرآها . وأذكر أنهـــا اقتحمت علىّ حجرتى مرة ، وأنا أمام المرآة أتعطر ، فوقفت

تحدجنى بعين حامية وهى صامتة لا تنبس ، ووجهها هو هو ذلك الوجه العبوس المنطوى على التأفف والاستنكاف . ولما طالت وقفتها على هذه الحال قلت لها ، وأنا أتشاغل بزينتى : خيراً يا « أم يونس » ! ...

فتدانت منى بقوامها الأعجف الناحل ، وكأنما ازداد وجهها طولا وبرزت عظامه أكثر من ذى قبل ، وإذا قاربتنى همهمت بحاء الصوت: نصيحتى إليك يا « سلوى » أن تسارعى إلى الزواج ... تزوجى ... تزوجى أى شخص ... حتما أن تتزوجى ... الله ستار !

فشعرت بيدىّ ترتجفان وأنا أصفف شعرى ، ووجدتنى كأن حراباً من الإذلال تغتالنى ، وانعقد لسانى فلم تنفرج شفتاى عن جواب . وزايلت المرأة حجرتى فى مشيتها الوئيدة الزاحفة ، فما إن استيقنت أن ظلها قد انقشع عن الحجرة ، حتى هرعت إلى الباب فأغلقته بالمفتاح . وقصدت من فورى إلى النافذة أفتحها وأستروح منها نسيما يلطف ما أنا فيه من وقدة الألم والضيق .

أما أمى فلم يكن لها من مشغلة إلا ركوب السيارة الجديدة . ولطالما نشبت بينى وبينها المنازعات فى شأن هذه السيارة واستخدامها إياها صباح مساء ... ولما انتهى إلى « الباشا » أمر هذه المنازعات اتفق مع والدتى على أن تستخدم فى تنقلاتها إحدى سياراته القديمة فأصبحت سيارتى لى وحدى ، لا يركبها سواى .

وشهد بيتنا عهداً جديداً من اليسر والرخاء ، فغصت الأصونة بالملابس على اختلاف ألوانها وأزيائها ، ولا سيما صوانى الذى زخرت فيه المشاجب بفاخر الأثواب . أما البيت فى بنائه المنقض وأثاثه البالى فلم يجدّ فيه جديد . وكذلك لم تتبدل حياتنا التى كنا عليها من قبل .

حياة مهوّشة لانظام فيه ولا تنسيق ، فكثيراً ماطلبت الفطور ، فلم أجد شيئاً يستساغ !

وكذلك أصبحت « أم يونس » لايعنيها من أمر المنزل كثير ولاقليل.

وقد حدّثت أمى فى الانتقال إلى مسكن آخر يلائم مانحن فيه من عهد جديد . فزرنا عدة منازل نستطلع ونتفرج ، ولكننا انتهينا إلى البقاء فى ذلك الجحر الخرب نحيا حياة الفوضى والإهمال .

ويوما وردتنى من « لندن » صورة الدكتور « فهيم » بعث بها تحية إلىّ ، فلبثت أتوسمها مليًّا وقد حوّمت فى خاطرى أسراب من الذكريات ، وأحسست حنيناً ينبعث من قلبى نحو الصورة . وجعلت أردد الكلمات التى كان يلقى بها « الدكتور فهيم » إلىّ يطلب فيها أن أعوّل عليه وأن أعدّه ظهيراً لى فيما يكون من أمرى . وأطلت النظر إلى الصورة . وقد لمحت لى تلك المشابه الواضحة بين « شريف » و « الدكتور فهيم » : نظراتهما ... قسمات وجهيهما ... بسماتهما ... وحانت منى نظرة إلى ظهر الصورة ، فقرأت كلمات يخبرنى فيها « الدكتور فهيم » بأن إقامته فى « انجلترا » ستطول شهوراً أخرى ، وقد تمتدّ عاما ...

فألفيت يدى تقذف بالصورة فى درج مكتبى !

أما « حمدى » فقد أقل من زرواته ، إذ كان يستنفد وقته أجمع عاملا على التكسّب ليوفر لى النقود . فإذا لقينى ألقى علىّ نظرات قلق وحيرة ، كأنما يجيش صدره بمعان يخشى أن يفصح عنها لسانه . ومرة قدم المنزل فطفق يجفف عرقه كعادته وقتاً ، ولاحظت أن حديثه مهلهل غير متساوق ، وأنه يوجز فى القول ماوسعه الإيجاز ، وأن يده راعشة لايستقر لها قرار . وبغتة قطع مجرى الحديث ، وقال متهدج النبرات :

لا أستطيع الإغضاء فوق ما أغضيت ... دعيني أفصح ... لقد ترامت إليّ أنباء شاع ذكرها واستفاض ... لست لها بمستيقن ... ولكني أريد منك أن تصدقيني القول .

فقلت وأنا متمالكة هادئة النفس :

في أي قول أصْدقكَ ؟ !

— برأيك فيما يتناقله الناس عنك ...

— لا أفهم ما تعنيه .

فنكس رأسه ، وهمهم في تلعثم :

« الباشا » ... « الباشا » .

فقطبت جبيني ، وقلت في شيء من الخشونة :

أوضح ... « الباشا » .. ماله ؟ !

فأخذ يعبث بأزرار حلته وقتاً ، ثم وجدته قد رفع بصره إليّ ، وقال في نبرة تشوبها حدّة :

يجب أن تؤثري أحدنا على الآخر .

فاندفعتْ مني قهقهة توضحت فيها الزراية والترفع ، وقلت :

لا وجه المفاضلة بينكما !

— إذن أنت تؤثرينه .. أنت تحبينه ...

— زن كلامك يا « حمدي » قبل أن تتفوّه به .

فانبرى يقول في حميّة :

حقاً .. لا وجه للمفاضلة بيني وبينه في نظرك . ولكن قيمتي في نظر العقلاء أكبر من قيمته . حسبك مني أن قلبي يفيض لك محبة وإخلاصاً ووفاء .

وأخذ يقرع صدره بيده ، ويقول :

أنا أفضل من « الباشا » مائة مرة... إنى لا أخادع النساء ، ولا أشترى قلوبهن بالمال ... إنى رجل شريف ... أما « الباشا » فهو رجل خدّاع أثيم !

وتقلصتْ عضلات وجهه ، وتشنجت يده ، فارتعت لمرآة وخشيت أن يتمادى فى ثورته ، فأقبلت عليه أهدىء من روعه متلطفة فى لباقة . فقال وقد سكت عنه الغضب شيئاً :

ثقى أنى لا أغار من « الباشا » ولا سواه... ليست شخصيته بذات شأن ... ولكن يسوءنى ويحزّ فى قلبى أن أراك مسوقةفى هذا التيار !

— أى تيار يا « حمدى » ؟ ! اسمح لى أن أعاتبك على هذه الظنون. أتستبيح لنفسك مهاجمتى ظالماً لى ؟

— إن الناس يتقولون عليك كثيراً من الأقاويل .

— إنها ألسنة السوء والإفك .

— إن هبّات « الباشا » لاينقطع لها ورْد !

— « الباشا يا « حمدى » فى منزلة أبى ... وهو يعدنى ابنته ... لاتحسبنّه أكثر من رجل بنا عطوف ... يالله ! ... كيف يؤوّل الناس مشاعر الشفقة والحنان ؟ ... ولكننى لن ألقى لهذه الظنون بالاً ... حسبى أنى مطمئنة الضمير .

ولاحظت أن «حمدى»قدتأثر بما قلته ، فاستأنفت متحمسة أقول :

حقاً ما كان يقع فى وهمى أنك أنت تسىء الظن بى ... أنت الذى أعدّك لى أخا صفيـّا ، ألقى منك هذه الإهانة ؟

— إهانة ... معاذ الله !

— إذن أنا فى نظرك فتاة وضيعة ... فلماذا لا تقطع صلتك بى ؟

ــ وهل قلت شيئاً من ذلك يا « سلوى » ؟ ... إن كان قد سبق إلى وهمك ذلك فسامحيني !

وظللت غضبي أمسح عيني ، فرأيته يقترب مني متذللا يقول :

إن حبي إياك يغطي على بصري ، فلا أتبين الحق من الباطل .

ــ لم يكن يقع في وهمي يا « حمدي » أن يجيء يوم أكون فيه موضع اتهامك ! ...

ــ عفوا ... عفوا ...

وانتهت هذه المهزلة ، أو بالجرى هذه المأساة ، بأن عادت فسحة الأمل تفتح أبوابها لقلب « حمدي » فانهال على يدي بقبلات حرّى ، وانصرف مشرق الجبين ، مثلج الفؤاد !

٤١

رحل « شريف » و «سنية » بعد العرس إلى « سويسرا » يقضيان هناك ثلاثة أشهر ، وكانت تصل إلىّ من « سنية » تباعاً بطاقات تغدق علىّ فيها القبلات والتحايا،وهى بطاقات مصورة تمثل الزوجين السعيدين فى أوضاع مختلفة وملابسات شتى : فى الفندق ... فى الجبل ... فى الغابة ... بجوار النبع ... فى الحدائق العامة ...

وكانت ملامح « سنية » فى الصورة تنطق بأقوى الحب لعروسها الشاب ، أراها دائماً متعلقة بـ «شريف» ترنو إليه فى هيام ، وابتسامتها ترف على محياها وضيئة بهيجة ، بيد أنها كانت فى هذا كله تبالغ وتغلو. أما هو فكان عظيما رائعاً فى رجولته ورزانته ، وكانت نظرته إليها نظرة إلى طفل مدلل!

وإنى أصارح بأن هذه البطاقات كانت تثير فىّ مشاعر متشابكة غامضة ، وتسلمنى إلى سهوم وانقباض . كلتانا لها رجل تعيش فى كنفه. ولكن أى رجل هذا الذى هو لى ؟ وأية حياة تلك التى أحياها معه ؟!

وذات صباح ركبت السيارة مع «الباشا» قاصدين «الفيوم» نستمتع بنزهة خلوية ... وعلى الرغم من أن كل شىء كان يبعث على البهجة ويغرى بالمسرة ، فإنى كنت أجدنى يمتلكنى الضيق ويسرع إلىّ الاغتمام. وكان يتراءى لى فى الفينة بعد الفينة طيف « سنية » و « شريف » وهما يتنزهان معاً فى ربوع « سويسرا » .. وقد قضيت اليوم مهتاجة الأعصاب ، لا أحسّ متعة فى شىء مما يدور حولى . أما « الباشا » فقد

كان كثير الاحتمال صبوراً يلاطفني ويحاول عبثاً أن يرفه عني . وطالما سألني ماعلة ضجري ، فلم يظفر مني بصريح من الجواب .

ولما أبتُ إلى المنزل علمت من والدتي أن « أم يونس » قد نقلوها إلى المستشفى ؛ إذ أصيبت بالفالج وأصبحت في أسوأ حال . فكانت مفاجأة ارتاعت لها نفسي وزادتني همّاً إلى هم .

وفي الغداة اعتزمت أن أذهب لعيادتها في المستشفى ، ولكن دافعاً خفيّاً عاقني . وقضيت اليوم قلقة حيرى ، وما كاد النهار يدبر حتى جاءنا نعي « أم يونس » ... فانفطر قلبي لهذا الخبر ، وانتابني بكاء وعويل ...

وكانت ليالي مضطربة جيّاشة بالآلام والذكريات ، لا يكاد يغمض لي جفن ، حتى أستيقظ متفزعة يتراءى لي شبح هذه المرأة في مختلف أدوار حياتها معي ، وكان يخيل إليّ أن صوتها مازال يردّد على سمعي جملتها المعهودة : تزوجي . تزوجي أي شخص . حتم أن تتزوجي . الله ستار !

وتتابعت أيام ، وثاب إليّ هدوئي ، وأحسست أن عبئاً قد انزاح عن كاهلي ، وأن الدنيا قد انفسحت أمامي ، حتى إنني حين لقيت « الباشا » أبديت حفاوة بالغة بمقدمه ، ولم أحجم أن ألقي بنفسي في صدره ، وأنا أقول : قبلني ... قبلني .

فنظر إليّ جذلان ، قائلا : إن شيطانك اليوم غائب . ليت هذه الحال تدوم وضمني إليه ، وطبع على خدي قبلة حافلة !

أذكر أني لم أقصد إلى الجبانة لأزور قبر « أم يونس » ولكنني لم أغفل عن واجبي نحوها . فأوصيت بعض مشاهير القراء بتلاوة ختمة كريمة توهب لروحها ، ولهذا الغرض أمرت كذلك بتوزيع الفطائر والفاكهة على الفقراء والمعوزين ، وشملتني الطمأنينة والسكينة بهذا الصنيع ... !

٤٢

تزوجت « حمدى »... وإذا سألت نفسى على أى وجه تم ذلك ؟ لم أستطع أن أجيب . تم الزواج فى مفاجأة غريبة أذهلتنى أنا نفسى .

إن الضباب الحالك ما زال يعقد طبقاته حولى ، فلا ترى عينى من حياتى إلا اللحظات التى أحياها ... إنها تلك اليد الخفية تدفع بى فى الطريق الذى تختاره هى لى، لا الطريق الذى أختاره أنا لنفسى .

كل ما أذكره من الأحداث المتساوقة التى انتهت بى إلى الزواج ، هو أن « حمدى » زارنى يوما ، ففاتحنى عرضا فى شأن زواجنا ، فوجدتنى أقول له على الفور:

إذا كانت رغبتك فى الزواج صادقة فلا مانع عندى على الإطلاق .

ـــ لم تكن رغبتى إلا صادقة ... ولكنك كنت تماطلين !

ـــ كانت هناك أسباب تدعو إلى التسويف والتأجيل ، ولم يبق منها اليوم شىء .

ـــ أجادة أنت فيما تقولين؟

ـــ إذا رغبتَ فى أن نبرم عقد الزواج بعد يوم أو يومين فلا معارضة منى .

حدّق فى وجهى برهة ، وقال ، وقد حنىَ رأسه ، وأخذ يعبث ببعض أنامله : ولكن المال ... لم أجمع بعدما يكفى من المال لنفقات العرس وما إليه .

ـــ هذا لا يهم ... إنى لا أتزوجك للمال ... ما عندك اليوم كاف !

— ووالدتك ؟ !

— أرأيت أنك أنت الذى تتصيد أسباب التأجيل ؟

فصاح : أنا ؟ أنا ؟ ... إذن أنت تجـدّين فيما تقولين !

— إنك بطفولتك هذه تهيج أعصابى .

فنهض ، لم يدر ما يفعل ... وجعل يدور فى الحجرة مضطرم النفس يفرك يديه ، ويجفف عرقه ، ثم وقف قبالتى قائلا :

انتهى الأمر ... غداً يحضر المأذون ليكتب عقد الزواج .

ثم أمسك بيدى يهزها مغتبطاً أبلغ الاغتباط ، وخرج مهرولا يثب على الدرج بقوامه الطويل الهزيل على نحو أثار فى نفسى شيئاً من الضيق .

ولما لقيتُ « الباشا » فى « مينا هاوس » أنهيت إليه الخبر كأنى أحدثه حديثاً لا يدعو إلى الاهتمام ، فاستمع إلىّ ظاهر الهدوء ، وأجابنى وهو يصب الشاى فى قدحى : لقد أحسنت صنعاً . « حمدى » شاب طيب !

وعرَضت على فمه ابتسامة ، ثم ألفيته يستغرق فى صمت ... ولما صدحت الموسيقى نهض يراقصنى ، وأمضينا الوقت على مألوف العادة : نشرب ونرقص ونسمر ... وقد خاض معى فى أحاديث شتى ، ولكن لم يجر لسانه بكلمة حول نبأ الزواج ، حتى حان افتراقنا ، فودعنى بقبلة شعرت بأنها أشد حرارة وأحفل بالعاطفة العميقة من كل قبلاته السوالف ، واستبقانى على صدره وقتاً ، كأنه لا يريد أن يدعنى ... ثم قال لى فى لهجة وديعة : بمناسبة حديثك فى شأن زواجك يسرنى أن تعلمى أنى على استعداد لتلبية مطالبك التى تقتضيها الحال ... ثقى أنى فى خدمتك دائماً ... سأكون لك الصديق الوفى أبدا !

وتلاقت نظراتنا طويلا ونحن صامتان وكأننا اتفقنا فى عالم الصمت

على كل شيء !...

أما والدتي فلم تعارض في زواجي، أو لعل حقيقة أمرها أن الموضوع لم يشغل لها بالا !

وبعد أسبوع من ذلك الحديث الذي دار بيني وبين « حمدي »، أقمنا حفلة العرس ساذجة المظهر، وبحضر من « الباشا » تمت مراسم الزواج، وهيهات أن أنسى ما كان من سماحة خلقه، إذ أشرف بنفسه على إعداد هذه المراسم، فهو الذي استدعى المأذون، ونثر العطايا والمنح، وهو الذي وقف يتفقد « حمدي » أثناء ارتدائه حلة العرس الجديدة، حتى لقد عقد له بنفسه رباط الرقبة، ولا أخفى ان الحلة على جدتها وبهائها لم تكن لائقة بـ « حمدي» ولا موافقة له، فبدا فيها كأنه أحد النُّدل في المشارب والنوادي، أو أحد ممثلي المسارح الهزلية ! فأقبلت عليه مبتسمة، وقلت له : رائع أنت يا « حمدي » في هذه الحلة.

فابتسم المسكين في غبطة، وهو يهمهم : حسبي رضاك عني !

وانهال على يدي يزحمها بالقبلات.

وتحين خلوة بي، فقال لي متحدثا عن « الباشا » :

لقد أسأت ظني بهذا الرجل ظلماً ! لقد تكشف لي اليوم عن نبل عظيم !

ولم يكن لوالدتي هم إلا أن تتعجلنا، وما أحسبها إلا كانت على موعد تخشى عليه الفوات... وقبل أن تختم الحفلة دنت منا مسرعة وهي تقول:

لا أريد أن أعطل العروسين ... مبارك .. ألف مبارك !

وقبلتني قبلة خاطفة، ومالت على « حمدي » تهم بتقبيله، ولكن ما أسرع أن ارتدت تمديدها إليه تصافحه وتهز يده، ثم خرجت صائحة:

عليّ بالسيارة ... عليّ بالسيارة ...

٤٣

انتقلت إلى منزل « حمدى » أحيا معه حياة الزوجية ، فقضيت الأسبوع الأول فى عيشة راضية، يرفرف عليها الهدوء والسلام، وكان « حمدى » قد تخلف عن عمله بإجازة ، فلم يكن يفارق البيت إلا فى النُّدْرة ، وكان فيّاض العاطفة يغمرنى بحبه، ويتوخّى مرضاتى فى كل شىء ، حتى إنه كان يقوم مقام الخادم فى أداء بعض الأشياء الخاصة بى وما كان أطرَفه منظراً حين كنت أجلس إليه أطارحه الحديث ، وبين يديه طشت يغسل فيه مناديل لى وهو يصفر مبتهجاً طلْق الأسارير...
ولم يكن بالمنزل إلا خادمة حبشية أحضرها «حمدى» لتقوم بطهو الطعام وإنجاز الشئون المنزلية،وهى نحيفة غائرة الخدين بائنة الطول كأنما كانت تضيق بقامتها المنبسطة،فإذا مشت حنت هامتها بعض انحناء،وهى امرأة صموت جهمة الوجه منصرفة دائما إلى شأنها ، فكانت إذا مرت بنا فى تجهمها وصمتها ، مال علىّ « حمدى » يقول هامساً فى لهجة الطّروب :

سعادة سفير نيام نيام !

فنتضاحك معاً ، والخادمة فى طريقها ماضية لا تعبأ بشىء .

وكان لهذه المرأة عينان ثاقبتان لم أكن آنس بنظراتهما على الرغم من أنها كانت جمة الأدب معى ، بالغة الاحترام لى .

وفى صبيحة كل يوم تقف أمامى وقفة مهذبة تقول :

ماذا تريد « الهانم » أن يعدّ لها اليوم من الطعام ؟ !

فكنت أقدح فكرى دون أن أنتهى إلى شىء ، فأبتسم لها مجيبة :

إنى بحسن ذوقك واثقة ... تخيرى ما ترين .

وعلى الرغم من تكرار هذا الموقف بجملته وتفصيله أياماً متوالية، فإن الخادمة لم تكن تعفينى منه يوما !

ولما انقضت إجازة « حمدى » استأنف عمله ؛ فكان يغادر المنزل بكرة ويعود إليه فى العشية . وكنت أزوده فى منصرفه صبحاً ببعض الشطائر يطعمها عند الظهر. كما كنت ألزم نفسى أن أعقد له بيدى رباط الرقبة ، فيبدو على وجهه سيما الارتياح . وقد شرعت بعد أيام أحس أن الوقت يمر بى ثقيل الخطا . ولا أكتم أنى كنت أجدنى مستوحشة لبقائى منفردة فى ذلك المنزل مع هذه الحبشية العجفاء ذات النظرات الثاقبة ، وكانت تأتى ظهراً بصينية الغداء، فتضعها أمامى بوجهها الجهم وتقول لى فى لهجتها المهذبة :

أليست « الهانم » فى حاجة إلى شىء ؟ !

فأصطنع ابتسامة مغتصبة ، وأقول : لا شىء ... أشكر لك .

فتزول عنى فى خطواتها الوئيدة ، كأنها فى خشونة منظرها ، وما تبعثه فى نفسى من رهبة ، شرطى أقيمَ علىّ رقيباً فى محبسى ...

فإذا اشتدت بى السآمة والوحشة خرجتُ إلى حديقة المنزل الساذجة فلا أجد فيها متعة ولا أنساً ، فلا ألبث أن أعود لألتمس السلوة بتصفح بعض المجلات ، ولكن سرعان ما أمل التصفح . فأقوم بأداء بعض شئون المنزل ، بيد أن هذا العمل لم يكن يروقنى ، إذ كان عهدى به بعيد المدى ... وكان « حمدى » يئوب فى الأماسى مكدوداً ظاهر الإعياء ، وأول ما يلفت نظرى رباط رقبته الذى عُنيت منذ الصباح بتنسيق عقدته ، فإذا هو كأنه ثعبان ملتو يزحف على رقبته آخذاً بمخنّقه .

فكنت أصيح بـ « حمدى » : يا للعجب ! ماذا فعلت برباط رقبتك ؟
فيجيبنى بسّام الثغر وهو يطبع على جبينى قبلة :
لا أستطيع أن أغيّر ما مسته يدك !
فأربت خده قائلة : لابد أن تكون رشيقاً مهندماً يا « حمدى » !
وحين يأخذ فى خلع حلته وارتداء منامته أراه يتوقف ، ليمضى فى حديث مستفيض عن مشروعاته الطوال العراض التى ستدر عليه وافر المال . ثم يصيح مهتاجاً : إن مقامك فى هذا المنزل المنعزل يبعث فىّ الخجل ... سنتركه حتما ... وسنحل مسكناً لائقاً فى قلب المدينة .
فأطيب خاطره وأبادله تمنياته، وأنبهه إلى أن يتم ارتداء المنامة .. !
وأذكر أنه خرج معى مرتين إلى بعض المراقص . وقد رضى بذلك متوخياً مسرتى، وليخرجنى وقتاً من أسر تلك الحياة الراتبة التى أحياها فى منزلى الموحش ... وكان هو الذى يراقصنى، ولكن سرعان مايدركه التعب ، فيشحب وجهه ويتفصد جبينه عرقاً ، فلا ألبث أن أخرج به من الحلقة إلى حيث نجلس ، فكان ينكر ذلك علىّ ، ويريدنى على أن نتابع الرقص .
تواصلت الأيام على هذا النحو ... وقد أخذت أضيق ذرعاً بحياتى، وأفقد السلوى فى كل شىء حولى، حتى إن نكات «حمدى» ومعابثاته كانت تثير غضبى بدلا من أن تسرىَ عنى . وكان يتخذ من جملة «سعادة سفير نيام نيام » دعابة يكررها على مسمعى كلما مرت بنا الخادمة الحبشية ، فلما ضجرت بهذه الجملة أقلع عنها ، فلم يعد يذكرها مرة أخرى .
وفى محيط هذه الحياة التى أحياها، كان يلمح فى خاطرى أحياناً طيف « الباشا » فأجدنى وقد ثارت فى نفسى أشتات من المشاعر الكامنة .
وبدأت ألقى على نفسى هذا السؤال: أأحسنت بهذا الزواج صنعاً؟!

٤٤

في ضحوة يوم ، وقد انصرف « حمدى » إلى عمله ، وانتهت الخادمة الحبشية من مهمتها الرسمية اليومية ، مهمة إلقاء سؤالها علىّ : ماذا أريد أن تعدّ لنا من الطعام ، ألفيتنى وقد عصَف الضيق بنفسى كل عصف ، فإذا بى أرتدى ثياب الخروج وأتخذ زينتى وأغادر المنزل قاصدة بيت « الباشا » . وما إن دخلت البهوَ حتى طالعنى شبحُ « مدموازيل شانتل » فأقبلت عليها أحييها ، فردت تحيتى فى اقتضاب ، وعلى فمها تتخايل ابتسامة متكلفة . ووقفتْ قبالتى وقتاً وهى ترفع منظارها ذا المقبض المفضّض إلى عينيها وتنزله عنها تتفحصنى ، كأنى حيوان غريب لم يقع عليه بصرها من قبل !

وانتزعتْ « المدموازيل » من بين شفتيها كلمة التهنئة لى بزواجى ، ألقتها إلىّ كأنها تجود علىّ بمنحة سامية ...

ثم شعرتُ بأن منظارها يسائلنى فى فضول : لم جئتِ ؟

فقلت على الأثر :

لقد أتيتُ لأسألَ هل جاءت رسائل من « سنية » إلىّ ؟

فهمهمتْ مغضنةَ الجبين : إنها تبعث برسائلها إليكِ بعنوانك...

— لقد تغيّر عنوانى .

— ألم تسألى أحداً فى منزل والدتك ؟

— لم يصل إلينا هناك شىء !

— ونحن أيضاً لم يصل إلينا باسمكِ شىء !

وصافحت سمعى فى هذه اللحظة سَعلة «الباشا» ذات الغُنة المعروفة لى ، فعلمت أنه فى حجرة مكتبه ، فقلت : المعذرة ... لقد أقلقتك . أشكر لك ... تحياتى لأهل المنزل . لقد انتهت مهمتى!

وتظاهرت بالاتجاه إلى الباب أنصرف ، واسترقت النظر إلى « مدموازيل شانتل » ، وهى تغادر البهو بقامتها الصلبة كأنها فلقة من خشب ، ومابرح المنظار فى يدها يهبط ويعلو ... وما إن رأيت شبحها قد تزايل حتى أخذت سمتى إلى حجرة « الباشا » فاقتحمتها عليه ، وكان جالساً فى مقعده الجلدىّ الفسيح يقرأ إحدى الصحف ، وبجواره قدح القهوة يترشّفه . فلما رآنى نهض مقبلا علىّ مشرق الوجه يقول :

أهلا بالعروس ...

وأخذ بيدى يحيينى ويلاطفنى ، ثم دعانى إلى الجلوس ، فقلت وما زلت واقفة : حضرت أسأل عن رسائل «سنية» ، ألم يصل منها شىء باسمى ؟

— كلا ... ولكنى أستطيع أن أحدثك عن « سنية » وأخبارها كثيراً إذا شئت ... ألا تجلسين ؟

وأشار إلى متكإ بجانبه ، فقلت :

كلا ... أشكر لك ... لقد جئت لأسأل عن الرسائل .

فأمسك بيدى يقول : تعالىْ ... تعالى نجلس وقتاً أقص عليك نبأ « سنية » ، وتقصين علىّ أنباء زواجك .

فقلت ، ومابارحت موقفى ، فى لهجة يشوبها جفاء :

ليس لدىّ ما أقصه عليك .

وما أسرع أن انحرفت عنه ببصرى ... فندّت منه ضحكة خفيفة وقال وهو آخذ بيدى : أراهن على أنك غضبى !

وحاولت أن أجذب منه يدى ، وأنا أقول :

دع يدى .

ـــ لماذا أنت مغضبة ؟ !

واقترب منى ، يطوق بذراعه خصرى ، فقلت وأنا أتفلت منه :

اتركنى ... اتركنى ...

فضمنى إليه ضمة اهتياج ، فما هى إلا أن تهالكت على صدره أنتحب ، وتملكتنى نوبة من النشيج ...

فجعل يلاطفنى ، وأدنانى من المتكإ ، فأجلسنى عليه ، وقال حنون الصوت :

هلا أفضيت إلىّ بما يضايقك ؟ !

فنظرت إليه وعينى بالدمع شرقة ، وهمهمت :

أتجهل مايضايقنى ؟ !

وحدقت فى وجهه وقتاً ، ثم قلت له فى لهجة ثائرة :

قبّلنى ... قبّلنى ياقاسى القلب !

ولكننى لم أمهله ، فرأيت نفسى أرتمى بين ذراعيه ، وقد وصلتْ بيننا قبلةٌ عطشى بعيدة المدى ! ...

٤٥

وصلت من علاقتى السابقة بـ « الباشا » ما كان قد انقطع ، وعادت حياتنا أوثق عرآ مما كانت قبل ! ...

وشعرت بأن كلفى به يزداد على مر الأيام ...

أما «حمدى» فلم ينكر على أمراً ، ولم يربه من سلوكى شىء ... يبارح المنزل غدوة ، وقد عقدت له رباط رقبته ، وأعددت له شطائر الظهر على مألوف العادة ، ثم يوافى المنزل مساء فيجدنى فى انتظاره ، وما إن تقع عينى على صدره وأرى رباط رقبته قد انحل وتلوى كالثعبان زاحفاً يأخذ بمخنقه ، حتى أقول له فى دعابة رقيقة :

ويحك ... ألا تفكر يوماً فى إصلاح هذا الرباط ؟

فيجيبنى بابتسامة هزيلة ، محاولا أن يطارحنى الدعابة ، ولكن سرعان ما يتخاذل ويلح عليه الضعف ، فيبادر إلى الفراش ... وقد لاحظت أنه يفقد شهيته للطعام يوماً بعد يوم ، فكنت أستزيده من الأكل ، وأعنى به أشد عناية ، وأغمره بعطف لم يكن ينتظره منى ، فكان ينظر إلى بعين يتجلى فيها الاعتراف بالجميل .

وبان عليه الإعياء ، واستبد به السعال ، واضطر أن يتخلف عن عمله ، وشعرت بأنه يعانى الضائقة فى موارده ... ولم يكن يقلقنى من أمره إلا سعلته ، تلك السعلة التى يبدو أنها ليست مأمونة ... ولكنه كان يطمئننى بقوله : إنه تعب عارض ... سأتغلب عليه !

وكثيراً ما كان يتحدث إلى عن مشروعاته الطوال العراض ،

ويمنّيني باقتراب تحقيقها ، ويكرّر على مسمعي قوله : ثق أن حالتي المالية في تحسن ... لقد تم التعاقد على أن أعطىَ دروساً خصوصية ، وأن أؤلف أغاني وألحنها ... إني في عمــــلي بجدّ ... سوف يزدهر المستقبل !

على أن سَعلته كانت تعترض حديثه فتقطعه عليه ، فيظل في سعاله، والعرق يتحلب منه ، ثم أرى وجهه قد امتُقِعَ وانتابه شبه إغماء ،

ولما وجدت موارد «حمدى» قد شحـَّت ، اضطررت أن أقدِّمَ له من عندى مبلغاً من المال يستعين به على مآربِ المنزل ، كذلك اشتريت له حلةً جديدة دعت إليها الحاجة . وكنت أخبره بأن والدتي تمنحني بعض المال من دخلها الخاص . فلم يكن يُبـْدى أى اعتراض أو استفسار ، بل كان ينظر إلىّ ساهم الوجه كأنه يفكر في شئون أخرى.

وازداد «حمدى» هزالا ، وخــيِّل إلىّ أنه يزداد طولا ... وكأنما هو يبارى تلك الخادمة الزنجية في الطول والنحافة !

وتلاحق تخلفه عن عمله ، ولزومه الفراش ، فـكنت أقول له :

لماذا لاتعرض أمرك على الطبيب يا « حمدى » ؟

فيبتسم ويحاول أن يظهر بمظهر الجسور الذى لا يعبأ بشيء ، وهو يقول :

من أجل وعكة خفيفة نعرض الأمر على الطبيب ؟ ثق أن هـذا عارض لن يكون له بقاء . راحة أيام تعيد صحتي أحسن مما كانت من قبل .

ولـكن حان الوقت الذى لم يستطع معه « حمدى » مفارقة المخدع . لقد بلغ به الضعف أقصاه ... وغارت عيناه كأنهما نجوتان مرهوبتان .

وتلظى وجهه من وقدة الحمَّى ... ولاحظت أنه يخفى عنى مناديله

ولكنى استطعت أن أرى واحداً منها فإذا فى طيّاته نُفاثات دامية... فاغتنمت فرصة نعاسه مرة وهرعت إلى «الباشا» من فورى ، وأفضيت إليه بجليّة الأمر ، فاهتم لذلك أكبر اهتمام ، واستدعى طبيباً رافقنى إلى المنزل ...

ولم يَطِب « حمدى » نفساً برؤية الطبيب بادىء بدء ، وعاتبنى بنظراته فى صمت ... ولما وجد الطبيب يتفحصه مدققاً ، ويلقى وابلا من الأسئلة ، تغيرت نفسيته ، وصار كأنه طفل مَهيض على وجهه سيما البكاء ... ورأيته يمسك بيد الطبيب ويندفع قائلا :

إنها وعكة خفيفة ... أليس كذلك ؟... راحة أيام تعيد لى صحتى كما كانت ... أليس كذلك ؟ ... لدىّ أعمال كثيرة تتطلب الإنجاز !

ثم رنا إلى الطبيب متضرّعاً وهو يضغط يده ، ويقول :

ليس عندك شبهة فى شىء غير عادى ... أليس كذلك ؟

ثم إذا به ينخرط فى بكاء يستدر الإشفاق ... فجعل الطبيب يرفه عنه ، ويؤكد له أن ليس فى الأمر ما يسوء ، وأن أياما قلالا كفيلة بالشفاء ... ثم ربّت خده ولاطفه بقرصة خفيفة ، وهو يقول :

أمثالك يا أستاذ « حمدى » يخشاهم المرض !

فوجدتُ « حمدى » يكفكف مدامعه ، ثم افتر ثغره ، قائلا لى :

أتسمعين يا « سلوى » ... إن المرض يخشانى !

وخرج الطبيب ، فصحبته إلى الباب ، فقال لى فى جدّ :

يجب نقل المريض إلى مصحة « حلوان » دون إبطاء .

فشددت على يده قائلة : هل الحالة سيئة ؟

— لا تخلو من خطر ... علينا أن نؤمّل ، والمستقبل غيب ، لابدّ

على أية حال من نقله إلى المصحة ... !

— أيمكث هنالك طويلا ؟

— أشهراً ... أشهرا قد تطول وقد تقصر

ثم أخبرنى بأنه سيتصل بالمصحة للاتفاق على إعداد مايلزم .

وما كدت أسأله عن النفقات والمطالب التى تقتضيها المصحة ، حتى قال لى :

لا يشغل بالك شىء ... لقد فوض لى « الباشا » أن أتخذ كل مايلزم .

ولم ألاق صعوبة فى إقناع « حمدى » بأن ينتقل إلى مصحة « حلوان » وأكدت له أنه لن يمكث فيها أكثر من أسابيع ، وأنى آثرت نقله إليها حتى يبتعد عن منطقة هذا المنزل الرطبة التى تطيل أمد المرض ، فأمسك بيدى فى استسلام وذهول ، وهو يقول :

وأنت ؟ أتفارقيننى ؟ ...

— كلا ... سألازمك .

— أنت كنزى الثمين يا « سلوى » ... الدنيا لا تساوى بدونك شيئاً !

استقر « حمدى » فى مصحة « حلوان » فأقبلت عليه فى رفق وحنو أنهى إليه أسفى ، إذ أبت المصحة ، وفقاً لأنظمتها ، أن تأذن لى فى البقاء معه ، فلم تنفرج شفتاه عن لفظ ، وكان الإعياء يرتسم على سماته. حتى إنه عند ما شدّ على يدى يودّعنى ، لمحته يسبل جفنيه فى فتور .

ولما رجعت إلى منزلى لأقضى ليلتى وحيدة لا شريك لى إلا هذه الحبشية الصموت الجهمة الوجه ، تعاصى علىّ النوم ، فسهدت الليل كله تكتنفنى الهواجس المفزّعة . وخيل إلىّ أن هذه الحبشية ستقتحم علىّ حجرتى فتخنقنى بيديها المعروقتين الصّلبتين فى جنح الظلام !

وفى الصباح هرعت إلى بيت « الباشا » ودخلت عليه مضطربة أقص عليه حالى . فقال : أترغبين فى العودة إلى بيت أمك ؟ !

فأجبت على الفور : هذا لا يكون .

فطفق يفكر فترة ، وهو يذرع الحجرة ذهاباً وأوبة ، ثم قال :

لا سبيل إلى راحتك إلا بوسيلة واحدة .

ـــ ما هى ؟

ـــ أن تقيمى هنا ...

ـــ هنا ؟ ... كيف ؟ !

ـــ أنت ستقيمين فى دار صديقتك « سنية » ... أنت فى ضيافتها. وهل نحن إلا أسرة واحدة ؟ ! هذا جناح « سنية » معدّا، ففى وسعك أن تحليه ... ولا حاجة لأحد به .

— ولكنّ الناس لن يعفونا من قالة السوء .

— إذا خشينا ما يقوله الناس لم نستطع العيش ... أيةُ شائبة في أن تحيَي معنا ... ألسنا أسرة واحدة .. ؟!

وتركت منزلَ « حمدي » في عهدة الحبشية ، ولا أدري بعد اليوم على مَن تُلقي سؤالها الرسمي المعهود :

ماذا تريدين أن أعدّ من الطعام ؟ !

ونزلتُ جناحَ « سنية » من بيت « الباشا » وأنا مغمورةٌ بعطفه وتعهّده ، فبدأت الحياة التي طالما صبتْ إليها نفسي من زمن قديم :

هذا السرير الفاخر سرير صديقتي ، إني أتقلب في أعطافه تسري في أوصالي الراحة والرضا ... هذه الأصونة التي يزخر كل صوان منها بغوالي الثياب ... هؤلاء الخدم بأمري يأتمرون ... تلك السيارات رهن إشارتي صباح مساء ... هاته الشرفة الرحيبة المطلة على بستان الدار ، تلك الشرفة التي طالما جلستُ فيها إلى « سنية » ، لقد أصبحتْ الآن لي عُشّ الغرام ... أقضي فيها مع « الباشا » أطيب الأوقات ، وأعذبَ السهرات ؛ نلعب بالورق ، ونتنادر ونتضاحك ، وحولنا مالذ وطاب من طعام وشراب !

كان كل شيء وفْق مرامي ، إلا أمراً واحداً يثير حفيظتي . هذه الغمزات والإيماءات الخفيّة التي كنت ألحظها فيمن يحيطون بي من خدَم الدار ، وتلك الهمزات واللمزات التي كنت أفطن إليها فيما يتخاطفونه من حديث ... أما « الدادة شيرين » فقد لزمت حجرتها في الطبقة الدنيا من المنزل ، وقيل لي إنها مصابة بمرض المفاصل ، ولا أدري مبلغ هذا القول من الصدق . أما « مدموازيل شانتل » فلم أكن أراها

إلا فى النّـُدرة ، وهى على حالتها : منظارها ذو المقبض المفضض تعلو به على عينيها وتهبط فى الفينة بعد الفينة ، مشيتها الصـُّلبة كأنها دمية تندفع بلولب ، ابتسامتها المغتصبة تحمل فى تضاعيفها الزراية والامتهان ! ...

وكنت إذا جزت بحجرتها لمحتها ممددة على مقعدها الفسيح ، وأمامها كتاب تقرأ فيـه ، وقد أمر بها بعد ساعات فإذا هى كما تركتها لم تغير جلستها ، ولم تدع كتابها .

ولقد كانت والدتى تزورنى فى بيت « الباشا » كلما أعوزها المال ، تتظاهر بالسؤال عما وصلت إليـه حالة « حمدى » ، وتتصنع الاهتمام بأخبارى ، ثم لا تكاد تنال مآربها من النقود حتى تدعنى مهرولة إلى الطريق ...

فأما « حمدى » فكنت فى بادىء الأمر أواصل زيارته كل يوم ، لـكن بعدت علىّ الشـُّقة . فاقتصرت على زيارته يوما بعد يوم ، ثم شغلنى شأنى فلم أستطع أن أزوره إلا يوما أو يومين فى كل أسبوع ... وكنت أدخل عليه متلألئة فى أتم زينة وزخرف ، فيلقانى بادىء بدء فى شغف وابتهاج ، ويحـتم علىّ أن أجلس عن كثب منه على السرير ، ثم يتوسمنى مليـًّا ويده تضغط يدى ، ثم أراه يتحسس ثوبى مسترسلا فى صمت وكآبة ، فلا يفوتنى أن أحزر ما يعتلج فى نفسه من مشاعر ، وما يدور فى رأسه من خواطر ، فـآخذ فى ملاطفته ثم أقدّم له هـداياى : علب حلوى ، فطائر ، كتباً ، مجلات ، صوراً ... وأحياناً أناوله بيدى بعض الفطائر أو الحلوى فيطعمها وقد بدأت اساريره تنطلق ، وثغره يلوح عليه الابتسام ، ثم تنحلّ عقدة لسانه فيندفع فى السؤال عن البيت وشئونه ، وعن عيشى فيه ، فأقول له :

كل شيء على ما يرام ، وإنى أبشرك بأن الصداقة قد توثقت بيني وبين «سفير نيام نيام» !...

فنتضاحك ... ثم أجده قد انبرى يتحدث عن حاله وما يشعر به من تحسن ، ولكنه كان يشكو إلىّ سوء الطعام ، ويرغب إلىّ فى أن أذهبَ إلى المطهى بنفسى أرجو من القائمين عليه أن يقدموا له طعاماً جيدّ الطهو مختلف الألوان ...

وكان يختم حديثه بقوله : لن يمضى وقت طويل حتى نرجع إلى عشّنا الحبيب . وأستأنف العمل لإنجاز مشروعاتى المعطلة . سيتدفق علينا الكسب ، فأجعلك فى رغادة من العيش .

وكنت أجده وقد أجهده الحديث ، تدركه نوبة سُعال ، فأريده على أن يستريح ، فلا يلبث أن يستجيب آخذاً بيدى فى تشبث ، وتنقضى فترة طويلة دون أن أستطيع منه الخلاص ، فأنهض قائلة :

يجب أن تنام يا « حمدى» !

فينظر إلىّ بعينيه المكدودتين ، وينتزع الألفاظ من بين شفتيه الجافتين انتزاعا ، قائلا : أكذلك تتركيننى مبكّرة ؟ !

فأميل عليه حانية ، وأهمس : لقد أزف موعد انصراف الزوّار . إن أنظمة المصحة لا تأذن للزائر أن يمكث كما يهوى .

فيقول هزيل الصوت أجَ :

حتى بين الأزواج ؟... إن هذا لظلم عظيم !

ثم يطبق جفنيه ، ويقول مجمجماً فى نبرات متقطعة :

يجب أن تعرضى شكواى على الطبيب ليأذن لك فى البقاء أطول وقت ممكن ...

ـــ سأفعل !

ثم أحاول أن أجذب منه يدى بلطف ، فإذا به يصر على إبقائها في يده ، وأسمعه يهمس :

و «للباشا» ... أتزينه ؟

ـــ منذ زمن طويل لم أره .

ـــ إنه رجل عطوف كريم ... أعترف بذلك ... ثق أننى سأجزيه على جميله معنا ... ثق ... ثق ...

وأراه قد بدأت بوادر النعاس تبدو عليه ، وقد بان وجهه كأنه هيكل ، خد غائر ممتقع ، فم منفرج بشع المنظر ، يدان عجفاوان كأن عظامهما هشة توشك أن تتداعى ...

فأخرج حثيثة الخطا إلى الطريق ، كأنى مفلتة من محبس خانق ، أو منبعثة من قبر عشت فيه ساعة مع رميم عظام !

٤٧

فى إحدى الليالى بينما أنا فى الشرفة جالسة إلى « الباشا » نتفاكه ونتجاذبُ أطراف الحديث ، إذْ رأيته قد نهض بغتة إلى سور الشرفة وقد تحسس قلبه بيده ، وهو مبهور الأنفاس كأنه يختنق ، فقفزت إليه أسأله : مابك ؟ !

— لاشىء ... لاشىء ... !

— ماذا ؟

وكان يشرئبّ ليستنشق الهواء ... ثم سمعته يهمهم :

قليلا من « الكولونيا » ...

فأسرعتُ أحضر ما طلب ، فلما عدت إليه وجدته قد تهاوى على الأرض ، فصرخت مرتاعة ، وانحنيت عليه أتفحّصه ، فوجدته جاحظ العينين ، يتنفس فى عسر ، ويحاول الكلام فتضطرب شفتاه ولا يبين ، فناديت بعض الخادمات أستغيث . فأقبلْن علىّ متفزعات ، فحملنا «الباشا» إلى حجرتى ، ومددناه على المقعد الفسيح ، وكنت شديدة الارتباك والذهول ، لا أملك موقفى ، وظهرتْ « مدموازيل شانتل » بقميص النوم السابغ وعلى رأسها قلنسوة بيضاء ، وفى يدها المنظار تهبط به وتعلو ، وما إن تبينت الأمر ، حتى قالت فى حزم :

يجب استدعاء الطبيب !

فصحت : علينا بالطبيب ... فوراً ... !

وانصرفت «مدموازيل شانتل» مسرعة تستدعى الطبيب، وأخذت

أنا والخدم نجرى ماتحسنه من إسعاف ، ففككنا عن « الباشا » رباطَ رقبته ، وأنشقناه بعض المنعشات ، وأخذنا ندلك يديه ورجليه .

وبعد لحظات آنست منه تنبّهاً ، وبدأتْ وجنتاه تلوح فيهما صبغة الحياة ، فابتسم لى ابتسامة عارضة ، وهو يهمهم :

لا تنزعجى ... إنى بخير ...

ثم أشار إلى الخدم أن ينصرفوا ... ولما انفرد بى ، دنوت منه ، فقبلت جبينه ، وأنا أقول : سَلمت ... سلمت !

فأمسك بيدى يلاطفها وقتاً ، ثم همس قائلا : شربةَ ماء !

فذهبت أملأ له قدحاً ، ولما تقدمت أناوله إياه لم يتحرك لأخذه ، وكانت عيناه لا تطرفان ، وهما تحدّقان فى الفضاء .

فلاطفت يده ،فلم أجد لها من حسّ ، ووراعتنى مقلتاه وهما ترميان بنظرهما الثابت ... فشعرت بالكوب يسقط من يدى ، ورأيتنى أطلق صرخة ، وقد تغشّت عينى غمامة كثيفة ، وتراءى لى من خلال تلك الغمامة شبح « مدموازيل شانتل » منحنيةً على وجه « الباشا » ، ثم سمعت صوتها يقول : لقد حضر الطبيب .

ثم أمسكتْ بيدى ، وخرجت بى من الحجرة ، وإذا بالطبيب مقبل يحمل حقيبته فى سرعة واهتمام ، ولما دخل الحجرة أقفلها خلفه ، فوقفت عن كثب من الباب ، وقد بدأ يثوب إلىّ وعيي ، ولكن أعصابى كانت مرهفةً أشد الإرهاف ، حتى إن أهون حركة كانت تزعجنى كل إزعاج .

وخرج الطبيب بحقيبته جهم الملامح كابى النظرات ، وبعد أن ألقى فى أذن « مدموازيل شانتل » كلماتٍ عاجلةً ، هبط الدرج يطأطىء

رأسه ، ويجرّ قدميه ...

علا صراخُ الخادمات ينعين سـيدهم ويبكينه ، فأحسست دواراً يفجؤنى ، وخررت على الأرض مغشيّا علىّ .

ولما أفقت من غشيتى ألفيتنى ممددةً على متكإٍ فى حجرة الزينة المجاورة لحجرة النوم ، ورأيت شبحاً يتحامل فى سيره على عصاً وهو يروح ويجىء فى تثاقل ، يجمع متاعاً من هنا وهناك . ورأيتنى أصيح: « دادة شيرين ... دادة شيرين » .

فنظرت إلىّ « الدادة » نظرات عابسةً دون إجابة ، ولم أكن قد التقيت بها منذ أشهر ، وتدانت منى قليلا ، فلاحظت أن سحنتها قد نالها كثير من التغير ، فتهدلت أشداقها ، وأما لون بشرتها الذى كان يلمع سواده كأنه مجلوّ بطلاء ، فقد انقلب إلى صفرة دكناء ... وسمعتها تقول بحشاء الصوت : يحسن بك أن تتركى المنزل ، أن تتركيه فى الحال .

فلم أحر جواباً ، وظللت أصعّد فيها البصر مأخوذة متسائلة ، وأخذ بعض الخادمات يتعاقبن على الحجرة لشئون شتى ، ولاحظت أنه كلما انصرفت إحداهن رمقتنى بنظرة شزراء ...

واقتربت منى « الدادة شيرين » ، وهمست فى أذنى شديدة اللهجة: ألم تسمعى نصحى بعد ؟ ... غادرى المنزل من فورك ...

وأخذت بيدى تجذبنى ، وخرجت بى من الحجرة ، فكنت لها طيّعة صاغرة ، ودخلنا حجرة النوم التى قضى بها « الباشا » نحبه ، فإذا به قد نقل إلى حجرته الخاصة ، وتركتنى « الدادة شيرين » فترة ، ثم عادت بحقيبة كبيرة تعانى حملها فى إعياء ، وانطلقت تجمع أمتعتى وحلى وحللى ، وتزحم بها الحقيبة كيفما اتفق ... ثم قالت منهمكةً فى عملها كأنما تخاطب نفسها :

سيحضر « الباشكاتب » بعد قليل ليحصر أشياء المنزل ، ويضع الأختام على الأبواب .

ولاحظت أن العرق يتحلب على جبينها ، ولكن ملامحها كانت جامدة صلبة ... وتركت أنا و«الدادة شيرين» الحجرة ، ومعنا الحقيبة، سائرتين فى مسارقة ومحاذرة وتلصُّص ...

وانحدرنا إلى سلم الخدم فهبطنا فيه . فإذا اعترضنا أحد ، جبهته « الدادة » بنظرة صلبة ، فلا يلبث أن يفسح لنا الطريق .

ووجدت أمام الباب الخلفى لقصر «الباشا» سيارتى الخاصة تنتظرنى، فأقبلت على « الدادة شيرين » أرتمى فى صدرها ، وأخفى فى حضنها وجهى المخضل بالدموع . فرأيتها تنحينى عنها وهى تهمهم :

ليس هذا وقته ...

وانطلقت بى السيارة إلى بيت والدتى ، فدخلت ردهة البيت ، وألقيت بنفسى على أول مقعد صادفنى ، والحقيبة أمامى ...

وعلمت من الغلام الخادم أن والدتى فى الخارج ، فلم ألق لذلك بالا ...

وظللت فى جلستى وقتاً طويلا لا أعرف مداه ، وكنت أنظر فى الفضاء نظرات شوارد ..

وأخيراً شعرت برأسى يترنح ، وحواسّى يملكها علىّ نعاس .

عاودت حياتى بجانب أمى فى ذلك المنزل العتيق ... وانبعثت من قبرها معيشتى السالفة بين جوانب ذلك الوكر الموحش البغيض ... حجرتى هى هى تلك الحجرة العارية من الأثاث يحتلها هذا الصوان المتداعى ... وأمى كما هى ، أراها فى غلالة نومها البالية التى تكشف عن صدر أعجف ، وقد تكاثرت فى وجهها الغضون ، وبانت بشرته صدئة كامدة أتلفتها وطأة الدهان والمساحيق . ومازالت على فمها تلك الجملة ، تلقيها على مسمعى فى لهجتها الممطوطة وهى تتبختر شامخة الأنف ، ولفافة التبغ بين أناملها المصفرة : لو كان كلامى لقى منك أذنا صاغية فتزوجت رجلا ثريا لما أصبحت كما أنت الآن ضائعة ... !

أضائعة أنا حقًا ؟ ...

وهى ، ماذا ترى نفسها ؟ أربحت معركة الحياة ، وكسبت الدنيا ؟

ودارت بنا عجلة الأيام ... واضطررت إلى بيع السيارة بالرغم من احتجاج أمى التى أوهمتنى أنها ترغب فى شرائها ، وراعنى أن ثمن السيارة قد جعل يتناقص ، حتى لم تبق منه باقية ...

لقد ابتلعت معظمه مصحة « حلوان » ، من أجل « حمدى » !

وأغلقنا منزل الهرم ، وجلبنا الخادمة الحبشية العجفاء لتقيم معنا فى منزل أمى ، بدلا من الغلام الذى كان قليل الغناء ... وكانت الخادم على حالها مهذبة السلوك غارقة فى صمتها وتجهمها ، لا تنسى جملتها الخالدة تقرع بها سمعى كل صبح : ماذا تريد « الهانم » أن يعد لها من الطعام؟

ومن العجيب أنها كانت لاتنتهى عن هذا السؤال ، وإن خلا المنزل من شىء تطهوه !

أما « حمدى » فقد كانت صحته تنتقل على مهل من سيىء إلى أسوأ ، وقد أنهى إلىّ الطبيب أن العلة قد تطول أشهراً بعد أشهر ، فكان ذلك يرمى بى فى ثورة مكظومة ، إذ أرى ثروتى تتداعى ، ولا أعرف لى باباً لكسب جديد !

ربّاه ! ... تعالت حكمتك ، أردتَ أن يطول عمر هذا العليل الذى يمتد احتضاره ، فيزداد ألماً إلى ألم ، ويزدادَ مَن حوله متاعب إلى متاعب ، وحسرات تتبعها حسرات !

هأنذى أعرض حياتى الماضية وما كان لـ « حمدى » من دور فيها ، وبخاصة عهد الطفولة الهنىء حين كنا نقضى أويقات الصفاء أنا وهو و « سنية » و « شريف » جميعاً ، وكيف كان « حمدى » يشجينا بصفّارته ، ويثير فينا المرح بألاعيبه ونكاته ومداعباته ... إنى لأحسّ الآن بوخز الضمير ، إذ أستكثر عليه الحياة وامتداد الأجل ...

إنه لعقوقٌ وغدر أن أفرّ من الميدان الذى يتطلب منى احتمال « حمدى » ورعايته فى أحرج ساعات حياته !

وعادت « سنية » مع « شريف » بعد أن تلقيَّا نعىّ « الباشا » ...

يالله ! شدّ ما كانت « سنية » سخيفة فى حدادها على أبيها ... كنت أقصد إليها أواسيها فينالنى فى جلستى معها ضيق شديد ، ولكنى أعترف بأن لقائى لـ « شريف » كان فيه خير العوض من ذلك الضيق ، لقد كان « شريف » يعلو فى عينى برجولته واكتمال عقله ورزانته ، وكنت أحسّ أنه يتبرم بحزن « سنية » الذى يشبه حزن الأطفال المدللين !

إنها تنشج ولا تفتأ تنشج ، المنديل فى يدها لا تدعه ، وعينها محتقنة مرهاء ، وأنفها متورّم ملتهب ، وصوتها متسلخ أبح ، وقسمات وجهها متقلصة عليها غبرة ...

وأحسست بأن « شريف » يخصنى بنظرات تطلع واهتمام ، وإذا اتفق لنا أن نختلى رأيته قد خرج من تحفظه المعهود ، وتلطف بى ، وجلس إلىّ نتنادر .

وكانت « سنية » تحلّ جناحا خصص لهـا هى و « شريف » ، أما حجرتها القديمة فقد أغلقت إثر وفاة « الباشا » ، وظلت على حالهـا لا يفتحها أحد .

وقد علمت « سنية » بما كان من إقامتى مع « الباشا » أثناء سفرها ، ولكنها علمت ذلك على وجه حسن ، إذ تطوعت « الدادة شيرين » فأخبرتها بأنه على أثر اشتداد المرض على « حمدى » وما صرت إليه من وحدة ووحشة ، استدعانى « الباشا » لقضاء أيام .

ويوماً وأنا مع « سنية » راحت ترنو إلىّ متلطفة ، ومنديلها فى يدها تمسح به عينيها المخضلتين ، وقالت :

لقد تركت وفاة والدى فراغاً كبيراً فى حياتى ، فلم يبق لى من أمل فى الدنيا إلا أنت و « شريف » .

فأجبت : لا يحق لك يا أختى أن تشركى أحداً مع زوجك فى قلبك ... حسبك « شريف » ... حتم أن يملأ وحده ذلك الفراغ !

— هذا حق ... ولكن « شريف » مشغول بعمله فى الوزارة ... وأنا وحيدة أشعر بوحشة !

واندفعت فى نشيجها الطفلى المعهود ، وهى تحك أنفها فيزداد من

تورّم واحمرار ، فطفقتُ أواسيها بما ألقيه على سمعها من عبارات شعرت بابتذالها ، فللت تكرارها !

فضغطتْ يدى ، وحدّقت فى وجهى قائلة :

لماذا لا تُقيمين معى بضعة أيام ؟

فكانت مباغتة لم أملك معها الجواب ، وهممت أن أعتذر ، فأقبلت علىّ تقبلنى فى رجاء حارّ ، وهى مازالت فى نشيجها مسترسلة !

لم يمض يومان حتى كنت قد انتقلت إلى منزل « سنية » ، وأقمت فيه. وقد تركت لى حرّية اختيار المسكن ، فتخيرت على الفور حجرتها القديمة ، أو بالحرى حجرتى التى كانت سكنى قبيل أن يقضى « الباشا » نحبه ، تلك الحجرة التى سعدت فيها بفترات رفاهة وصفاء . وقرّ فى هذا المسكن قرارى ، استعيد فيه ذكرياتى مع الراحل المأسوف عليه كلما خلوت إلى نفسى ... فى هذا الركن كان يجلس فأخلد إلى صدره . مابرحتْ تصافح أذنى دقات قلبه المنتظمة ... أرفع رأسى إلى وجهه فتطالعنى عيناه النافذتان ترنوان إلىّ فى محبة وحنان ... فى تلك الشرفة طالما جلست معه نلعب بالورق بين تنادر وتضاحك ومعابثة .

وتوالت الأيام ، فأحسست أن إقامتى بالمنزل تسبغ عليه لونا جديدا من الحياة . لقد سلت « سنية » بعض السلوّ ، وفارقتها كآبتها الممّضة ، وشرعت تعود إلى شىء من المرح والتفكه .

ولقد لاحظت أن العمل الكثير الذى كان يخرج « شريف » لإنجازه بعد الظهر فى الوزارة قد تضاءل ، حتى لم يعدْ له بقاء ... فها هو ذا يروقه أن يقضى معنا جلّ وقته ، نقصد نحن الثلاثة إلى مشارب الشاى نقضى بها وقتاً ...

وتطورت الحال ، فأصبحنا نذهب ليلا إلى المطاعم فنقضى سهرات لا تخلو من لطف وإيناس .

وعلىَّ أن أعترف بأنى كنت أستطيب حياتى الجديدة ، لولا ما كان يشوبها من تميّع « سنية » وطفولتها ، وما تبديه لزوجها من دلال مسيخ ...

على أن « شريف » كان يحتفظ برباطة جأشه ورزانة موقفه ، وكان يحسن تصريف الأمور فى لباقة وكياسة .

ولبثت أبذل جهدى فى أن أظلّ الصديقة الوفية المخلصة لهذين الزوجين ، أتوخى لهما الهناءة والوفاق .

ولم أنس «حمدى» فى مصحته ، فكنت أزوره فى الفينة بعد الفينة ، وألزم نفسى سماع حديثه المملول يعيده فى كل زورة ... ذلك الحديث الذى يصف به مشروعاته الضخامَ ، وآماله الجسام !

حل يوم مرضت فيه « سنية » ، راجعتها علتها الأولى : فقر الدم والهزال ، فلزمت فراشها ، واستأنفت نشيجها ... وظهر المنديل فى يدها لا يبرح . وبدت هاتان العينان حماوين محتقنتين ، وهذا الأنف متورما ملتهباً ... وذلك التدلل الطفلى يتمثل فى إباء الطعام والتمنع على الدواء .. فكنت أنا و « شريف » نتعاون على تمريضها وإطعامها وإشرابها العقاقير ... على حين تقف « مدموازيل شانتل » عن كثب من الباب وقفتها الجامدة ، والمنظار ذو المقبض المفضض فى يمينها صاعدة به هابطة ، وهى تصدر الأوامر إلى الخدم ، دون أن تباشر عملا أياً كان !

وجرت العادة بأن أتناول الغداء والعشاء مع «شريف» على مائدة واحدة ، وكثيراً ما كنا نمكث وقتاً إثر الغداء أو العشاء فى بهو الضيافة الصغير ، ندخن ونحتسى القهوة ونتطارح بعض الأحاديث ... فإذا كانت « سنية » نائمة أطلنا جلستنا ، وأخذ « شريف » يتبسط فيما يتحدث به إلىّ ، مفيضاً فى ذكريات إقامته فى «فرنسا» ... غير متحرج من الخوض فى وصف ما كان له من مغامرات غرامية ؛ ولكنه لا تفوته اللباقة والأدب فيما يخوض فيه من حديث .

وكان « شريف » دائماً أنيقاً فى بزّته ، رشيقاً فى حركاته ، عظيما فى رجولته ، يثير مرآه فى نفسى ذكرى « الباشا » وما كان له من شخصية أثيرة عندى ، محببة إلىّ .

وعلى تواصل الأيام ارتفعت الكلفة بيني وبين « شريف » ، وبدأ يروقه أن يترشف قليلا من «الويسكي» في جلسات المساء ، فتتجلى ذلاقة لسانه ، ويزداد تبسّطه في المحاورة والسمر .

وفي إحدى الأماسيّ عرض عليّ أن أتناولَ كأساً من « الويسكي » وكنا ساعتئذ مختليين في بهو الضيافة الصغير ، فتمنعتُ باديء بدء ، ولكنه ألحّ عليّ فلم أستطعْ له ردّا .. وبدا عليه في هذه الجلسة طاريء من سُهوم وشرود . بيد أنه كان مع ذلك شديدَ الرنوّ إليّ والتفرس فيّ ... وبدأنا ندخن ، فوضعت لفافتي على طرَف المنفضة وقتاً ، وغشيتَنا الصمتُ ، فألفيت « شريف » يمد إلى اللفافة يده في هدوء ، وما هي إلا أن اندفع يجتذب أنفاسها .

فنظرت إليه نظرة تساؤل، فابتسم ابتسامة رقيقة، ولم يلفظ من قول.

ومرت لحظات صمت وجدتني على أثرها أتناول لفافته ، وأدنيها من فمي ، فأدخّن في استرسال .

وأرحت على ظهر المقعد رأسي ، منبسطةً أنفث الدخان ، وأرقب سحائبه وهي تتزايل في أرجاء المكان .

وأحسست « بشريف » ينهض دانياً مني ... ولمس يدي في رفق ، فشخصت ببصري إليه ، وأنا على حالي في جلستي متراخية .

وتلاقت نظراتنا هنيهة ، ثم وجدتني أسبل جفني .

وشعَرت بأنفاسه تسبح على وجهي .

وفي لمح البصر تماسّت شفتانا .

ونهضت عجلة أهمهم : لا ... لا ... أرجوك !

وغادرت الردهة أحث خطاي ، وانطلقت إلى غرفتي لشوقٍ

وهرعت إلى الشرفة ، وكان الليـل ساجياً وادع الأنسام ، وقد اكتست الآفاق بسجف من الظلام ، فطفقت أحدق فى السماء كأنما أحاول أن أخترق ذلك السجف الحالك فأناشد للنجوم البعيـدة أن تكشف لى خبايا نفسى ، وأن تظهرنى على طوايا الغيب المستور !

وفى غد لقيت «شريف» فلم نعرض فى حديثنا لما وقع بيننا أمس ولكن نظراتنا وابتساماتنا كانت من الكلام أقوى تعبيراً وأفصح دلالة

وبعد العشاء ضمتنا الردهة على مألوف العادة ، لنشرب القهوة وندخن ، فألفيته يهمس إلىّ :

هل لك فى أن نخرج للنزهة ساعة ... هذا مساء جميل !

فظللت صامتة لا أجيب ... وما إن تبين لنا أن «سنية» قد وافاها نعاسها ، حتى رأيته يستأنف مكاشفته إياى برغبته إلىّ فى الخروج معه

وخرجنا فى سيارته يسوقها بنفسه ، وقصدنا أحد المراقص ... وغمرتنا موجة المرح ، فشربنا ورقصنا ، وأرخينا لنفسينا عنان اللهو فلم نتحرج من شىء . ولعلى أسرفت فى الشراب ، فإنى لا أعى كل ما كان منى فى تلك السهرة الصاخبة ، ولكنى أستطيع أن أذكر أن «شريف» كان مفرطاً فى مداعباته إياى ، وأنه انتهب منى قبلات حافلة دون أن أتمنع ...

وبلغنا المنزل عند السحر . ... وإذا « بمدموازيل شانتل » تلقانا بالباب ، واستطعت أن أفهم من حديثها أن « سنية » أرقة قلقة ، لم يغمض لها جفن ، وسمعت « شريف » يقول للمربية :

حسناً ... حسناً ... سأذهب إليها الآن !

وقصدت حجرتى على الفور ، وارتميت على السرير بملابس الخروج .

وأنا أحس بهمود شديد يستولى عليّ فلا أستطيع معه الحراك ، ولكنى قضيت الليل فى نوم مضطرب تعتادنى أضغاثُ أحلام .

وصحوتُ من نومى ضحا ، فشرَعت أعرض فى مخيّلتى ماحدث البارحة ... فهاجمتنى الهواجس ، وخشيتُ العقبىَ .

وجاءنى « شريف » عليه حفاوة وبشاشة ، فقبّـل يدى ملاطفاً ، وما إن لاحظ القلق يتراءى فى قسماتى حتى همس فى أذنى :

كل شىء قد تمهّد ... لقد كنا البارحة عند « حمدى » إذ تلقينـا إشارة تليفونية بأن نوبةً أصابته ، وقضينا أطولَ الليل بجانبه ، ولم نستطع مفارقته حتى هدأتْ عنه نوبته .

وابتسم لى ، ثم استطردَ يقول :

هذا كل شىء .. وقد علمَت به « سنية » !

وربت يدى ملاطفاً ، وهو يقول :

لا تؤاخذينى ... لقد أبطأت عن الوزارة .

وأذكر أنى لم أنبسْ بقول ، ولكنى كنت أحاول الابتسام .

واستغرقنى فيضٌ من الشواغل والأفكار ، لقد اطمأن قلبى حقاً فى شأن غيبة الليل ، وسؤال « سنية » عنها ، ولـكنّ شيئاً يثير فىّ القلق .

إذا تكرر مثل هذا فكيف يكون أمرى ؟ وماذا ندبر من علات؟ أيطول حبل الأكاذيب ؟ ... وصلتى «بشريف» ؟ أأدعها فى تيارها بلا تفكير ولا تدبير ؟ ! وصديقتى ؟ !

وأخفيتُ بين يدىّ وجهى ، ومكثت حيناً على تلك الحال !

وسمعت طرقاً على الباب ، وإذ «بمدموازيل شانتل» تدخل بسحنتها الصلبة النكداء ، وأنهت إلىّ وهى تحرك منظارَها أن « سنية » تطلبنى ،

وما لبثت أن خرجتْ دون أن تعلمَ منى الجواب ، فانتظمتنى رعشة ، ولكنى تمالكت وقمت إلى « سنية » .

دخلت وأنا أتكلف هدوء البال ، والظهور بما هو مألوف .

وما إن رفعتُ إلى « سنية » عينى ، حتى لاحظت فى عينيها شيئاً لم أعهده منها ، وتقدمتُ إليها أحييها ، وأردت أن أجلسَ منها عن كثب . فطلبت منى فى نبرات يشوبها اختـــلاج أن أتخذَ مجلسى على طرَف السرير ، وكانت قسمات وجهها يبدو عليها الامتقاع ، فتصنعت الهشاشة والابتسام ، وجلست حيث أرادت ، فأطالت التحديق فىَّ ، وغشيتنا صَمت برهة ، وبدا علىَّ شىء من الخِيفة ، ثم رأيتها وقد راجعتها طمأنينتها تمسك بيدى بغتة ، وتقول صريحة اللهجة :

إنهم يريدون الإيقاعَ بك عندى !

— من ؟

— الأشرار ... ولكنى لا أصدق عما يقولون شيئاً ... يا لله من الوشايات !

وظلت ترنو إلىَّ ، ثم استأنفت تقول فى صراحة لهجتها :

أيمكن أن أصدق أن ثمة علاقة بينك وبين زوجى ؟ !

فصحتُ على الأثر مهتاجة : علاقة ؟ بينى وبين زوجك ؟ !

فتضاحكت قائلة :

اسمعى ما هو أعجب ... علاقة كالعلاقة التى كانت بينك وبين أبى !

فوجدتنى أغطى وجهى بيدى مهمهمة : أبهذه التهم يرموننى ؟

— لا أصدق من هذا حرفاً .

فاندفعت أنشج نشيجاً حاراً ... ولا أدرى كيف بكيتُ ؟ ...

ولا أدرى لماذا بكيت ؟ . . ولكننى بكيت حقاً بكاء انهمرت فيه دموعى ... ورأيت « سنية » تحتضننى حانية ، وهى تقول :

قلت لك لا أصدق ... ولن أصدق .

فأجبتها على الفور :

مهما يكن من أمر فقد أصبحت أشعر بحرج فى المقام بهذا البيت .

— ماذا تقصدين بهذا القول ؟

فربّتت يدها وأنا أقول : يجب أن أرحل ... يجب ... يجب !

— أتتركيننى ؟

— « سنية » ... لا تنسى أن المسألة تتعلق بشرفى ؟

— كأنك تريدين أن تقيم لمكايد الأشرار وزناً ...

— اسمحى لى بأن أرحل .

— بل امكثى ... امكثى ... يجب أن نردّ مكايد الأشرار بأن نهملها ، فلا نلقى لها أذناً صاغية .

وأقبل الخدم بطعام « سنية » ، وكانت بينهم « الدادة شيرين » . وأحسست بها تنحّى عينها عنى ، ولكنى لاحظت أنها تخالسنى نظرات نفّاذة مفزّعة .

وآثرت أن أشرك «سنية» فى طعامها ، حتى لا تجمعنى «بشريف» مائدة الغداء ، واجتهدت أن أجاذبها أشتات الحديث ، وأن أبادلها المرح على مألوف العادة ، ولكن «سنية» كانت تغلو فى عاطفتها نحوى ، فغمرتنى بمحبة جيّاشة ، كأنها تريد أن تشعر من حولنا أنها لا تستمع لشائعات السوء ! ...

٥٠

مرّ يومان حرَصت فيهما على أن تكون علاقتى بـ « شريف » علاقة عابرة لا شىء فيها .

وعدت إلى تناول الطعام معه ، بيد أننا لم نكن نطيل جلساتِنا لشرب القهوة والتدخين .

وفى عشيّة اليوم الثالث كنت فى شرفة حجرتى جالسة ، وقد أحسست وطأة هم تثقل علىّ ، وعادت بى الذاكرة إلى أيام « الباشا » ومجالِسه الطيبة فى تلك الشرفة معى .

وطـوّحت بى الذكريات هنا وهنالك . فأسلمتنى إلى نشوة ، فأطبقت جفنى أسبح فى دنيا من الأحلام ...

وخيـل إلىّ أننى بين ذراعيه القويتين يهصران خصرى ، وكلمات الحب والهيام يطرب بها سمعى ، وكأنى أسمع صوته الحنون يقول :

أحبك يا « سلوى » !

وانتابتنى رجفة ارتجت لها أوصالى ، وفتحت جفنى ، فإذا بى بين ذراعىْ « شريف » يحتضننى فى شغف واشتياق ...

ونظرت إليه مأخوذة ذاهلة ، وحاولت أن أتخلص منه ، ولكن ذراعيه لم تدعانى أفلت ، فوجدتنى أتراخى وأطبق جفنى ، وعاد يطرب سمعى ذلك الصوت بترنيمته :

أحبك يا « سلوى » ... أحبك ! ...

فاختلطت عليّ المشاعر ، فلم أعد أتبين حقاً : أفى يقظة أنا أم فى منام ؟ ! وواقعٌ ما أرى أم باطل أحلام ؟ !

ولما استيقظت فى غدى ، وفكرت فيما طواه الليل بينى وبين « شريف » ، اعترتنى هزّة شديدة ، ونهضت فزعـــة من الفراش أستنكر زلّتى ...

أيحدث ذلك منى على قيد خطوات من مخدع صديقتى ؟ !

اورتديت ملابسى مسرعة ، وما إن أتممت ارتداءها حتى قصدت إلى « مدموازيل شانتل » ، وأخبرتها بأنى منصرفة لزيارة « حمدى » وقد أغيب عن المنزل يوماً أو بعض يوم .

رجعت إلى بيت والدتى ، فاستقبلتنى الحبشية ، وأعلمتنى أن والدتى على سفر ... فأويت إلى حجرتى مكدودة ، وارتميت على السرير خائرة القوى . ولما رجعت والدتى من سفرها المزعوم لم أجد بُدّاً من أن أفضى إليها بسوانح مما كان من أمرى مع « شريف » ، فأصغت إلىّ فى اهتمام ، وجعلت تستزيدنى وتستوضحنى ، وفى خاتمة الحديث ، قالت لى وهى تنفث دخان لفافتها كأنها تشعرنى بأنها ذات فطنة وبصيرة تدرك بهما كل شى :

لقد قلت لك يا « سلوى » ومازلت أردد : إننا نستطيع أن نتلهى بالرجال دون أن ينالوا منا منالا ...

فابتسمت فى تحسر ، وقلت لنفسى أناجيها : أيّنا الذى يتلهى بالآخر؟

... وظللت سجينة البيت أياماً لا أريمه ، يضيق صدرى بكل شىء : بوالدتى ، و« بسنية » ، « بشريف » ، « بحمدى » أيضاً ... وكان قد مضى أكثر من عشرة أيام لم أزره ، وكلما خطرت لى زيارته أحسست عبئاً يتثاقل على كتفى ، فأؤجل الزيارة من يوم إلى يوم . وكلما امتد بى الوقت ازددت ضيقا وتبرماً بحياتى جميعاً .

ورأيت « شريف » يدخل علىّ فى ساعة بلغ فيها اهتياج نفسى أشده ، فهممت أن أصيح به أن اخرج ، ولكنه تدانى منى فى ترفق ، وظل يعاتبنى فى لهجة لينة ناعمة . ويسائلنى : كيف انقطعت عن زيارة « سنية » هذه الفترة ، وهى دائبة السؤال عنى ؟ وانطلق يتحدث إلىّ

أشتاتاً من الأحاديث فى مودّة ومصافاة أشعرتنى بطمأنينة وارتياح ، فسرعان ماسرّى عنى ، حتى إنه لم يكد يعرض علىّ الخروج معه للنزهة حتى وافقتُه بلا تردد . وانصرف بى فى سيارته إلى «مصر الجديدة» نتنزه ... ثم تركنا السيارة إلى مشرب ، فتناولنا الشاى ، وقضينا وقتاً بهيجاً أضفى علىّ الأنس والانشراح .

وداخلنى إحساس غريب يدفعنى إلى أن أحتفظ بـ «شريف» فلا أفرط فيه ، فمنحته كثيراً من تودّدى له ، وإيناسى إياه ، وراح هو يغدق علىّ عواطف الحب والهيام .

ولقد نمت هذه الليلة نوما هادئاً ناعم الأحلام ، وفى الغداة ألفيت نفسى يقظة مرحة مدفوعة بجرأة وأثرة إلى حب الحياة والتطلع إلى مباهجها ، والرغبة فى العبّ من متعها جهد الإمكان .

وانصرمت الأيام ...

وتوثقتْ علاقتى «بشريف» توثقاً أذكرنى علاقتى بـ «الباشا» المرحوم ، وخيل إلىّ أن هذه الحياة التى أحياها مع «شريف» ليست إلا امتداداً لتلك الحياة السالفة !

وكان بيت والدتى دائماً عش الغرام بينى وبين «شريف» ، ولم يعد خافياً علىّ أن والدتى تمهد لجلساتى معه وتفسح لها المجال ، وكثيراً ما امتدحتْ لى «شريف» وأطرتْ خصاله ... وقد تعددت حفلات الغداء التى كنا نقيمها له ، أو التى كان يتولاها هو فى بيتنا ، على الأصح !

وعاد الرخاء القديم يرف على البيت ... واستطعت أن أؤدّى نفقات المصحة دون تعسر ... وأقبلت على زيارة «حمدى» فى اهتمام ، أحمل له ألواناً من الطعام والفواكه والهدايا ... واستأنفت زيارة «سنية»

وأنا لا أحس من نفسى أية غضاضة ، بل لقد كنت وأنا أقف أمامها أحس فى دخيلة نفسى بشىء من الزهو والاعتزاز ، فأطيل إليها النظر أحاول الاستمتاع بذلك الشعور الذى يحيا بين جوانحى ...

وكانت « سنية » قد نقهت من مرضها ، واسترجعت صحتها ، فكنا نخرج — ومعنا «شريف» — إلى المشارب والمراقص ، نقضى سهرات ملؤها الصفاء !

وتبين لى أن عاطفة « شريف » نحوى تزداد على الأيام وتتوهج ، ولم أعد أحس معه الهيبة والتحرز اللذين كنت أحسهما مع « الباشا » قبله ، فارتفعت بيننا الكلفة ، وأصبحت جريئة عليه فى مطالبى إليه ، فما كان يأبى علىّ من شىء ، وكلما أوغلت بنا الأيام ازددت جسارة ، وازداد هو استسلاماً وطاعة .

وكانت « سنية » تشهد ما أنا فيه من رفاهية فى الثياب والحلى فتتفحصنى بعين لا تخلو من تساؤل ، وبدا لى أنها تلاحظ زوجها ملاحظة أشبه بالرقابة حين يكون معى ، فأراها قد اعتراها سهوم وانقباض ، ولكن موجة الأحاديث التى أثيرها معها ، كانت ترد عنها سهومها وانقباضها .

وكنت أعنى فى بعض الأحيان بأن أحدثها عرضا فى شأن اليسر الذى شملنا بعد أن فرغنا من أداء الديون ، فأجدها قد عادت إلى طمأنينتها ، آخذة بيدى ملاطفة ، كأنما هى تستغفرنى مما رمتنى به من أسواء الظنون .

تفرغتْ والدتى لحياتها الخاصة لا يعنيها من أمرى إلا أن تسلبنى ما تستطيع سلبى إياه من مال ومتاع ... ولاحظتُ عليها أخيراً إفراطها فى الشراب ، حتى إنها ما كانت تطيق الصبرَ عن الكأس وهى فى الدار .

وازدادت فى عينى بشاعةً وابتذالا ، ولطالما وقفتْ أمامى فى حلتها الورديّة وبين أناملها لفافة التبغ تلوح بها يمنة ويسرة ، وأنفاسها المخمورة تهبّ علىّ كريهة فتتمثّل فى خاطرى صور الغانيـــات المتبذّلات فى أحط دركاتهن وأرذل مراحلهن !

لقد كانت تقف تجاهى قائلة :

حمداً لله ... إنى أدّيت نحوكِ واجبى على أتمّ وجه ... إن ضميرى من هذه الناحية مرتاح كلّ ارتياح ... اعترفى لى بهذا الفضل ...

وساءت حالتهـا الصحية ، فألزمتْها الدار ، وشاع فيها الشحوب والهزال . وكانت فى هذيانها المخمور تردّد :

يقول الطبيب إنى مريضة بالسكر ... قاتله الله ... أيريد أن يحرّم علىّ تناول بعض المقوّيات التى لابد منها ؟ ...

ثم ترفع بيدها الراعشة الكأس إلى فمها فتفرغها صائحة :

أى ضرر فى أن يقوى الإنسان جسمه بهذه الجرعات الخفاف؟... أحس بأن صحتى تتقدم ... سأعيش أعواما بعد أعوام ... سيرى ذلك الطبيب الأبله كيف أدفنه بنفسى ؟ !

وفى هذا اليوم أصيبت بإغماء شديد ، وحينما أفاقت لزمتْ مخدعها

وبقيت فيه أياماً لا تقرب الشراب ... وعند ما أحست ببعض التماثل أزمعت الخروج ، فقلت لها : إنك مازلت متوعكة .

فأجابتني وهي على أهبة الانصراف :

إني ذاهبة إلى وكيل الأعمال . الحياة يا بنية تتطلب الكفاح ... ماذا تريدين مني أن أصنع ؟... لولا هذا الكفاح لما استطعت أن أربيك ، وأن أنشئك هذه التنشئة التي بها تعتزين ... !

ومضت لا تأبه لشيء ...

وعلى الرغم من أنها كانت تردد على مسمعي صلتها بوكيل الأعمال فإني لم يكن لي شرف معرفته أو التحقق من وجوده على الإطلاق .

وفي ذلك اليوم لقيت « شريف » ، وقضينا معاً خارج المنزل وقتاً هنيئاً ، وعند عودتي بعد انتصاف الليل وجدت الحبشية تنتظرني في الردهة ، فلما دخلت اعترضتني بوجهها الجهم الصامت الملامح .

فقلت ، وقد أوجست خيفة من انتظارها إياها على غير المألوف: خير ؟!

فأجابتني وهي في جمودها المعهود :

كله خير ... لقد نقلت الست والدتك إلى القصر .

— القصر ؟ ... مستشفى قصر العيني ؟! ...

واستطعت أن أعلم أن والدتي سقطت فاقدة الرشد في إحدى الحانات، ورأيت الحبشية تزايل الردهة تاركة إياي في عباب من الحيرة والاضطراب ، كأنها أدت واجبها ، وأصبحت لا يعنيها بعد ذلك شيء !

وألفيتني أهرع إلى « شريف » فأنهيت إليه الحادث ، فأسرع معي إلى مستشفى قصر العيني ، ولما وصلنا إليه علمنا أن أمي قد فاضت روحها منذ قليل . فبادلت « شريف » النظرات ، ثم وجدتني أنخرط

فى البكاء ، وهو بجانبى يواسينى .

وعلىّ أن أعترف بأن هذا البكاء لم يمتد وقته ، فسرعان ما نضب الدمع فى عينى ، وخرجت مع « شريف » فى السيارة عائدين إلى منزلى فلما دنونا منه أحسست بدافع كئيب يخيم علىّ . ولم أستطع النزول من السيارة حين وقفت بالباب ، وهمهمت :

إنى خائفة !

— لا عليك ... تعالىْ فاقضى الليلة عندنا .

فلم أجد إلى الممانعة من سبيل .

وفى الصباح شملتنى « سنية » بعطف بالغ ومواساةٍ كريمة ، وأرادتنى على أن أبيت معها فى حجرتها الخاصة .

ومكثت على ذلك بضع ليـال ، كانت « سنية » فيهـا مثلا نبيلا للرقة ولين الجانب ، حتى إنى فى بعض فترات وحدتى كان يطيف بى طائفٌ من توبيخ الضمير ...

وفى اليوم الذى رجعت فيه إلى دارى ، لحق بى « شريف » قائلا : ماذا أنت معتزمة أن تفعلى ؟

— لاشىء ...

كيف ...أتحيين معتزلة فى هذا الوكر الموحش ؟

— سأروض على ذلك نفسى ...

— لن يكون هذا . لقد دبرت الأمر منذ قضت والدتك نحبها .

— أى تدبير ؟

فأخذ بيدى قائلا : تعالى معى .

وانصرف بى إلى ميدان « سليمان باشا » وصعدنا أحد صروحه ، ووقفنا أمام شقة ، فقال لى وهو يضغط الجرس :

ألا تروقك هذه المنطقة ؟

وانفتح الباب ، فخرج منه غلام يلبس البياض ، ويلف على خصره نطاقا أحمر ، وهو يهش لمقدمنا بوجهه السمح ، ويقول مرحباً :

تفضلا ... أهلا وسهلا ...

ووجدتنى أصحب «شريف» داخل الشقة نجوز بحجرها .

وسمعته يقول فى لهجة حانية : ماذا ترين فى مسكنك الجديد ؟

فتلفت حولى مغتبط بما أجد ، ورنوت إليه رنوّ شكر ، وماهى إلا أن ألفيتنى أرتمى فى حضنه ، فطوقنى بذراعيه .

وتولى « شريف » بيع دارنا العتيقة ، وتصفية ديون والدتى ،

وبدأت فى مسكنى الجديد حياة جديدة طيبة . وكانت الحبشية مع الغلام ينهضان بالخدمة على اختلاف ضروبها خير نهوض .

وتتالت الأيام وأنا أستمرىء تلك السعادة الشاملة ... ولكن أكانت حقاً سعادةً خالصة من الشوائب والمنغّصات ؟ أية سعادة هذه التى أبنى صرحها على أنقاض سعادة أخرى لشخص من أكرم الناس عندى ، وأعزهم علىّ ، لم يسلف إلىّ إلا كل جميل ، ولم يكن لى منه إلا محض إخلاص ؟

كان « شريف » يقدَم علىّ بعضَ الأحيان ، وأنا ساهمة تعتلج بين جنبىّ هذه الحسرات ، فكنت أرفع إليه بصرى قائلة :

لن تطولَ بنا هذه الحال !

فيجلس قبالى ، وعلى وجهه سمات الطمأنينة ، ويقول فى ثقة ويقين :

أنت شديدة الوسواس !

— يخيّل إلىّ أنى أسمع أفواه الناس تنفث حوالىّ سمومَ الكراهة والمقت ، وأرى عيونهم ترمقنى بنظراتِ الزراية والامتهان !

— أىُّ مقت وأى امتهان ؟ أوهام وخيالات ليس لها من وجود !

— ليس فى مستطاعى أن أمدّ هذه العلاقة التى ألمح فيها شبح الجريمة والعدوان ...

— ليس ثمة من عدوان ولا من إجرام ...

ثم ينظر إلىّ بعين الوالهِ المتيَّم ، ويحدّق فىّ مشغوفا ، ويقول :

إنه الحب ... الحب يا « سلوى » ! ... كل شىء فى سبيله مباح — وكل ذنب من أجله مغفور ! ...

ثم يأخذ بيدى ويَنهال عليها تقبيلا ، وهو يتابع قوله :

أحبُّك ... أحبك يا « سلوى » ... ولن أفرِّط فيك أبداً .

— ولكن يا « شريف » .

— أترضين أن تتخلى عنى ؟ أمُطاوعك على ذلك قلبك ؟ أتقضين على سعادتى وتهدمين أملى كله فى الحياة والوجود ؟

ولا يطول بنا الحديث حتى أجدنى قد اندمجت معه فى تيَّار عاطفة تذهلنى عن كل شىء .

وكان يعاودنى أحياناً هذا الزَّهو الآثم ، وتلك العاطفة الخاطئة التى أحسها نحو «سنية» ... زهو انتصار الخليلة على الزوجة ، وعاطفة تبرم المرأة بمن تزاحمها فى قلب رجلها !

وإنه ليخجلنى أن أصرح بأنى كنت أقف أمامَ صورة « سنية » أحدجها طويلا ، وكأنى أخاطب نفسى :

ألا تستقر بى الحال ، وتصفو لى السماء ، إذا رحلتْ صاحبة هذه الصورة إلى عالم آخر ؟

أليست هذه الآدمية هى العقبة التى تحول دون أن يعلن «شريف» حبنا ، فنعيش فى وضح النهار زوجين ، بدلا من أن نعيشَ فى مسارب الظلمات ، نخفى وجهينا عن مساقط النور ؟ !

لمَ لا تدعنا هذه الآدمية النكداء ؟

لم لا تفسح لنا الطريق ؟

إن « شريف » لا يضمر لها ذرة من الحب ، وإنما يخصنى بخالص حبه ، « وكامل قلبه !

٥٤

لم أدع « حمدى » فريسة النسيان ...

فقد كنت أزوره فى فترات متباعدة . وكنت أحمل هم زيارته عبئا ثقيلا ، ولكننى مع ذلك لم أكن أجد عنه محيصاً على أية حال . فأذهب إليه محمّلة بالهدايا من الحلوى والطرَف ، ولا أمكث معه إلا قليلا من الوقت .

وقد أخفيتُ عنه نبأ وفاة « الباشا » ولكننى أعلمته بنبأ وفاة أمى فى أول لقاء ، فاضطرب اضطراباً بالغاً ، واندفع ينشج كالأطفال ، ثم أخذ يهمهم :

يرحمها الله ... يرحمها الله ... ويسامحها ... إنّ ضميرى مرتاح... لم أسئ إليها قط !

وكان « حمدى » لاينسى فى كل زورة أن يتفحص حللى وزينتى ، ملقياً عليها نظرات قلقة حيرى ، ثم لا يلبث أن يسألنى عن « الباشا » ومبلغ اتصالى به . فكنت فى بعض الأحيان أجد حافزاً يحدونى أن ألفق له أقاصيصَ عن دعوة « الباشا » إياى إلى الغداء أو الشاى ، وأرانى أقول له فى استفزاز :

وهل فى ذلك بأس ؟ ألا يجمل بى أن ألبىَ دعوة صديق كريم يتعهدنا ببره وحنانه ؟

فيعبث « حمدى » صامتاً بملاءة السرير عبثاً يكشف عن اهتياجه ثم يهمهم فى اختلاط :

وهل أنكرت عليك شيئاً ؟ !

وقد يحلو لى أن أزيدّ فى استفزازه ، فأمضى فى وصف مجالس « الباشا » الطيبة ، وأمتدح شخصه ، وأتغنى بأفضاله ...

ثم أتركه لشأنه ...

ياللعجب ...

لم أردت إثارته ؟ إثارة ذلك الهيكل المحطم الذى لا حول له ولا طول ؟

إنها بواعث مجهولة تدفعنى إلى هذه الحماقة ، أجد لها فى نفسى لذة واستجابة ، ثم أنقلب ساخطة غضبىَ يشيع بين جوانبى وخز وتبكيت ، فأفكر فى العودة سريعاً لاسترضائه وملاطفته بالهدايا والطرف !

على أن زيارات « شريف » المحببة كانت تطير من رأسى هذه الأفكار ، فلا أعود أشغل نفسى بـ «حمدى» وبما كان منى إليه ، حتى لقد يطلب إلى بعض الأعوان فى المصحة الاتصال بى ، يدعونى إلى زيارته ، فأسوّف وأكرر التسويف...

تقضت أشهر ...

إنها لأقدار عجيبة تلك التى ترمى بى إلى هذا المصير ...

حقا إننا لا قِبَل لنا بمقاومة تلك الأقدار ، ولكن ألسنا نحن مسئولين عما نقترف من ذنوب ؟ أليس فى اتهامنا الأقدار تملص من محكمة الضمير ! ؟

عشت هذه الأشهرَ فى أمواج متلاطمة، أرى نفسى أرسب وأطفو طوعا لتدفع هذه الأمواج ، لا أملك من أمرى شيئا ... كنت أحس أنى فى مهب عاصفة عاتية تطوح بى ، حتى تسلم رأسى إلى دوار عنيف.

لست خاطئة بالقدْر الذى يبدو ، أوْ لست على الأصح خاطئة وحدى ... أليس « شريف » شريكى ؟ أليس هو الذى كان يدفع بى فى تلك الغمرات ؟ ... ولكن لِم ألوم المسكين ، وقد كان فى ذلك محدوا بعاطفته المشبوبة وحبه الفوار ؟

لا خاطىء سواى ...

يالله ... شد ما أنا بغيضة كريهة !

لست أدرى كيف تمت هذه الأحداث الجسام فى هذه الأشهر ؟ وعلى أى وجه رتبت ؟ وهل كان فى المكنة تلافيها ؟

إنى إذ أعرض الآن فى خاطرى هذه الأحداث ، تعرونى هزة كهزة المقرور ...

رباه ... غفرانك ، غفرانك... فقد عظمتْ خطاياى ، وليس لى

من عاصم سواك ..

قدرت يارب علىّ أن أكون هدفاً لهذه الخطايا ، وأنا الضعيفة المهيضة الجناح التى لاحول لها ولا قوة !

فيم يارب هذا العذاب الذى أصطليه ؟

أيكون تكفيرى عن تلك الخطايا هو حكمتك السامية فيما قدرته علىّ من غواية وبغى ؟ ...

إنى لأحس وأنا أجاهد فى سبيل التكفير براحة نفس وطمأنينة خاطر تعيننى على أن أحتمل تعاسة الحياة وثقلها غير ضجرة ولا ملولة ...

إنه حقاً لشعور جديد علىّ ، ذلك الشعور الذى أجده وأنا أحاول أن أخرج من الهوة التى ترديت فيها ، أن أغسل عن ضميرى تلك الأوضار التى رانت عليه !

إن هذا لمجهود شاق ، ولكن اضطلاعى به عمل عظيم !

قضاءٌ يارب قضيته علىّ ، فخذ بيدى ، وارحمنى من نفسى ، واجعلنى أستطيع أن أنهض من كبوتى ، وأن أرفع هامتى . وأن أكون من الزلل بمنجاة ...

هأنذى أروى ما كان من تلك الأحداث الجسام :

٥٦

... كانت علاقتى « بشريف » تتوثق وتتوطد ، وكلما طالت هذه العلاقة وامتدت بها الأيام ازداد بى تعلقاً وهياما ...

وكنت أحس فى دخيلتى ميلا إلى استغلال هذه العلاقة ، فأثقل «شريف» بألوان المطالب ، ولكنه لم يتقاعس ولم يقصر ، وكلما أوغلت فى الطلب انصاعَ واستسلم غير حاسب حساباً لشىء .

لم تكن مطالبى تقف عند حدّ ، بل لقد تحولتْ شهوة الطلب عندى إدماناً وشرَهاً لا أملك عنه نكوصاً . فكان مثلى كمثل السكير ، كلما عبّ ازداد إلى الخمر ظمؤه ، غير عابىء بشىء .

وتبين لى أن «شريف» تذوّق المائدة الخضراء ، ولذّتْ له المقامرة طلباً للمال ...

ولقد ظفر بادىء بدء ببعض الكسب ، فتملكته شهوة اللعب ، وفقد سلطانه على نفسه ، وانبرى يقامر ويقامر ، فتورّط فى خسارة فادحة ، ومالبث أن بدت عليه متاعب وآلام .

وبدأت صلتى « بسنية » يدركها شىء من الجفوة والفتور ، فكثيراً ما أبت أن تخرج معنا إلى المشارب والمراقص ، وإذا رضيت أن تصحبنا قضت وقتها صموتا متجهمة ، تنقل بصرها بين زوجها وبينى .

وحدث مرة أن كانت « سنية » معنا وقد كرّر « شريف » رقصته معى ، فلما عدنا إلى المائدة وجدت « سنية » ممتقعة شاحبة الوجه ، تختلج شفتاها ، وتضطرب أوصالها .

وما إن بدأنا نأخذ في الحديث حتى رأيتها تهب واقفة ، وتضرب المنضدة قائلة :

لن أحتمل فوق هذا .

ثم أجهشت بالبكاء دفعة واحدة، وهي تدمدم موجهة إلى القول :

ما أنت إلا أفعى ! ما أنت إلا أفعى !

وهب « شريف » يتدارك الموقف ، ويهدئ من روع « سنية » . ولكنها اندفعت تصخب وتسب وتبكى ...

وترامت حولنا أنظار الجمع ، وأخذوا يتداءون منا ، ورأينا غلمان المرقص يتسابقون ليتبينوا الأمر .

وراحت « سنية » تصيح بى :

اخرجى ... اخرجى ... لا ترينى وجهك !

ثم اشتدت بها النوبة ، وما كادت تسقط مغشيًّا عليها حتى تلقاها « شريف » بين ذراعيه ، وأخذ يعالج شأنها .

وشعرت بأن موقفى بلغ غاية الحرج ، فتسللت والأعين تنتهبنى ، واستطعت أن أستأجر سيارة إلى دارى .

سهرت هزيعاً من الليل ذاهبة آيبة كالحبيس فى قفص يتردد فيه ويتلدد ملتمساً الخلاص . وكنت مرهفة سمعى لكل خفقة أو حركة حولى ، أتوقع مَقدم «شريف» .

وانصرم الليل ولم يظهر له أثر .

وانقضى النهار بعده دون أن يحضر ، فجن جنونى ، ولكن لم أجد بداً من ملازمة مخدعى ، فتمددت على المقعد الفسيح ، أنفث دخان اللفائف واحدة إثر الأخرى .

وبينما أنا على هذه الحال ، وقد أظلنى الليل، إذ بدا شبحه يتخايل فى القاعة ... دخل صامتاً كاسف الوجه ، واتخذ مجلسه عن كثب منى ، لا يتفوه بلفظ ، فرمقته بنظرة غضبى ، وقلت :

لماذا جشمت نفسك متاعب الحضور ؟ كان عليك أن تتم فصول الرواية ، فلا تعرف الطريق إلى بيتى !

وألفيته ينهض صامتاً فيأخذ زجاجة «البراندى» ويضعها أمامه ، ثم يملأ منها كأساً بعد كأس . وسمعته يهمهم :

لم أكن أتوقع أن يحدث ما يحدث ... إنى لآسف على أية حال !

فازددت اضطجاعا على مقعدى ، وجعلت أهز قدمى ، وقلت وأنا ألهو بلفافة التبغ بين إصبعى : فيم أسفك ؟

— إن «سنية» مختلة الأعصاب ... يجب أن نعذرها مهما يكن من أمر ...

ــ أحسبك تريد أن تقول إن عليّ أن أعفر وجهى بالتراب عند موطىء قدميها ...!

ــ ماهذا التفكير يا «سلوى» ؟

ــ أليس لى أن أفهم من قولك أنى أنا المخطئة فى حقها ؟ ...

فتاه نظره لحظة فى أفق الحجرة ، ثم قال :

كان يجب أن نتفادى ما حدث ...

ــ أ كان عليّ أنا أن أتفادى منه ؟

ــ إن الذنب ذنبى ... وإنى معترف ! ... إنى ألاقى عناء فى سبيل إصلاح ما حدث ... وأرجو أن أوفق فى مسعاى ... مرادى ألا تسىء «سنية» الظن بنا ...

فرفعت إليه هامتى ، وحدجته بنظرة قائلة : أنت بهذه المخلوقة جد مهتم ، وأنا فى رأيك لا أستحق منك قليل اهتمام . لقد أشقانى تمثيل هذا الدور الذى أقوم به ... أشعر بأنك لا تقيم لكرامتى وزناً ... إنها الزوجة لها عليك كل الحقوق ، أما أنا ... فمن أنا ؟

فأقبل عليّ قائلا : أنت كل شىء !

فمددت يدى أنحيه عنى وأنا أقول : أوهام ... خــدع ... لاصبر لى بعد اليوم ... إنالناس يظنون بنا الظنون ، وهذه «سنية » لم يعدالأمر عليها خافياً ... لابد أن نضع لهذا الموقف حداً .

ــ ماذا تريدين منى أن أفعل ؟

فقلت ، وقد علوت بهامتى : أن تختار بينى وبينها .

ــ «سلوى» ؟ أتجــدّين ؟

ــ لا أطيق أن أحيا معك هذه الحياة فى جنح الظلام ، وإنى

لا أرضى لنفسى هذه المهانة ...

وشعرت بحمية وحماسة تتقدان فى صدرى ، فصحت :

طلقها ... طلقها ... وإلا فدعنى وشأنى .

ووجدته يذرَع الحجرة مضطربَ الخطا ، وهو يهمهم بكلمات لم أستبِنْ منها شيئاً ...

وبعد لحظة قلت :

إنها كلمتى الأخيرة ، إنه قولى الفصل ... فاختر لنفسك ما يحلو !

فانتبذ فى الحجرة مكاناً حمل إليه زجاجة «البراندى» ، وأخذ يكرع منها كأساً بعد كأس.

فقمت إليه وأنا أقول : أجبنى : عَلام عولت ؟ وماذا أزمعت ؟

فرمقنى بعين محتقنة ، وقال : دعينى ... لا تزيدى بلائى !

ــ لست أنا التى أزيد بلاءك ، وإنما أنت الذى تصب علىَّ وعلى نفسك أشد البلاء !

ــ لست وحدى المسئول عن هذا كله .

ــ أنا المسئولة إذن ؟...

ــ على أية حال لابد من إصلاح الأمر .

فصحت ، وأنا أضرب الأرض بقدمى : بل لا بد من الطلاق .

فأرسل إلىّ نظرة حادة ، وهو يقول : ليس هذا بمستطاع .

ــ إذن ... دعنى ... لا أطيق أن أعيش مع رجل مثلك خائر الإرادة ، واهى العزم ، خَنوع .

ــ أنا خنوع لا إرادة لى ولا عزم ؟

فأحسست الثورة تهب أعاصيرها على لسانى ، وصحت :

بل عربيد ... مقامر ... سادر ... هيهات أن تصلنى بك علاقة !

فنهض يصعّد فىّ بصره . وقال :

أتعلمين حين أتركك ماذا تلقين ؟ أتدركين أى مصير إليه تساقين ؟

— ليس من شأنك أن تهتم بما ألقى ، وبما يصير إليه أمرى .

— يلوح لى أنك بعد أن امتصصتِ دمى تبغين البحث عن صيد جديد !

— أتجسّر على أن تنطق بهذا الهراء أيها السفيه ؟ !

ورفعت يدى أريد أن أهوى بها على صُدغه ، فأمسك بها فى عنف وخشونة ، وهو يحدجنى بنظرات مفزعة حِداد ، ودفع بى دفعة شديدة ألقتنى على المقعد ، وقد امتلأ قلبى رعباً ...

ثم غادر الحجرة عجلان لا يلوى على شىء .

٥ ٨

أمضيت ليلة نكدة ساهدة الجفن ، قلقة النفس ، لا ترقأ لى دمعة .

وفى الغداة ، وقد عاودنى شىء من الراحة والهدوء جعلت أعرض ما كان من أمرى مع « شريف » وما تداولناه من حديث ، فعجبت من نفسى : كيف اتخذت هذا الموقف فى غير لباقة وحكمة ؟

كيف أردته على طلاق « سنية » فوراً بلا تدبير ولا تقدير ، وأنا أعلم علم اليقين أن ليس إلى ذلك من سبيل ؟ ...

إن « شريف » لا يملك إلا مرتبه الشهرى المحدود ، وما ترفه الذى يعيش فيه إلا من فضل مال « سنية » ، فأنّى له أن يغلق هذا الباب فى وجهه ؟ !

إن طلاقها لن يكون كارثة عليه وحده، بل هو كارثة علىّ أنا أيضاً !

يبدو لى أن الحل المنطقى المعقول أن يبقى «شريف» لزوجه خالصا ، وأن ينفصل عنى ، فأعود أنا إلى كنف زوجى ...

ولكن أى زوج هذا الذى أعود إلى كنفه؟

إنه ليس إلا خرقة آدمية يسرع إليها البلى !

بيد أنه زوجى الذى اختارته لى الأقدار ، فكيف لى أن أتركه ؟

إن الحياة أمامى غائمة غبراء ، غيرى يستطيع بمثل تلك الشخصية وذلك الشباب أن يستوفى حظه من المتع والمباهج ، غير عابىء بشىء ...

أليس لى حق العيش ؟

أليس لى أن أستكمل فى هذه الدنيا سعادتى ؟

أليس ... ؟

ولـكن أمستطيعة أنا أن أفعل ؟ ولم لا ؟

غير « شريف » من الناس كثيرون يسعدهم أن أنيلهم حبي ، ليس عليّ إلا أن أومىء وأن أختار ! ...

وكنت أمام المرآة ، فأخذت أتطلع إلى خيالى فيها ، وكان وجهى مكدوداً وعيناى تحيط بهما هالةٌ سوداء ، وخيل إلىّ أن الغضون قد بدأت تعرف طريقها إلى قسماتى ...

وأحسست بأن الوجه الذى يطالعنى فى المرآة ماهو إلا وجه أمى ، ذلك الوجه الذى نسجت عليه حياة السهر وعبث الهوى وإدمان الخمر آثاراً لاتملك محوها المساحيق والأدهان .

واختلجت اختلاجة شديدة ، وهويتُ على مقعد أغطى وجهى بيدى ، وأحاول أن أنحى عن خاطرى صورة تلك الأم ، وهى فى أخريات أيامها تعانى الاضمحلال والتدهور فى أشنع مظاهره .

واستبدت بى نوبة بكاء ...

٥٩

وقبيل الظهر من غدى أقبلتْ عليَّ الحبشية ، تخبرنى بأن سيدة حضرت مبدية رغبتها فى لقائى ، فأجبتها ضيقة الصدر :

لا ألاقى أحداً ...

— إنها تلح ...

— قلت لك لا سبيل إلى أن ألاقى أحداً .

وماهى إلا أن رأيت شبح «الدادة شيرين» تدخل الحجرة متحاملة على عكازتها بخطواتها المتهدمة تكاد تتعثر . وقالت :

بل يجب أن تلقينى يا « سلوى » .

وانصرفت الحبشيةعنا على الفور .

فقلت لـ « لدادة شيرين » مهمهمة ، وأنا أزورّ عنها بنظرى :

لم أكن أعلمُ أنك أنت التى تطلبين لقائى ...

فجلست على الأرض قريبة منى تعبث بطرف البساط ، صامتة ، مطأطئة الرأس، وشاع بين جنبى القلق ، وأردت أن أقول شيئاً فأعيانى أن أفصح . وسمعتها بعد حين تقول : أتروقك هذه الحال ؟

— أية حال ؟

فرفعت إلىّ رأسها ، وأحدت فى بصرها ، وقالت : لا تتجاهلى .

وصمتنا معاً برهة ، ثم وجدتنى أقول شاردة النظر :

وماذا تريدين منى أن أفعل؟

— أن تبتعدى عن «شريف» ... أن تدعيه لزوجه .

— أتصدقين الإشاعات ؟

فأخذت ترمقنى بنظرات شديدة ، ثم قالت :

قلت لك لا تتجاهلى ... لم يعد شيء خافياً على أحد .

فنهضت أسير فى الحجرة ... وسمعتها تقول ، وقد رق صوتها :

اقبلى يا ابنتى نصحى ... اتركى « شريف » لزوجه .

فوقفت تجاهها أقول : وهل قيدته بأغلال ؟

فحبت نحوى ، وأخذت بيديها الهزيلتين يدى ، وجعلت تردد :

أرجو منك يا ابنتى أن تسدى جميلا إلى تلك الأسرة ، إن «سنية» أخت لك، ولها عليك حق الودادا ... شد ما أحبتك، وشد ما أخلصت لك . أليس ظلماً أن تنفصم بينكما تلك الوشائج الكريمة ؟ إنى لعلى يقين من أن قلبك ما زال عامراً بعواطف نبيلة ...

وألفيتنى أجلس على المقعد ، وقد تاه خاطرى فى آفاق شتى ، وظلت «الدادة شيرين» تتحدث إلىّ بصوتها الرقيق وهى تناشدنى الوفاء والإخلاص ، وسمعتها تقول : أقسم لك يا ابنتى إن « سنية » تضمر لك حباً وصفاء ليس فوقهما من مزيد ...

— لم أكن فى وقت من الأوقات أقل منها صفاء ولا أضعف حباً.

— إذن عليك أن تسدى جميلا .

وأسندت رأسى إلى راحتى ، وأناشاردة النظر ، تحوم بين جوانحى عواطف متضاربة ، وأحس فى دخيلتى بتخاذل وانكسار ... ثم وجدتنى أخفى وجهى فى يدى، فإذا بـ « الدادة شيرين » تدنو منى حانية عطوفاً ، فرأيتنى أنكب على صدرها مسترسلة فى نشيج وانتحاب .

ما أروعها فترة قضيتها باكية على صدر هذه « الدادة » الرءوم !

كان يخيل إلىّ أنى بعيدة العهد بمثل هذا الصدر الذى حرمت حنانه وعطفه سنين بعد سنين ، وكأنى فى هذه الفترة قد طويت العمر راجعة إلى الوراء ، فإذا أنا « سلوى » الطفلة تجد فى ذلك الحضن ملاذها الحبيب ومفزعها الأمين !

ولم تتركنى « الدادة شيرين » حتى ذهب عنى الروع ، وثابت إلىّ الطمأنينة ، فوعدتها بألا أدخر جهداً فى سبيل تحقيق رغبتها إلىّ .

وكنت فى ذلك الوقت صادقة النية ، حازمة أمرى ، معتزمة أن أفعل شيئاً فى هذا الصدد ليس لى عنه محيد .

ومرت ثلاثة أيام كنت فيها نهب الهواجس والأفكار ، وكلما حاولت أن أقوم بعمـــل حازم يتطلبه منى الموقف ، شعرت بإرادتى تتهافت ، فأجد نفسى متداعية حيرى لا أقوى على إقدام .

وكنت أحس بفراغ يحيط بى ، وأتلمس حولى شخصاً يعيننى على أمرى ، فلا أجد إلا وحشة وانفراداً ، لا مؤنس ولا معين !

٦٠

طالعني وجه « شريف » بعد مغيب أيام ... دخل الردهة حيث أجلس ، وهو هادىء النفس مطمئن المحيّا ، كأن لم يقع بيني وبينه من شيء . وقضيت الوقت معه على مألوف العادة دون أن نتجاذب أطراف الحديث فيما كان ، بل تجاوزناه إلى التحدث في موضوعات شتى من التوافه التي تعودنا أن نزجي بها الوقت ...

وتناول معي الغداء ، ثم انصرف بعد حين .

وعلمت بعد ذلك أن «سنية» سافرت إلى «الإسكندرية» تمضي فيها وقتاً ، وأن غيبة «شريف» عني ، مردها إلى أنه كان في زيارتها هنالك . ويبدو لي أنه جعل من برنامج زيارته لها أن يصفي الجو بينه وبينها ، وأن يحصل منها على نقود .

ووجدت نفسي أساير الأمور في تبلد عجيب ...

وأقبلت على حياتي التي أحياها مع « شريف » حريصة عليها كل الحرص ، راضية بها كل الرضا ...

وكان كلانا يتجنب أن يذكر شيئاً يتعلق « بسنية» ، فقد تناسيناها عمداً ، لا يجرى لساننا باسمها في كثير ولا قليل .

وداورت عجلة الأيام ونحن على هـذا النحو ... « شريف » معي في « القاهرة » أكثر أيامه ، و « سنية » في « الإسكندرية » يزورها « شريف » في عطلة الأسبوع ... وقد أصرت « سنية » على أن تبقى في « الاسكندرية » مبتعدة عن القاهرة ، أو بالحرى مبتعدة عن الجو

الذى أعيش أنا فيه ! على الرغم من أن « شريف » أكد لها أنه فصم علاقته بى وأنه لم يعد يرانى أو أراه ... وكان لهذا يتحفظ فى الخروج معى ، فلا أصحبه إلا إذا قصدنا الأماكن المنزوية غير المطروقة ، متوسلا بذلك إلى أن يسكت ألسنة الوشاة ، ويغلق باب الإشاعات ، وينقذ الظواهر ...

بيد أن حياة « شريف » لم تكن فى طريق مستقيم ... فقد تهالك على المقامرة ، وأسرف فى الشراب ، فتراكمت عليه المغارم ، وثقلت بسبب ذلك الديون . وكان إذا شرب فأتقل أصبحت حاله لاتطاق . حديث ثائر كله دفاع عن نفسه ، وتسويغ لمساويه، دون أن يكون ثمة مايدعو إلى هذا الدفاع ... وحين يحتدّ فى حديثه تحتقن عيناه، ويلتهب وجهه ، وتتكاثر عليه الغضون ، ويتناثر من فمه الزَّبد ، فيكون شبهه أقرب إلى شرير عربيد مشرّد ! ... ولذلك كنت أخشاه ، وأتوخى ألا أثيره ، فأصمت مستمعة صاغية ، وأسارع إلى تصديقه ، والموافقة على كل مايفيض فيه من قول .

وتوالى تخلفه عن عمله فى الوزارة ، وأحصِى عليه إهماله لواجبه ، وجاء يوم تقرر فيه فصله، فالتحق بعد لأى بمؤسسة تجارية ليست بذات شأن ، وتضاءل دخله ، فاشتدَّ بى وبه العسر، وكان ما يناله من «سنية» يتفاوت مَداً وجزراً باختلاف علاقته بها حالا بعد حال . على أن كل ما يناله من مالها كان يذهب على الفور طعمة للمائدة الخضراء ...

أما « حمدى » فقد أهملته الإهمال كله ، فلم أعد أزوره ، وتكرر طلبه أن يرانى ، فكنت أنتحل ألوان المعاذير ، وثقل حساب المستشفى ولم يبق فى طاقة « شريف » أن يقوم بأدائه .

وازدادت الحال على توالى الأيام سوءاً إلى سوء ، وطفق « شريف » يرهن ما أملكه من حلىّ ، وتبع ذلك ببيعها ... فإن مانعت لجأ إلى الاغتصاب ...

ولم يبق فى خدمة البيت إلا الحبشية الصابرة الصّموت ، تلك الآدمية الغريبة الأطوار ، هذا اللغز الذى يثير فىّ الدهشة والعجب !

وأبلغتنى إدارة المصحة يوماً أن « حمدى » نُقل إلى الدرجة الثالثة ليعالج مجانا لوجه الله .

يا لله ! إنه مابرح حيّا يتنفس !

ولم نستطع الإبقاء على الشقة التى أسكنها . فتركتها إلى شقة متواضعة فى إحدى زوايا شارع « محمد على » ...

وانتقلت معى الحبشية لاتفارقنى ، وظلت كعهدى بها غارقة فى صمتها وكآبتها ووجومها ، ملتزمة ذلك الأدب المطبوع الذى يقف بها عند حد لاتتعدّاه . وقد تمضى الأسابيع دون أن تبادلنى قولا إلا كلمتها الخالدة :

« ماذا تريد سيدتى أن أعدّ لها اليوم من ألوان الطعام ؟ »

ومكثت معى تتحمّل قسطها من أزمة الحسر التى أحياها ، دون أن تبدى تململا أو شكاة ...

وكنت أسائل نفسى :

ما سر هذا الرباط الذى يصلنى بـ « شريف » ؟ إننى كلما أمعنا فى البؤس واستبدت بنا الحاجة ازددت به من تعلق وحرص ، وأقبلت عليه بعاطفة جياشة ، يدفعنى نحوه هوًى كمين مسكين ...

كان مثلى كمثل ذلك المريض الذى كلما أزْمن مرضه وجد نفسه

أكثر ألفة له ، ولم يبذل جهداً فى أن يستبدل به صحة وعافية ...

لقد نسى المريض تلك الصحة أو العافية ، أو لقد أصبح يخشاهما ويراهما أمرّ من المرض وأقسى ...

وتعودتُ أن أرى « شريف » يرجع إلى البيت فى جوف الظلام عائداً من نادى القمار منهوك القوى خامد الأنفاس ، فيَسْتلقى بنفسه على المقعد الطويل ويستغرق فى خمول واسترخاء ، فأرنو إليـــه طويلا أتفحّـص قسماته المفصحة عن الألم والبأساء .

أين هذا الشبح الهزيل المنقضّ من « شريف » الغابر ؟

ذلك الإنسان الذى كانت تتوضح فيه سمات الرجولة والنضج والازدهار ؟

ذلك الذى كانت تتمثل لى فيه صورة « الباشا » بعظمة صفاته ؟

كنت أرنو إلى « شريف » وهو ممدّد على المقعد الطويل ، فإذا الحسرة تكادُ تأكل قلبى ، فأدنو منه وآخذ برأسه أوسده صدرى ، وألاطف خصلات شعره حتى يواتيَه النوم فى طمأنينة وأمان ...

وذات ليلة طرق الدارَ « شريف » وهو على أسوأ حال : فكر شارد ، ووجه ممتقع ، وأعصاب مستوفزة ، يتلفت مذعوراً كمن يتوقع داهمَ الشر ... فحاولت أن أكتنه خفيّة أمره ، فلم يبح لى بمكنون .. واكتفى بأنْ أعلمنى أنه لقى خسارة فادحة على مائدة القمار . ولمحت رأسه يترنح من دوار يغشاه ، فأسرعت إليه أحوطه بذراعىّ وأعنى بأمره أشدّ عناية . وانبثق من أعماق قلبي حنان دافق ، فانهلت عليه أقبله فى شغف ، وعينى تتسايل منها الدموع ، فحدق « شريف » فىّ ، وتلاقت أعيننا وقتاً ، ثم وجدته يوسّد خده خدى ، وامتزج بدمعه دمعى ، والصمت يعقد لساننا ، فلم يجر بيننا كلام .

وبعد حين ألفيتنى أقول له مهمهمة : حتّام هذا يا « شريف » ؟

وراح يتوسمنى طويلا ، ثم أزاغ بصره عنى ، وقال راعش الصوت :

لن يطولَ هذا ... لن يطول !

ثم التفت يحدّق فىّ وقد ضغط يدى قائلا :

أتحبيننى على الرغم مما أنا فيه ؟

فصحت وأنا أضمّه فى لهف : لم أحببك يوماً قدر ما أحبك الساعة !

فهمهم : شكراً لك ... شكراً لك !

— ألا تستطيع أن تفعل شيئاً تنقذ به نفسك ؟ .. «شريف» !.. يجب أن تفعل !

— أخشى أن يكون الوقت قد فات !

ـــ كلا ... لا تقل ذلك ... أنا معك ... اطلب ماتشاء من عونٍ أكن طوع يمينك ... فكر قليلا ... دبر أمرك معى .

فزفر زفرة حرَّى ، وقال : الديون ... الديون يا « سلوى » ! دائماً خسارة ... خسارة متواصلة ... هذا النحس الذى يلازمنى فى المقامرة ... لقد أخلفنى الحظ وأقسمَ ألا يكون لى يوما !.

ـــ ولمَ المقامرة ؟ أليس ثمةَ اتجاهٌ آخر ؟ ...

ـــ فاتَ الأوان ...

ـــ لم يفتْ ... أين مَضاءُ عزيمتك ؟ أين بُعدُ همتك ؟

ـــ فات الأوان ... فات يا « سلوى » وليس له من عود ...

وأخذتُ وجهه بين يدىّ وأنا أحدّق فيه ثم قلت : لو طلبتَ إلىّ أن أبذُل نفسى وحبى فى سبيل إسعادك لما تردّدت فى إجابتك .

وأطلتُ فى وجهه تحديقى ، وقلت :

عُد إليها واتركنى إن كان فى ذلك طريقٌ إلى النجاة والخلاص ... ثقْ بأنى أرضى هذا المصيرَ مهما يكن من أمر .

فشدّ على يدى ، وكانت قسمات وجهه تختلج ، ثم لاطف كفى فى حنو بالغ ، وقال : لن أتركك يا « سلوى » ... هيهات أن نفترق ... أنت جزء منى لا انفصال له عنى ...

وشرد بصرُه ، ثم همهم :

إنها المعركة الأخيرة ... فإما الفوز ، وإما ...

ثم ابتسم ابتسامة هزيلة شاحبة ، وأراح رأسه على صدرى ، ورأيته يهمس بكلمات لم أتبينها وإذا به يسبل جفنيه ، وصوته يتزايل رويدا ، ثم ما لبث أن طواه نعاس .

ما إن صحا «شريف» من نومه فى ضحوة غد حتى أخبرنى أنه قد أزمع السفر إلى « الإسكندرية » ليبذل آخر جهد فى طاقته للخروج من المأزق والفكاك من الأزمة ... وغاب يومين ، ثم عاد إلىّ ... دخل كمألوف عادته لم يطرأ عليه جديدٌ ، ولكنه كان واضح السهوم ، مديد الصمت ... ولبثت أتوقع أن يتحدث إلىّ فيما كان من مسعاه فى الشأن الذى سافر من أجله ، ولكنه لم يفعل . ولما ضقت بصمته ذرعاً دنوت منه أقول : رجائى أن تكون قد وفّقت إلى حل مرضىّ .

فربّت يدى ، وهمهم :

وفقت إلى حلّ طيب ... حلّ أنا عنه راض كل الرضا .

وأمضى يومه فى المنزل لا يريمه ، وكان يطارحنى الحديث بعض الوقت ، وطاب له أن يعرض معى مشاهد من عهد الطفولة وذكريات الصبا ... وقد تسنح على فمه ابتسامة خفيفة ، تنم عن استسلام وسخرية ، ثم لا تلبث أن تضيع فى زوايا الغضون والأسارير !

واستطرد بنا الحديث إلى « حمدى » فقال :

شدّ ما أنا عاقّ !... لم أزره قط ، ولكن أليس هذا خيراً لى وله معاً !! كيف أستطيع أن أزوره وأن أرفع إليه بصرى ؟!

— لا تلق إلى شىء من هذا بالك ... ليس فى قدرة آدمى أن يغير مجرى حياته ! ... إنها الأقدار يا « شريف » تخط لنا فى الحياة مسلكا ليس منه مناصٌ .

فاتسعت حدقتا عينيه ، وقال : الأقدار ؟ ! لا أدرى لهذه الكلمة معنى واضحاً على وجه التحقيق ... ألهذه الأقدار وجود ؟ ...

ثم عاد يسأل عن «حمدى» فى إلحاف... فقلت وقد غضضت بصرى :

إن المسكين مقضىّ عليه لا محالة ، فلنعـدّه ميتا !

فغمغم قائلا : كلنا موتى !

وظل تائه النظر حينا ، ثم ألفيته يجذب يدى بغتة ، وقد التمعتْ حدقتا عينيه ، وهو يقول فى نبرات متدفعة :

فلنهرب . فلنهرب يا « سلوى » !

— نهرب ؟ أين ؟ كيف ؟ !

— لنهرب ... لنهرب وكفى !... لنهربْ إلى مكان بعيد ، فنترك خلفنا هذه الحياة الشائكة فى ذلك الجو المسموم ، ونبدأ حياة أخرى نبنى صرحها من جديد .

فقلت له فى حمية : أنا معك ... مرْنى أسمع وأطع .

وتماسكت أيدينا ، وتشابكتْ أنظارنا ، وظللنا على تلك الحال هنيهة ... ثم وجدت ساعدىْ « شريف » يتراخيان ، وسمعته يقول : وهل يمحو الهرب ما نتركه خلفنا من مساوىء ؟ إنه هرب من الواقع ، إنه الجبن عن مواجهة الأحداث ، والعجز عن احتمال التبعات

— مادام الهرب سبيلا إلى راحتك فلنفعل .

— لا أدرى ما السبيل إلى راحتى ؟ ... بل هناك سبيل واحد .

ثم ران عليه صمت كثيف ، وقد اعتمد رأسه بيديه .

وبعد العشاء قال لى ناظراً إلى حجرته :

أرغب فى أن أقضى ليلتى وحيداً ...

— كما تشاء ...

وقبَّل ما بين عينى قبلةً حافلة ، ثم هرع إلى حجرته فطواه الباب وقصدت إلى حجرتى تتقاذف بى وساوس وهواجس ، وثقلتْ علىّ هموم التفكير ، فأسلمنى الخمول إلى نوم يعروه اضطراب .

واستيقظت فجأة متفزعة من صوت انفجار ... فتلفت حولى ، ووجدتنى أعجل إلى حجرة « شريف » ، وماإن دخلتها حتى وقع بصرى عليه جثة هامدة طريحة الأرض ، وفى يده مسدس ، والدم يشخب من جبينه ... فانهارت قواى ، وفقدت رشادى .

كتبت علىّ يارب أن أشهد مصرعى رجلين أحبنى كلاهما وأحببتهما ... إن الشؤم بذرة كامنة فى نفسى ... إنى أنفث حولى سمًّا زعافا ، وإنه لمصيبنى يوماً ليودىَ بى !

أنا الجانية لا ريب ... أنا التى صوبت المسدس إلى رأس « شريف » فياليتنى أستطيع أن أصوب مثله إلى رأسى ، ولكنه الجبن المتغلغل فى دخيلة نفسى !

إنها أحداثٌ مروعة تلك التى مررت بها ... أحداث متشابكة حالكة لا أملك لها تمييزاً ولا تفصيلا ... لقد وعكتنى حمى تركتنى أهذى وأهذى ... وما كدت أبلُّ من هذه الوعكة حتى توالت علىّ مراحل التنقل بين دور الشرطة والنيابة والقضاء وما إليها . أسئلة لا ينضب لها فيض ، وأشخاص من خدم « سنية » وحشمها يواجهوننى بعيونهم المتلهبة ووجوههم المتجهمة . ألفاظ جارحة وتهم عارمة تكتنفنى من هنا وهنا لك وتملأ أذنى طنيناً يدوى ولا ينقطع له دوى ! ...

ألفيتني أخوض غمرات الحياة مرة أخرى ...

لم أستطع في الشقة مكثاً ، فرحلت عنها قاصدة منزل « حمدي » . بمنطقة « الأهرام » ... فإذا المنزل مسكون . واستقبلني رجل من أهل الصعيد فارع القامة ضخم الجثة صلب السمات . فلما سألته في شأن المنزل أخبرني بأن شخصاً استأجره منذ زمن .

فذهبتُ إلى المستشفى من فوري ، واستفسرت عن مكان «حمدي» فأجابني الممرض : أي « حمدي » ذلك الذي تسألين عنه ؟

فأوضحت له من أريد ، فأغرق في الضحك ، وقال في غير اكتراث : سلي عن الأحياء يا آنسة ! ...

ــ أمات ؟

ــ منذ أكثر من شهر ..

ووقفت لحظة واجمة ...

ورأيت الممرض يمضي لشأنه ، فاستوقفته أقول له : وأين دفنتموه؟ فصعد فيّ بصره هنيهة ، ثم قال : هل أنبأوك بأني «شيخ التُّربية » ؟

وغادرت المستشفى أتحامل على قدمي لا أدري أية وجهة أقصد ؟

لم يعد لي في الحياة شخص أركن إليه ، لقد دفنت أكرم أصحابي وأعزهم عليّ جميعاً ، وليس فيمن بقي من الناس أحدٌ أستطيع عليه تعويلا !

وكنت منهوكة القوى ، لم أطعم شيئاً منذ وقت طويل ، ولم يكن

معى نقودٌ ذات شأن . فلبثتُ خارج المستشفى أطوّف ببصرى حولى فى خبَل وذهول ... ومرّ بى وقتٌ وأنا لا أملك وعى .

وسنحتْ لى فكرة مفاجئة . لم لا أنطلق إلى مسكن «الدادة شيرين» ؟ لقد كانت تحتفظ لنفسها أبداً بشقّة صغيرة تزورها بين حين وحين . ولكن هذه الشقة لم تقع عليها من قبل عيناى . وجعلت أقدح فكرى وأجمع ذكرياتى وأسائل نفسى : أين مكانها ؟ ... وأخيراً اهتديت إلى أنها فى منطقة « مصر القديمة » ، فيمّمت شطرها ، وعثرت بعد طول سؤال على مكان الشقة ، ولكنى وجدتها مغلقة ، فأضافتنى الجارة ، إذْ رأت ما أنا فيه من إعياء وبؤس ، فأدركتها الشفقة علىّ ، وأرسلت فى طلب « الدادة شيرين » .

وبعد ساعات رأيت « الدادة » تدلف أمامى ملفّفة فى السواد من الفرع إلى القدم ، كأنها قطعة من الليل تتحرك ... دخلت إلىّ متحاملة على عكازتها ، فلما وقع بصرها علىّ ، همهمت فى لهجة بغيضة :

هذا ما كنت أتوقعه !

وأمسكت بيدى ، وقادتنى إلى مسكنى ، فكأنى جانٍ أثيمٌ يُساق إلى ساحة القصاص ! ...

وأحسست معها بتخاذل يفقدنى كل مقاومة ، كأنما أنا شاةٌ مستكينة بلهاءُ بين يدى جزار عتى .

وما إن احتوتنا الشقة حتى رمت بى « الدادة شيرين » فى ركن من الأركان ، فرفعتُ إليها عينى وأنا بالدمع شرقة ، وقلت :

ليتك تقتليننى ، فأنجو مما أنا فيه من عذاب !

وتشبثتُ بثوبها ضارعة ، فسمعتها تقول :

ابعدى عنى ... ابعدى عنى ...

وما لبثتْ أن غادرت المسكن .

فانكببت على الأرض ، تنهلُّ من مآقيّ الدموع الغزار ...

وكنت أحس أنّ دموعى لا ينفَد لها مدد ، وظللت كذلك وقتاً لاأدرى مداه ، ثم شعرت بـ « الدادة شيرين » تدخلَ المسكن وتقترب منى ، وإذا بها تمدّ إلىّ يدها بقدح ماء ، وهى تقول بصوت أجشّ :

اشربى .

فأفرغت القدح فى فمى دفعة واحدة .

وسمعتها تقول :

هل أنت جَوْعى ؟

فوجدتنى أجيبها على الفور دون استحياء :

لم أذق طعاماً منذ أمس ...

فغابت عنى برهة ، ثم عادت بصحن مغطّى برغيف تحته قطعة جبن وبِضع بيضات ... ووضعت الصحن أمامى صامتة ، فاندفعت منهومة ألتهم الطعام .

وجلستْ « الدادة » غيرَ بعيد عنى .

وبعد حين سمعتها تجمجم ، كأنها إلى نفسها تتحدث :

لقد وعدتِنى أن تتدارَكى أمرَك قبل وقوع الكارثة ، ولكنك لم تفعلى !

فأجبتها خافضة البصر :

إنه قضاء الله ... ولا مردّ لقضائه !

— حقاً قضاء الله ... وله فى ذلك حكمته ... لا يمكن الآن أن

نستدرك مافات وانقضى !

واقتصر الحديث على هذا الحوار ، فنهضت «الدادة» تاركة إياى ، ولكنها ما لبثت أن رجعت تقول فى لهجة يشوبها الجفاء :

إذا رغبت فى النوم فدونك الحجرة .

وأشارت إلى مكانها ...

ثم زايلت المسكن وهى تتحامل على عكازتها فى جهد ، وردت الباب خلفها .

مكثتُ فى مكانى لا أغادره ، وقضيت ليلتى كلها فى هـــذا الركن متجمعة كالمقرور المرعد ، لم أهم بالنهوض إلى الحجرة أنام فيها .

وانصرم يومان ، وحالتى لا يعتريها تغير ...

فى المسكن لا أبرحه ، تقدم « الدادة » وقتاً ثم تنصرف لا تبادلنى إلا كلمات ...

وكان وجهها مربداً عليه عبوس . وتمثل لخاطرى أنى حيوان حبيس قفص ، لايزوره رائضه إلا ليزوده بالطعام والشراب !

وفى اليوم الثالث قدمت « الدادة شيرين» فوجدتنى قابعة فى ركنى المعهود ، أقلب من أفكارى السود ، فجبهتنى بقولها :

تبغين أن تقضى بقية عمرك على هذا النحو؟

فرفعت إليها هامتى ، وقلت : حقاً ! لست أدرى من أمرى شيئاً .

فقالت فى جدّ واهتمام :

يجب أن تؤدى عملا ... يجب أن تشغلى نفسكِ .

ــ إنى لا أتأخر عن شىء ... أىّ عمل اخترتِ لى ؟

ــ عليك أن تبحثى وأن تختارى لنفسك مايحلو .

ــ أشكر لك أنك ذكّرتنى بما يجب علىّ .

ــ اسمعى يا « سلوى » ... يجب أن تكسبى قوتك بعرق جبينك ... يجب أن تكدحى فى الحياة وأن تجاهدى ، واسألى الله غفران خطاياك ، إن الله رحيم تواب . ولكنه لايمنح المغفرة إلا مَن كان خالص النية صادق المتاب!

ثم مضت عنى ...

وفزعتُ لنفسى أفكر فيما نصحتنى به « الدادة شيرين » ... حقاً مايكون لهذه الحال أن تدوم ... يجب أن أفكر فى كسب القوت... لن أغدو عالة عليها ، فليس لها طاقة بى ، سأقوم بأىّ عمل... علىّ أن أبتغى الوسيلة التى تؤهلنى لغفران الله !

ونهضت من ساعتى مزمعة الخروج ... ولكن إلى أين ؟ ...

اتجهت ناحية الباب ، فما إن دانيته حتى ألفيت فتاةً نحيلة غير مهندمة عليها سيماء الخدم ، تقف قبالتى تسألنى : هل حضرتك «الست سلوى »؟

— أنا « سلوى » ...

— « الست إنصاف » ترغب فى حضورك .

— « الست إنصاف » ؟ !

— نعم «الست إنصاف» ... ألا تعرفينها ؟ إنها جارتكِ الخياطة المعروفة ... إنها تسكن على قيدِ خطوتين من هذه الدار .

— وماذا تريد منى « الست إنصاف » ؟

— لست أدرى ... لقد بعثتنى أستدعيكِ إليها .

وانطلقتْ ، فتبعتها ... ودخلت وراء الفتاة منزلا خيراً من منزل « الدادة شيرين » جدّةً وطرازَ بناء .

وصعدنا إلى الطبقة الأولى ، حيث طرقنا باب « الست إنصاف» ، ودخلنا إلى حجرتها ، فإذا هى جالسة على متكإ فسيح تحوطه بقطع شتى من الثياب مختلفة الألوان ، وكانت منهمكة تقلب مابين يديها من القطع ، فما إن أحسّت مَقدمى ، حتى التفتت إلىّ تحدّق فىّ ،

وهى امرأة بادنة ، جاوزت طورَ الشباب، بيد أن قسماتها تنمّ عن فورة نشاط ، وكانت تضع على عينيها منظاراً ذهبىّ الإطار .

وما هى إلا أن رفعت المنظار إلى جبهتها ، وقالت :

هل أنت « سلوى » ؟

— نعم ...

فصمتت لحظة ، وهى تتفحصنى بدقة وإمعان ، ثم قالت :

ألكِ سابق اشتغال بالخياطة وتفصيل الثياب ؟

فقلت دون إعمال فكر : لم أشتغل بشيء من هذا قط !
ولكنني استدركتُ أقول ، وقد فطنتُ للأمر :
إنني على استعداد للقيام بكل ما تكلفينني إياه .

فابتسمتْ ، وأنزلتْ المنظار على عينيها ، وانكفأ على قطع الثياب تقلبها وتقيسها ... ثم سمعتها تقول : حدثتني « الدادة شيرين » في شأنك وأخبرتني بأنك سليلة أسرة كريمة ، ولكن ما نفع الأسر الكريمة فيما بين يديّ من عمل ؟ إني أرغب فيمن تعمل ، وتعطي عملها ما تملك من حذق ونشاط .

فنظرتُ إليها في ضراعة ، وقلت :

أرجو أن تلقي مني ما تؤمّلين . فلتكن تجربة ، إن واتاني التوفيق فيها تابعتُ عملي معك ، وإلا فإني أريحك مني !

فأجابتني غير معنيّة بقولي ، تشير إلى إحدى الحجر : ادخلي هناك

فأطعت أمرها ، وإذا بي في حجرة ضيقة حشرتْ فيها فتياتٌ خمس منهمكات يعملن ، هذه تفصل ثوباً ، وتلك مقبلة على التطريز ، والأخريات يزاولنَ ضروباً من شئون الخياطة . فما إن دخلت حتى أشرعن نظراتهن إليّ ، وانطلقن يخافتن بضحكاتهن ويتغامزن في سر ومسارّة . فدهمني ضيق وحيرة ، وتردّدت في متابعة خطاي ، فوجدت « الست إنصاف » قد دخلت تعمر الحجرة بجرمها العظيم ، وكان منظارها يلتمع على جبينها المتغضن المتزمّت ، ولم تكد تحل الحجرة حتى انصرفت الفتيات إلى عملهن حذرات ... ووجهت « الست إنصاف » نظرتها إلى واحدة منهن يبدو أنها كبيرتهن ، ونادتها :

« بهية » ...

فرفعت رأسها عن آلة الخياطة ، وقالت : نعم يا «ست إنصاف »

ـــ هاك « سلوى » ... الفتاة التى حدثتك فى شأنها .

ثم التفتت إلىَّ محتفظة بسمتها وتزمتها ، وهى تقول :

سترسم لك « بهية » خطة العمل .

وأدبرت عن الحجرة ، تزلزل الأرض بخطاها الثقال .

وأشارت إلىَّ « بهية » أن أتقدم آخذة مجلسى بجوارها ، وعادت الغمزات والضحكات المكبوتة تشيع من حولى .

جلستُ بجانب «بهية» أرقبها خلسة . إنها امرأة فى لونها سُمرة ، أخلفتها الوسامة ، فجانبتها حظوة الحياة ، ويبدو أنها عانس ألح عليها العِناس ، وناولتنى إبرة وثوباً لبيساً ، ثم أشارت إلى فتوق فيه قائلة:

عليك أن ترتقيها ، ولك أن تستشيرينى فيما يَغمض عنك من دقائق الرتق .

وانبريت أعمل مهتمة، وعلى الرغم من قليل مرانتى بالخياطة وصنوفها بذلت وسعى لأتقنَ العمل أحسن إتقان ، وكنت أحس بأن الفتيات مازلن يحاصرننى بالغمز والضحك ، فلم ألق اليهن بالا ، ومضيت فيما بين يدى لا آسى على شىء .

وسمعت « بهية » تزجر الفتيات قائلة : الزمن حد الأدب !

فهدأت العاصفة الخفية حيناً ، ثم لم تلبث أن عادت كما كانت من قبل

وكنت كلما أتممت شيئاً أطلعت عليه « بهية » ، وسألتها رأيها فيه ، فلم أسمع منها كلمة ارتياح ، وإنما كانت تجتهد فى كل مرة أن تبدى لى ملاحظة لتشعرنى بما لها من قدرة وسيطرة .

ومكثت قرابة ساعتين أرتق الفتوق ، فأحسست الدوار يستبد

برأسي ، والعرق يتحلب من جبيني ، ولكن تجلدت وانتزعت من الضعف قوة لأتابعَ العمل في جِدّ ، حتى ظفرت من « بهية » بكلمة ثناء عابرة أشرق لها قلبي وتفتح .

وصحت بها : أحقاً حذقت الرتق ؟ !

فقالت في كبرياء وتشامخ : لا بأس !

فقلت في حماسة : رعاك الله وأبقاك ...

فتجاوبت أنحاء الحجرة بالضحك ، وتلفتُّ حولي أتطلع إلى الفتيات ثم وجدتني أندفع معهن ضاحكة ، فقالت «بهية» على الفور ، وهي تحاول عبثاً أن تظهر بمظهر الآمر المهيمن : قلت لكن الزمن حد الأدب !

انقضى النهار وأنا أعمل في تلك الحجرة الضيقة المخنوقة الأنفاس وكانت الست « بهية » تتركنا فترات نستريح ونستجم ، ووجدت الفتيات يبدأن الحديث معي دون كلفة ، وسرعان ما وجدتني أمازحهن وأشاركهن المرح والطرب . فسألنني عن حالي ، فأجبتهن بأنني أرملة ليس لي مورد ارتزاق ، وأريد أن أجد في الخياطة بعض العون على المعاش.

وعدت إلى مسكني ، أو بالأحرى منزل « الدادة شيرين » ، وكنت على الرغم مما نالني من إعياء في يوم عملي الأول أحس أن نفسيتي قد شرعت تتغير ، وأني أنظر إلى الحياة نظرة جديدة عليها مسحة الرضا

وفي هذه الليلة طاب لي النوم على السرير ، وأحسستُ أني لم أعدْ عالة على « الدادة شيرين » وطفقتُ أفكر : كيف أقتصد من أجرتي اليومية لأؤديَ لها نصيباً من أجرة المنزل ؟ يجب أن أكافئها على صنيعها بشيء ، وأن أثبت لها أني أصبحت إنساناً آخر ... وازدحمت المشروعات

علىَّ أتدبرها وأحكم خطة تحقيقها .

وفى مطلع النهار قصدت مكان عملى ، يَسرى فى أوصالى نشاط واهتمام . وأقبلتُ على الخياطة بجانب « بهية » ، وظفرتُ من تقديرها لعملى أكثر مما ظفرت أمس ، ووضح لى أنها على الرغم مما تبدو فيه من مظهر التنفخ والتأمُّر ليست لها شخصية تفرض احترامها على الفتيات .

وتوثقتْ بينى وبين الفتيات الأربع وشائج الألفة والودّ ، ولم أجد من بينهن من تتميز بشىء غير ماهو مألوف بين أمثال هذه العاملات : ثرثرة بلا طائل ، تنادر وسخرية بالناس من كل صنف ، وتطلّع إلى الحياة بنفوس عِطاش ، ورغبات جوامح فى مضمار الحب والزواج ؟

الحب والزواج !

ماذا يأملن من الحب والزواج ؟

لو استطعت أن أنفضَ لهنّ بنات قلبى ، وأكشفَ لهن سريرة نفسى ، لأجفلن مذعورات ، ولرأين فى صحبة الست « بهية » التافهةِ وخضوعهن « للست إنصاف » البدينة المتغطرسة خيرَ ما فى الحياة من مغنم !

ليت المرء قادر على أن يجدَ فى حاضره قبَساً من نورٍ يعينه على أن يستطلعَ به صفحة القدر المغيّب فى مستقبله الخفىّ ، إذن لأمِنَ العِثار ، ولوفّر على نفسه متاعب الزّلل والاستسلام للأوهام .

ولكن كيف يتبين المرء أعقاب المصير قبل أن يشق فى طريق التجاريب !

٦٥

استخفت «الدادة شيرين» عن منزلها فلم أعُد أتبين لها فيه ظلا . ولكني استطعت أن أستخلص من الست «بهية» أنها دائبة السؤال عني ، تستوضح منها سلوكي وتصرفاتي . وأحسست بأن بعض الجيران حولي عيونٌ ترقبني في غدوي ورواحي ، فلم أكن أعبأ بهذه الرقابة ، إذ كنت مطمئنة إلى حياتي الجديدة ، مخلصة لهـــا كل الإخلاص ، راضية بها كل الرضا !

وكثيراً ما كنت أعرض قبيل نومي ألواناً من حياتي الماضية ... فتتخايل أمامي أشباح «حمدي» و «الباشا» و «سنية» و «شريف» ، فسرعان ما تعاجلني نوبات بكاء وعويل ...

أكان بكائي أسفاً على سعادة غاربة لم يطل بي مداها ؟ أم كنت أندب ماضيّ الحافل بالمناكر والمنديات نادمة حسرَى ؟

لقد كنت أبكي وأبكي ... حسبي أنّ هذا الدمع السخين كان يميط عن صدري أدرانه ، وكان يبث من حرارته بين جنبي روحا جديداً كله صفاء وطهر !

وظهرت «الدادة شيرين» بعد شهر غابته . دخلت صموتاً تتوكأ على عصاها ، فأقبلت عليها آخذة بيمناها أشبعها تقبيلا ، فلاطفتني في سكون ، وجلست تقول : أطمئنة أنت إلى حياتك هذه ؟

— كل الاطمئنان ...

— أرجو أن تتابعي حياتك على هذا المنوال !

ـــ لأتابعنَّها بفضل ما تحبونى به من رعاية ورضا .

ـــ الرضا رضا الله .

ـــ إنى لـكبيرة الرجاء فى عفوه .

ـــ الله تواب غفور ... ولـكن لاتنسى يا «سلوى» أن الله لا يمنح رضاه إلا من يتوب توبة صادقة لا رجعة بعدها لذنب أبداً .

ـــ إنى عازمة على ألا أقارِف معصية ماحييت .

وعندما نهضت «الدادة شيرين» تنصرف ، وقفت أمامها وقد انبعثت من صميم وجدانى فكرة لم أدْر ماذا أثارها فىّ !

وقفت لحظة متردّدة ، ثم قلت لها خافضة البصر فى صوت راعش:

كيف حال «سنية» ؟

فحدجتنى بنظرة نكراء ، ثم همهمت :

يجب ألا تلفظى بهذا الاسم ...

وازورّت عنى ببصرها ، وخرجت تتوكأ فى جهد على العصا .

إنها لعلى حق ...

يجب ألا يدور لسانى بهذا الاسم ...

كيف أستبيح لنفسى أن أذكره بعد ما كان من أمرى معها ؟

وتواصلت الأيام ، وأصبح عملى فى مشغل «الست إنصاف» عملا راتباً كثير الجهد والمشقة ، وكانت «بهية» كلما رأتنى مقبلة على الخياطة أضنتنى بالمزيد . وبدأتْ تعهد إلىّ بالدقيق من العمل الذى يتطلب فناً وحذقاً وأناة . فكنت أقضى الساعات منكبة أبذل غاية الطاقة .

ولـكن ذلك لم يشفع لى فى البراءة من توبيخ «الست إنصاف» وتعنيفها إياى ، وكثيراً ماقمتْ فى عضدى ، وأشعرتنى بأننى خائبة فى

عملى لا سبيل إلى تقـدّمى .

بيد أن فكـرة واحدة ظلـّت، تذلل طريقى وتذكى عزيمتى وتشدّ أزرى ، تلك هى شبح «الدادة شيرين» ...

كان يتخايل فى خاطرى فيدفعنى إلى الأمام صابرة على كل عناء..

وكان قصارى هدفى أن أحوز ثقتها ، وأن أنفى عن تفكيرها ظنون السوء بى ...

لقد قـرّ فى نفسى أن هذه المرأة ليست إلا قدّيسة من صفوة المقربين إلى الله ، هؤلاء الذين تستطيع كلمة شفاعة واحدة من أفواههم أن تسمو بالإنسان إلى عليا الفراديس ، وتـكفى دعوة سوء ينفثونها لتهبـط بالإنسان إلى درجات الحضيض!

ثابرت وثابرت ، وبذلت من جهدى ما بذلت .

وكنت أعود إلى الدار فى منصرف النهار مجهودة العينين، متصدّعة الرأس ، فكان يلذ لى أن ألوذ بمعزل فى حجرتى ، أخلو إلى نفسى ، وأستمتع بالسكينة حولى ، سابحة فى آفاق من التفكير فى شتى جوانب الحياة ، وجفناى مطبقان!...

٦٦

كنت يوما على مألوف العادة فى مشغل « الست إنصاف » فى تلك الحجرة الضيقة المزدحمة بكومات من الثياب ، وقد اختنقت فى أرجائها الأنفاس . وجلست فى أركانها الفتيات الخمس يثرثرن ويتضاحكن طليقات . فأحسست دُواراً يشتدّ علىّ ويزداد اشتداده حيناً بعد حين . وإذا بى أتهاوى على الأرض .

وثبت إلى وعيى ، فألفيتنى فى مخدع « الست إنصاف » ممددة على متكإ ، وهى على مقربة منى ، تعنى بى . وما إن فتحت جفنى حتى سمعتها تقول : كيف أنت ؟ ماذا ألمّ بك ؟

— دوار بسيط ...

— أتراك أجهدت نفسك ! ؟

— لا أظن ... أنا الآن أحسن حالا ، أستطيع أن أستأنف عملى .

ورفعت رأسى ، فإذا بالدُّوار يثقلنى ... فسمعتها تقول :

ارجعى إلى بيتك اليوم فالزميه لتستريحى ، وتعالى غداً .

ونهضتُ متحاملة على نفسى ، عائدة إلى الدار ، وقد صحبتنى خادمة صغيرة بعثتها «الست إنصاف» معى لتعيننى على أمرى .

وقضيت ليلى قلقة أرقة ، أحس الضعف والإعيـــاء ، واعترانى غثيانٌ وقىء ... وفى الصبح رأيت «الدادة شيرين» تدخل علىّ ، وظهر لى أن « الست إنصاف » أرسلتْ فى طلبها وأخبرتْها بأمرى ، فإن «الدادة شيرين» بادرت بالاستفسار عما جرى ، وانبرت تسألنى فى دقة

وفحص واكتناه ، ومن الغريب أنها وجهت إليّ أسئلة لم تخطر لي من قبل ببال ، فأجبتها في إفاضة ، لم أخف عنها أي شيء .

وسمعتها تهمهم : أكبر الظن أنك حامل يا « سلوى » .

فنظرت إليها فاغرة الفم تعروني ذهلة ودهش ، ثم قلت مرددة : أنا ؟ أنا حامل ؟!

ووجدتني أدفن وجهي بين راحتي ، وأنا أهمهم بصوت حبيس : لا ... لا ... لن يكون هذا .

فسمعتها تقول : هذه مشيئة الله .

— إن الله لا يرضى عن مثل هذا المخلوق !

— بل إنه عطية من عند الله ، ولن نبيح لأنفسنا أن نرد عطاياه .

— كلا ... إنه لدسيسة الشيطان ... لن تكتب لهذا الطفل حياة .

وجعلت أضرب بطني بيدي في ثورة واهتياج ، وأنا شرقة بالدمع . فأمسكت « الدادة شيرين » بيدي وقالت :

إنك تكفرين بنعمة الله ، وتعرضين نفسك لسخطه .

— إن هذا الطفل وصمة تدمغ جبيني أبد الدهر ... سيكون هذا الطفل شبحاً يثير في دنياي ألوان المآسي التي أجهد في نسيانها وإقامة السدود بيني وبينها فيما بقي لي من عمر . إني أمضي في طلب الغفران من الله جاهدة مخلصة ، ولكن يبدو لي أن الله لا يريد ...

وعاودني البكاء والشهيق ، فقالت « الدادة شيرين » :

إن الله يقدر علينا مصايرنا ، فليس لنا إلا الإذعان لإرادته ، وابتغاء مرضاته ... كلما كان جهدنا كبيراً كان الثواب عظيماً والرضا موفوراً ... كفكفي الدمع !

وشعرت بتخاذل ، وكان فكرى مشردا ، وخواطرى مشتتة ، أعمل على حصرها فلا أستطيع . وسمعت «الدادة شيرين» تقول : ماذا يسوءك من أمر الطفل ؟ كل ما فى الأمر أن أباه قضى قبل أن يراه ؟

خفضت من بصرى ، وهمهمت : أبوه ؟!

— أجل ... « حمدى » ... قضى قبل أن يرى ابنه ! ...

— إنه أبوه على الرغم منه وعلى الرغم منى !

ولبثت فى الدار أياماً وحدى ، تختلف إلىّ خادمة «الست إنصاف» فتؤدّى لى ما تمسّ إليه الحاجة .

وقد شعرت باستسلام لنصائح « الدادة شيرين » أتقبّلها أحسن تقبّل ، وأنفذها أدق تنفيذ ...

لا سبيل إلى إباء شىء تطلبه إلىّ هذه السيدة ...

إنى هائمة مضللة فى دنياى ، لا هادى لى غيرها ، وإنى بدونها لا أستطيع أن أقدّم رجلا أو أؤخر أخرى ..

أشعر بأنى قد طويت السنين القهقرى إلى عهد الطفولة ، فلابد لى من عون أستند إليه وأنا أحبو وأحاول أن أخطو خطاى الأولى .

وحرصت « الدادة شيرين » على أن توالينى بزوْراتها فى فترات متقاربة ، وتغدق علىّ من نصائحها ، ولا تفتأ تطيب خاطرى وتيسر لى ما أراه عسيرا علىّ فى طريق الحياة ، حتى شملنى الهدوء ، وغمرتنى الطمأنينة .

وكنت وأنا فى وحدتى أجدنى قد خطوت إلى النافذة ، وأتطلع إلى الطريق ، ملتمسة من مشاهده بعض التسلىّ . فكانت تطالعنى أمام الدور أطفال الجيران وهم يمرحون ويلعبون ويعابث بعضهم بعضاً فى خفة وصخب ، فأرنو إليهم أتتبع حركاتهم فى شغف ، وقد أقذف إليهم

بقطع من الحلوى يتنازعون عليها ويتنافسون فيهـــا ، فكانت هذه المناظر تثير فى نفسى مشاعر شتى من عطف ومحبة وحنين ... إن ذلك الجنين الذى بين جنبى ليعدنى أن يكون طفلا كهؤلاء ، فلم لا أخلى سبيله ، وأرعى نموه ، حتى ينال حظه من هذه الحياة ؟ ..

وألفيتنى على الأيام تعتدل نفسيتى ، وأشتهى أن أكون أماً . لها طفل ، طفل منه ، من شريف ، ! سأهبه نفسى ، وسأقف عليه عمرى . لم لا أكون به فخورا معتزة ؟ أقضى أيامى معه أطالع فى محياه وجه أبيه . ذلك الرجل الذى ظل يحبه إياى حباً يخفق به قلبه حتى الرمق الأخير .

واستأنفت عملى فى مشغل « الست إنصاف » ، ولاحظت أنهـــا تعاملنى ببعض الحنان والرفق ، أما « بهية » فقد ازدادت فى عينى تفاهة وغباوة ، لقد كانت ترهقنى بأسئلة سخيفة ممضة عما أحسه من متاعب الحمل وأطواره ... وصدقنى ظنى أنها عانس مابرحت تؤمل فى حياة الزواج على الرغم من أنها دميمة ، تخطت عصر الشباب ... أما الفتيات الأربع فكن بى فرحات ، يعدننى هدايا لطفلى ، حتى إن كلا منهن شرعت تعد هديتها فى اهتمام .

وتواصلت الأيام و « الدادة شيرين » لا تقطع زيارتها عنى بين حين وحين ، دائمة التعهد لى وموالاتى بالنصح والإرشاد .

وكنت كلما أحسست الجنين يختلج بين أحشائى ، تهزنى مشاعر بهجة واغتباط . وحينما كنت أخلو بنفسى فى المنزل أشعر بأنى لست وحدى ... إنه معى .. إنه كائن حى يشعرنى بوجوده ويؤنسنى . أكاد أتمثله شخصاً أمامى يثير السكون حولى بما يرسل من ابتسامات وإشارات ومناغاة . لم أعد أشعر فى المنزل بما كان يحيط بى من وحشة ومن صمت !

ولما استبان الحمل بين جنبيّ ، وثقل عليّ ، ذهبت بي « الدادة شيرين » إلى مستشفى الأمهات ، حيث عرضت نفسي على طبيبة الولادة التي أزمعنا أن تتولى أمري .

وكانت سيدةً بسامة عذبة الحديث فكهة الروح ، تشعرك أول وهلة بالمحبة والألفة ورفع الكلفة ، كانت ضامرة ضئيلة ، تعجب كيف تستطيع وهي على حالها من الضآلة والضمور أن تلي هذه المهمة الجسيمة التي تتطلب اقتدارا وقوة ...

وبعد أن أتمت الطبيبة الفحص في دقة وعناية ، انتبذت بـ « الدادة شيرين » مكاناً قصيا تحدثت فيه إليها حديثاً أثار في نفسي غيم الظنون .
وأقبلت عليّ الطبيبة بعد هنيهة ، فسألتها : كيف الحال ؟

فقالت ، وهي تبتسم ابتسامتها المألوفة :

كل شيء حسن ، الولادة بعد ثلاثة أسابيع ، إذا أحسست قرب المخاض فبادري بالحضور إلى المستشفى ... سيكون كل شيء معداً لاستقبالك .

ثم رسمت لي ما يجب عليّ أن أعمله في فترة الانتظار .

فخرجت من المستشفى ساهمة أفكر ، ولما لحقت بي « الدادة شيرين » سارعت أسألها أن تصارحني بما كان من مسارة الطبيبة لها ، فقالت دون أن تواجهني : هذه الطبيبة تميل إلى مجاذبة الأحاديث والاستفاضة في الكلام ... ليس في الأمر سر ... عليك أن تلزمي نصائحها وأن تعجلي إلى المستشفى أول ما يجيئك المخاض .

ولقد عُنيت بنفسى ماوسعتنى العناية ، فآثرت الراحة ، وانتهجت المنهج الذى رسمته الطبيبة .

كنت أحسّ تطلعاً غريباً إلى الحياة ، ورغبةوثيقة فى تعهّد الجنين، حتى أسلمه إلى النور صحيح البدن أهلا للنماء .

وأخيراً حان اليوم الموعود ، فتأهبت للذهاب إلى المستشفى ، وأبلغت « الست إنصاف » جديد أمرى ، وعهدت إليها فى إخبار « الدادة شيرين » .

وما إن تناهى إلى مسامع الفتيات نبأ تأهبى للخروج إلى المستشفى حتى لحقن بى فى الدار مبتهجات ، وأحطن بى من كل جانب ، يتقاسمن العناية بأمرى ...

أما « بهية » فوقفت صامتة تنظر إلىّ مشدوهة فاغرة الفم تتفحصنى فى تعجب واستغراب . كأنى حيوان طارىء لم تعهده من قبل ... أو كأنها لم تكن تنتظر أن يحين لى هذا اليوم الموعود !

وحضرت مركبة الخيل ، فصعدت فيها ، وصحبتنى « بهية » طوعاً لأمر « الست إنصاف » ، أما الصبايا الأخر فجعلن يلوّحن بأيديهنّ متصايحات يتمنين لى السلامة .

ومضت مركبة الخيل تضرب الأرض، وقطعنا الطريق صامتتين، و«بهية» على حالها مشدوهة حالمة مشعثة النظرات ... وبلغنا المستشفى فنزلتُ عن المركبة متحاملة على نفسى ، لا أجد من بهية خفة لمعاونتى !

كانت معصفرة الوجه وجلة ، تنقل خطاها مضطربات ، كأنها هى التى على وشك أن تضع حملها ، أو كأنها على موعد عملية جراحية تخشى عقباها ...

ولقد ألفيت كل شيء معداً فى المستشفى ، فخللت حجرتى ، وما كدت ألمح الفراش حتى تساقطتُ عليه ، وأحسست ألم المخاض يزداد ويشتد كأنه كان كامناً يرتقب ساعة الوصول...

وحضرت الطبيبة على الفور ، بسّامة المحيا تصيح : أين المولود ؟

ودارت بعينيها فى الحجرة ، ثم استأنفت تقول :

ألم نتفق على أن تأتى به معك ؟ فلنبحث معاً أين هو ؟

ودنت منى تتفحصنى فى رفق ، ثم قالت فى ثقة وتأكيد :

إنه آت بلا ريب ... لن يرخى الليل سدوله حتى يكون بجانبك يضجّ بصراخه وعويله !

ثم انصرفتْ ، بعد أن عهدت بأمرى إلى بعض الممرّضات .

وبعد هنيهة أقبلت « الدادة شيرين » متحاملة على عكازتها ، فما إن اقتربت منى حتى أمسكت بيدها وأطبقت عليها قائلة :

لا تتركينى .. لا تتركينى... واسألى الله لى عوناً وفرجا قريباً .

ووجدتنى أنخرط فى البكاء دفعة واحدة ، وأنا هاوية على يدها أندّيها بقطر الدموع .

فلاطفتنى وهى تطمئننى ، وتيسر لى الأمر ، وبعد برهة قلت لها وأنا أكفكف العبرات : متى أخبرتْك « الست إنصاف » بشأنى ؟

فأجابتنى على الأثر : لم تخبرنى بشيء . إنى هنا ... هنا منذ أيام !

ووجدتها تمسك عن الكلام كأنها تستدرك ما فرط منها .

وعادت تقول ، وقد أدبرت ببصرها عنى :

فى هذا المستشفى سيدة من معارفى ..

— وكيف حالها ؟

— بخير ... ولله الحمد .

— ألولادة قدمت هذه السيدة ؟

— أنت كثيرة السؤال يا «سلوى» ... إن الإجهاد باد على وجهك، فيجب أن تلزمى الراحة .

— الحق ما تقولين ... أشعر بأوجاعى تتزايد ... لا تدعينى ... بحقك عندى لا تدعينى .

— لن أدعك يا بنية .

واقتعدت مقعداً بجوارى ، وظلت تلاطفنى وتعنى بشأنى .

وبرّح الألم بى ، وجاءت الطبيبة تتفقد الحال ، وبدأ العرق الغزير يتسبَّح على جبينى ، وأحسست بأنى لم أعد أطيق كتمان ألمى ، وأن صياحى ينبعث من حلقى دون قصد ، واستمرّت الحال كذلك وقتاً ، لا يخفّ ألمى لحظة حتى يعاودنى أشدّ مما كان .

ووجدت الطبيبة تخرج ثم تعود مصطحبةً طبيباً . وحقنت تحت الجلد مرات ، وغامت الدنيا أمام عينى ، وشعرت كأننى فى حلم غريب تلتمع حيالى سواطع أضواء ، كأنما هى أسنّة حراب مشرعة إلىّ تترامى علىّ .

وانتظمتنى غيبوبة فقدت فيها شعورى أجمع، وما أدرى أىُّ وقت مضى علىّ وأنا فى غياهب هذه الغيبوبة ، ولكننى أحسست رويداً بهذه الأضواء السواطع تلتمع ثانية ، بيد أن حرابها لم تكن تخزنى ، بل كانت تتهاوى علىّ هينة الملمس .

وثبت إلى رشدى ، فإذا الوقت صباح ... وأخذت أتطلع حولى فى جهد وإعياء . وأنا أحس على عينى غشاوة ، وبعد لحظات استطعت أن أتبيَّن وجه « الدادة شيرين » ، فقلت مجهودة الصوت :

متى يتم الوضع ؟

— لقد تم الوضع يا بنية ، لقد انتهى كل شىء ... نحمد الله على سلامتك ...

فحاولت أن أشرئب إليها ، وأنا أقول متلهفة واجفة القلب :

أين المولود ؟

وفى هذه اللحظة ، أقبلت الطبيبة ، وإذ رأتنى قالت :

لقد استيقظت ... استيقظت لتتعبينا مرة أخرى !

فقلت : أنا ... هل أتعبتك ؟

فأمسكت بيدى تجس نبضى ، ثم قالت :

عظيم ... النبض على أحسن حال .

وألفيتنى أتلفت حولى وأنا أقول : أين هو ؟... أين الطفل ؟ أين الطفل ؟ ... ذكر هو أم أنثى ؟

— تسألين عن الطفل قبل أن تسألى عن نفسك؟ صحتك قبل كل شىء ... لقد اجتزت محنة قاسية !

ثم وجدتها تكشف عن ثديى تتفحصهما . فقلت: أرغب فى رؤيته. هاتيه لأرضعه ! ... ذكر هو أم أنثى ؟ ... بربك أخبرينى ...

فهمست في أذني : دعيه نائماً ... يجب أن يرتاح وقتاً ... سأحضره لك بنفسي إذا استيقظ .

وتابعت عملها تفحص ثدني في عناية ، ثم انتحت بـ «الدادة شيرين» ركناً وأخذتا تتساران ، ثم انصرفت الطبيبة . وعادت «الدادة شيرين» إلى مقعدها عن كثب مني ، فقلت لها وأنا أحس قلقاً :

لماذا أبعدتم الطفل عني ؟ ذكر هو أم أنثى ؟

فنظرت إليّ بعين يتجلى فيها الأسى ، وأخذت يدي صامتة تلاطفني ، فازدحمت في رأسي الظنون تغتالني ، ثم سمعتها تقول : احمدي الله على أن كتب لك السلامة ... أمر الطفل هين ... لا تسألي عنه ...

فأحسست بشفتي ترتجفان ، ووجدت « الدادة شيرين » تزداد ملاطفة لي كأنها تواسيني في نكبة حاقت بي . فأخفيت وجهي بين يدي واندفعت في النشيج . فقالت «الدادة شيرين» : يجب أن تعني بنفسك ... ولقد كانت ولادةً عسيرة ، عسرة غاية العسر ، ولم يستطع الأطباء إلا أن يعملوا على نجاتك أنت وحدك ...

فقلت مسترسلة في نشيجي الحار : حتى هذا الطفل لم يدعه الله لي ؟

ـــ هذه مشيئة الله .

ـــ لقد كان هذا الطفل معقد أملي ... إن الله ليستكثره عليّ .

وتابعت بكائي ، وأنا أقول : كان مناي ان يكون لي إنسان يملأ عليّ حياتي الفارغة الموحشة ، وينير لي طريقي المظلم الحالك ..

فأما اليوم فإني أعود إلى الفراغ والوحشة والظلام .

ـــ أقلي من البكاء يا بنية ... قد يمنحك الله عطية تعوضك خيراً مما فقدت ... إن رحمة الله قد وسعت كل شيء !

ثم صمتت برهة وجعلت تعبث بحاشية ثوبها ، وهمهمت تقول :

قد تجدين مَن يملأ حياتك بهجة ويشيع فيها نوراً .. مَن يدرى ؟

فحدقت فيها قائلة : أية بهجة وأى نور ؟ أوهام لا طائل تحتها .

فتخايل على وجه « الدادة شيرين » ظل ابتسامة ، وقالت :

يجب ألا نيأس من رحمة الله ... فضل الله عظيم !

... كنت أحس أنى هيكل مهدم تألبت عليه الضربات ، فقضيت اليوم بين يقظة ونوم ، أرعى حزنى فى تبلد واستسلام .

وفى غدوة اليوم التالى أيقظتنى يد الطبيبة ، وهى تنقل أصابعها على صدرى . وشهدت « الدادة شيرين» تسائلها فى همس وسرار .

ولاحظت أن الطبيبة بادية العناية بشدين . فتركتها توالى الفحص وأنا مخلدة إلى صمت وسكون ، فوجدتها تسألنى :

ماذا ؟ أين ذهب لسانك !

فقلت فى إهمال تائهة النظر : ماذا تريدين منى أن أقول ؟

— أى شىء ... اسأليني !

— إذا لم يكن من الكلام بد ، فإنى أسألك سؤالا واحداً .

— سليني .

— متى أترك المستشفى ؟

— أنت عجول .. لم يحن الوقت بعد ... يجب أن تستكملى صحتك حتى لا تعرضى نفسك لمكروه .

ثم ضغطت يدى ، كأنها تشجعنى على احتمال ما حل بى ، وراحت تحث خطاها إلى الباب ..

وفى ظهر اليوم الثالث للوضع ، بينما كنتُ أقلب النظرات فى عرض الحجرة فى ضجر وملال ، كانت « الدادة شيرين » تختلس النظر إلىّ وترسل فى الفينة بعد الفينة آهات وتنهدات .

وفتح الباب فجأة ، فظهرت منه الطبيبة تحمل لفيفة بين يديها . وما إن تدانت من فراشى حتى تكشفتْ لى اللفيفة عن وجه صغير تلتمع فيه عينان التماعَ الزمرّد ... وسمعت الطبيبة تقول : ألا ترينه جميلا؟

فهمهمت بلا مبالاة : جميل ...

ثم رحت أزورّ ببصرى عنه . وعجبت لهذه الطبيبة التى سقم ذوقها وجمد شعورها ، حتى إنها لتواجه أماً ثكلى تسألها عن جمال طفل غريب !

واستأنفتْ الطبيبة تقول :

إنه لجميل ، ولكنه مع الأسف جائع ... شديد الجوع !

وألقيت على الرضيع نظرة ، فتبين لى على الأثر ماهو فيه من نحول وهزال ، وكانت عضلات وجهه تتقلص ويشتدّ تقلصها وهو يتلفت يَمنة ويسرة مهتاجَ الأعصاب ، وشفتاه تختلجان اختلاجَ التلمّس .

وسألت الطبيبة : لم أحضرته ؟

ــ جاء يطلب قليلا من طعام !

ــ قليلا من طعام ؟

وندّت من فم الطفل صيحة ... إنها صيحة كسيرة ، عليها طابع الأسى ، فما أسرعَ أن قالت الطبيبة : هاقد تكلم ، يريد أن يطعم .

وماعتم الطفل أن تتابع صياحه الكسير ، واشتد تقلص وجهه واحتقانه ... وتمثل لى أن صوته أشبه بصوتٍ مستغيث على شفا الهلاك يطلب النجاة ، وسمعت الطبيبة تقول : لقد بدأ يحتج !

ثم ألقت بالرضيع بين ذراعى ، ومدّت يدها تكشف عن ثديى . فلما أحسّ الطفل حلمةَ الثدى تلامس شفتيه تعلق به وأطبَق عليه . وآلمتنى ضغطته ، فكدت أصرخ وأنا أدفع به قائلة للطبيبة :

نَحِّيه عنى ...

ولكن راعنى منه أنه تشبَّث بصدرى ، كأنما يحاول أن يأخذ الثدى بكلتا يديه ، خشاة أن يفلِت منه . وكان يجاهد فى سبيل ذلك جهاد المستميت ، فأحسست به وهو يستدرّ اللبن كأنما ينتزع قبسة من روحى ، وألفيتنى أرنو إليه وهو ماضٍ يتمصّص .

وعلى الرغم مما كنت أعانيه من ألم ، شعرت بنشوة طارئة تسرى فى دمى ، وتنسينى ألمى ...

لقد بدأت تتجلى على محياه سمات الرضا والارتياح .

وكان حسيس أنفاسه ينبعث على صدرى ، ووجيب قلبه يتابع وجيب قلبى ، ومكثت رانية إليه فى تفحص ، يشملنى شعور ابتهاج .

وكان كلما ترك الثدى لحظة ليستريح ، عدل بوجهه إلىّ ، فلاقتنى عيناه الزرقاوان اللامعتان ، كأنى أقرأ فيهما شكراً واعترافاً بالجميل ... وماهى إلا أن يميل على الثدى يرتشف ، ومابرحت يداه قابضتين عليه لاتبغيان به بديلا

ولبثت على تلك الحال بعض الوقت ، ثم ألفيته وقد فترت همته ، وتراخت أوصاله ، ومال رأسه على صدرى ميلة النعاس

وسمعت الطبيبة تقول :

لقد شبع . أشكر لك ما أسديت من حسن الصنيع

فرفعت إليها بصرى ، وقد وضعت إصبعى على فمى ، وأنا أهمس :

لا ترفعى الصوت ... إنه على وشك المنام !

فلاحت على وجهها ابتسامة رقيقة ، وانصرفت من الحجرة فى خطوات هينة لا يكاد يسمع لقدمها خفق .

وأحطت الطفل بذراعى أحتضنه فى رقة وحنان ، وعيناى لا تنحرفان عن محيّاه ... وأحسست رويداً بجفنىّ يسترخيان ، وشملنى سبات .

واستيقظت بعد ساعة أو نحوها ، فكان أول ما عنيت به أن تفقدت الطفل حولى ، فلم أجد له من أثر .

ووقع بصرى على « الدادة شيرين » جالسة بجوارى جلستها الراتبة ، فقلت على الفور : أين هو ؟

— لقد ذهبوا به إلى أمه .

فهمهمت : أمّه ؟ !

ثم خفضت من بصرى فى صمت ، فقالت « الدادة شيرين » :

إنها تشكر لك حسن قبولك لطفلها ... لقد أنقذتِـهِ حقاً .

فقلت ، وأنا على حالى مطرقة : من تكون أمه ؟

فانحنت « الدادة شيرين » تعبث بحاشية ثوبها برهة ، ثم قالت :

سيدة من أسرة كريمة . صدّقينى لا أعرف اسمها .

— ولم لا تتولى إرضاعه ؟

— إنها يا ابنتى مهزولة أجهدها الوضع ، وقد غاض لبنها ، فما فى ثدييها منه قطرة . إن الطفل كان يتضوّر جوعاً منذ ثلاثة أيام ، وهو

حائر يستجدى زاده من الوالدات بشق النفس .

وأمسكت « الدادة شيرين » بيدى تلاطفها وتقول :

شكراً لك يا « سلوى » ... شكراً لك .

— وماذا فعلت حتى أنال منك هذا الشكر كله ؟ ليست بى حاجة إلى مافى ثديىّ من لبن ، فإن لم يرضعه هذا الطفل ذهب سدى .

فمالت علىّ تقول :

هذا ماكان فى نفسى أن أقول ... لن تخسرى شيئاً بإرضاعك هذا الطفل ، بل إنك لتكسبين بذلك ثواب الله !

وبعد وقت أقبلت علينا الطبيبة بين يديها اللفيفة ، فخفق قلبى على الفور ، ووجدتنى أمدّ يدى أتناول الطفل فى شغف . وسمعتها تقول :

لقد جاءك يلتمس نصيبه من الطعام ، فهل تجودين ؟

وكشفت عن صدرى ، فما إن دانانى الصغير حتى ألفيته يشرئب إلىّ مختلج الشفتين مهتاج اليدين ، وسرعان ماتشبث بثديى وراح ينهل ويعل .

وقالت لى الطبيبة : سأدعه لك وقتاً ، ولكن لاتتركيه يرضع أكثر من عشر دقائق ... خمس من كل ثدى ...

وانصرفت من الحجرة على الأثر .

وأمضى الصغير فى صحبتى وقتاً ، وعيناى لا تريان وجهه الأملس الرقيق ... كنت أديم النظر إليه وإلى عينيه الزرقاوين ، فكلما لاقتنى هاتان العينان أحسست أن تياراً كهربياً يصلنى بهما ، تياراً متدفعاً يسرى فى أوصالى ويبعث فيهما دفائن الشعور ، فلما انتهت الرضعة ظل الطفل مستيقظاً يبص بعينيه ، ويضرب بيديه ورجليه ، ينتظمه النشاط والمرح ، فأقبلت عليه ألاطفه وأداعبه ، وكانت تسنح على وجهه خلجات كأنها ظلال ابتسامات.

وقدمت الطبيبة ، فلما دنت من سريرى ، قلت لها :

ألا تتركينه قليلا ؟

— ألا تضيقين به ؟ .

— إنه يؤنس وحدتى .

— إذن أتركه وقتاً فى رعايتك ...

— وأمه ؟ أخشى أن تستبطىء مقدمه !

— إنها فى حاجة إلى راحة ، وهى تعلم أن طفلها عند من يرعاه ... إنه هنا يجد على الأقل ما يسد جوعته ، أما هناك فلا يجد من شىء !

وانصرفت عنى ، وبقى الطفل معى طويلا من الوقت ، فكنت أعنى به وأرضعه على النحو الذى رسمته لى الطبيبة فى حفاوة وإقبال .

توالت أيام والطفل يحمل إلىّ ليقضى معى فترةً ليست بالقصيرة . فازددت به تعلقاً . وآنست فى صحبته طمأنينةوهناءة وبدأتْ تنجاب عن نفسى غيوم الأسى، وأستقبل الحياةَ بشعور التفاؤل والاستبشار.

لم أكن أفكر إلا فى حاضرى ، وفى وجود هذا الطفل معى...

وكنت أجدنى مزهوة مغتبطة كلما ألفيت الطفل يتنضر وجهه ، وتتورّد وجنتاه ، فقد تجلت فيه علائم الصحة ، وانقلب من طفل مهزول على وشك أن يفقد حياته ، إلى طفل ريان مكتمل النشاط والحيوية .

وكنت كلما نظرت إليه أحسست بأنّ لى حقاً عليه ، وأنه أصبح مديناً لى ... لم يعد غريباً عنى ، بل إنه منى ...

لو مَلك الكلام فى مهده لصاح بى : لا تتركينى !

وانقضت أيام ملازمتى للفراش ، وجعلت أخطو فى الحجرة،فكان يلذ لى أن أحمِلَ الطفل بين يدىّ أطوف به فى أرجائها أهدهده ...

وكنت كلما ضممته ولثمته ، سرَى فى موات نفسى خصب ونماء ، وشاعَ فى حنايا صدرى إشراق وانشراح .

وقلت مرة « للدادة شيرين » وأنا أدور به فى الحجرة :

ألا أمضى إلى أمه أتعرّف بها ؟

فقالت : جميل منك أن تفكرى فى زيارتها ، ولكن لم يحن الوقت بعد ... سنؤجِّل ذلك إلى حين .

وجلست على السرير أحمل الطفل بين ذراعى ، فسمعت « الدادة شيرين » تقول :

ألم أقل لك من قبل : إن الله قد يمنّ عليك بما يعوّضك مما فقدْت ؟ إن الله يأخذ ويعطى ...

فألقيت عليها نظرة ساهمة ، وقلت : ولكنه ليس بطفلى .

فتابعتْ كلامها غير معنيّة بقولى :

إن الله لأكرم من أن يحرمك ما يختلج فى نفسك من عاطفة الأمومة الحنون ... إنه يهبُك طفلا يواسيك فى محنتك ويشيع فى حياتك البهجة والنور .

فصحت أواجهها بقولى :

إنه ليس طفلى مهما يكن من أمر .

فأحدّت بصرها فىّ وقتاً . ثم دنت من أذنى تهمس :

تستطيعين أن تكونى له أمّاً ... أماً ثانية ... إذا لم يكن لديك من ذلك مانع .

فاستطلت بعنقى إليها ، وقد ازددت بالطفل تشبثاً . وقلت : كيف؟

— تستطيعين أن تعيشى معه ، لا يكون بينكما فراق .

فأخذت بيدها أقول : كيف ؟ كيف ؟

— هذه مهمّتى ... كلى هذا الأمر إلىّ ، وإنى أدبّره خير تدبير .

ولاحت على وجهها ابتسامة رقيقة ، ثم خرجت تتثاقل على عكازتها ، وأنا أرقبها حيرى يهزّنى سرورٌ خفىّ ...

٧١

يومان مضيا ...

وفى ضحوة اليوم الثالث أقبلتْ علىّ « الدادة شيرين » وضاحة الوجه مشرقة القسمات ، بيد أن حركاتها وإشاراتها كانت تفصح عن تأثر ، تجاهد فى كبته وإخفائه عنى . وقالت بعد أن ألقت بجسدها على المقعد فى إعياء :

أراغبة أنت الساعة فى لقاء أم الطفل ؟

— ليس لدىّ ما يمنعنى من لقائها فى أى وقت تشائين .

فاقتربت منى ، تقول مرتعشة الصوت :

لقد فاوضتها فى كل شىء ، واتفقت معها على كل شىء ... إنها لترحب بأن تكونى ضيفها ترضعين الطفل وتكفلينه ... لقد شهدتْ لك الطبيبة عندها بأن لبنك خير لبن يوافقه ويضمن له العافية والنمو ...

— تقصدين أن أكون فى بيتها مرضعاً ؟

— لن تشعرى من معاملتها أنك فى صفوف المرضعات ... إنها طيبة رقيقة القلب عطوف ... ستلقَيْن منها كل تكرمة وإعزاز ... هيا بنا إليها ...

ونهضتُ معها ... ووجدتها تستند إلىّ فى مشيها على الرغم من وجود عكازتها فى يدها ، وشعرت بأنها تتعثر فى خطاها تكاد تهوى .

وكانت تهديني الطريق ، فسرنا فى ممر انتهى بنا إلى باب ، فدخلنا

فيه ، فإذا بنا فى بهو صغير يسلمنا إلى حجرة الأم ...

وطرق سمعى صوت سَعلة نسْوية تنبعث من تلك الحجرة ، فوجدتنى أتمهّل فى خطاى ... وتوالت السعلة مرات ... فوقفت أنصِت ، وبدأ قلبى يرجف ... والتفتّ إلى الدادة «شيرين» أستوضحها الأمر ... فرأيتها تدفع بى فى رِفق لأتابعَ السير ، وسمعتها تهمس :

ثقى يا «سلوى» أن ليس فى الأمر ما يضيرك...

وراحت تجذبنى قائلة :

لقد مهدت لك كل شأن ... عولى علىّ !

ودفعتْ بعكازتها البابَ ، فدخلنا .

فإذا بى ... أمام «سنية» وجهاً لوجه !

كانت تحمل طفلها بين يديها ، وهى تخطو فى الحجرة خطاً بطيئة تعينها عليها إحدى الممرضات . فلما رأتنى شعرتُ بها ترتدّ خطوة إلى الوراء ، كأنها تريد أن تتوارى عنى .

وغامت الدنيا فى وجهى ، وكأنى لا أتبين بعينى من شىء . ووجدتنى أستند إلى أقرب متكإ .

وأخذت أعتصر جبينى بيدىّ . وأنا أحس قشعريرة تهزنى من فرع رأسى إلى أخمص قدمىّ . وتراءى لى شبح «الدادة شيرين» يقصد إلى موقف «سنية» ويلقى فى أذنها بضع كلمات بلغت سمعى منها هذه الجملة :

ألم نتفق على كل شىء ؟ ما بالك ؟ الخير فيما اتفقنا عليه !

وعادت «الدادة شيرين» إلىّ تقول :

ألا تتقدمين لإرضاع الطفل ؟ إنه إليك فى حاجة ...

وسمعت الطفل يتصايح ، كأنه يتقاضانى حقه عندى .

فاستأنفت « الدادة شيرين » تقول فى صوت واضح النبرات :

ألا تحيينَ صديقتك « سنية » . . . لقد كانت فى انتظار مقدمكِ إليها .

فرفعت عينى إلى وجه «سنية» شديد الامتقاع .

وسمعتها تحرك شفتيها مغمغمة ، ولكننى لم أستبن شيئاً مما تقول .

ووجدتها تحاول أن تمد يدها إلىّ ، فأسرعت إليها ، وانكببت راكعة أمامها ، وأخذت يدها بين راحتىّ أغمرها بالقبلات ، والدمع يسحّ من مقلتى ! ...

من مؤلفات

محمود تيمور

١ — بالعربية :

١ مجموعات قصصية :

العنوان	الوصف
كل عام وأنتم بخير إحسان لله	كل منهما مجموعة قصص تحليلية للمؤلف — نالتا جائزة القصة سنة ١٩٥١ م .
خلف اللثام شفاه غليظة بنت الشيطان مكتوب على الجبين فرعون الصغير شباب وغانيات	مجموعات قصصية من صميم البيئة المصرية وأحداث مجتمعنا ومشاكله ، ينحو فيها المؤلف منحى جديداً فى التحليل النفسى وسبر أغوار النفس البشرية فيجلو الغامض من ألغاز المجتمع وخفايا نفوس البشر ، منفرداً بطابع جديد من فلسفة القضاء والقدر معالجاً شواذ الطباع فى رفق ولين آخذاً بأيديهم فى هوادة من جحيم الشهوة إلى نورانية الخير الرحيب وميدان الجمال الحبيب .
قال الراوى	مجموعة أقاصيص للنشء والأسرة .

٢ — قصص مطولة :

كليوباترة فى خان الخليلى	فلسفة الحرب والسلم تطغى على النفس البشرية ولو تطهرت فى عالم الأرواح
سلوى فى مهب الريح	قصة فتاة لعبت بها الأحداث ولونتها البيئات فسارت نهباً لأعاصير الهوى وصبابات الغرام وجرت على يديها حوادث عنيفة ورجات جسام
نداء المجهول	فلسفة الجرى وراء المجهول علّه أن يعوض المرء ما خاب فى تحقيقه من مأمول .

٣ — قصص تمثيلية :

ابن جلا	صور حية ناطقة بحياة الحجاج بن يوسف فى لون مسرحى جديد .
اليوم خمر	حياة امرىء القيس فى أدوارها الصاخبة .
حواء الخالدة	قصـــة عنترة وعبلة فى تحليل نفسى يجلو حقيقة المرأة .
المخبأ رقم ١٣	فلسفة الحياة والتعلق بأذيال الأمل فى أشد ساعات الحرج.
سـهاد	لحن المترفين وضجرهم من حياة النعيم ونزوعهم لمحبة الصفاء أياً كان .
فـــداء	فلسفة الإصلاح والتضحية فى أروع مظاهرها الحيوية

المنقـــذة	قصة المعروف يأسر من أسدى إليه ويعذبه حتى يرده إلى مسديه .
عـوالى	نموذج المرأة تفنى فى صلابة الرجل وتعجب ببطولته ولو كان شيخاً كبيراً .
قنـابـل	فلسفة الحياة والموت والصراع بينهما فى جو من الغرور والنفاق .
أبو شوشة والموكب	مسرحيتان تمثلان رياء المجتمع وآثار البيئة فى النفوس .

٤ — صور وخواطر :

شفاء الروح	مقالات تتسم بطابع الترويح عن النفس بتوجيهها نحو مسالك الحكمة .
ملامح وغضون	صور خاطفة لشخصيات لامعة من الشرق والغرب [الشخصيات العشرون] .
أبو الهول يطير	رحـــلات المؤلف إلى أمريكا فى ثوب قصصى مبتكر .
عطر ودخان	مقالات نقدية ساخرة فى طريقة حديثة فريدة .
فن القصص	محاضرات المؤلف فى الجامعات عن الفن القصصى والقصص الإنسانى .

٥ — مسرحيات :

كدب فى كدب

أشطر من إبليس

المزيفون

٦ — صور وخواطر :

النبى الإنسان

ب — بالإنجليزية :

قصص من صميم الحياة المصرية Tales from Egyptian Life

حـ — بالفرنسية :

Le Courtier de la Mort.

La Belle Aux Lévres Charunes.

بنت الشيطان La Fille de Diable.

غراميات سامى Les Amour de Sami

حلم سمارا Le Rieve De Samara.

د — بالألمانية : مجموعة قصص نشرها المستشرق الألمانى الدكتور ويدمار .

هـ — بالإيطالية : مجموعة قصص ترجمها المستشرق الإيطالى جبريللى

و — بالعبرية : مجموعة قصص نشرها المستشرق « كابيلوك » .